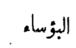
البؤساء

فيكتور هيجو

ترجمة
إميل بيدس

دار المعرفة
للطباعة والنشر


البؤساء



لكاتب فرنسا العظيم

فيكتور هيجو

تعريب

إميل خليل بيدس

دار المعرفة

للطباعة والنشر

ص.ب ٥٧٦٩ بيروت – لبنان

١

كان « شارل ميريل » أسقف مدينة « ديني » عابداً طاعناً في السن حينما بدأ القدر ينسج خيوط هذه الرواية سنة ١٨١٥ .

زوجه ابوه وهو يافع ، فأقبل على الدنيا يستمتع بمباهجها وملذاتها . حتى اذا ما اندلعت نيران الثورة الفرنسية ، هاجر شارل الى ايطاليا ، حيث ماتت زوجه .

ولما رأى هول النقم التي نزلت بالناس ، فزع الى ربه ونشد الدين ولم يلبث ان رسم كاهناً « لبرنيول » . فلاذ بصومعته وعكف على الصلاة والصوم . وكان في ذلك الحين قد اكتهل واشتعل رأسه شيباً .

وفي عام ١٨٠٦ رسم أسقفاً لمدينة « ديني » ، فحمد الله على ما قضى من أمره ونزح الى تلك البلدة مصطحباً معه أخته الآنسة « بابتستاين » ، وكانت تصغره بعشرة أعوام ، وخادمته « ماغلوار » المشرفة على شؤون المنزل .

وقلما وجد بين النساء من يشبه « بابتستاين » في خلالها او في دماثة خلقها . ولما اهرمها الدهر زادت واضحت رحمتها حديث الناس .

وكانت الخادم « ماغلوار » مكتنزة الجسم ، بسامة الثغر ، لطيفة المعشر ، تلهث باستمرار بسبب نشاطها ودأبها في البدء ، ثم بسبب داء الربو فيما بعد .

ما كاد الأسقف يستتب به المقام في « ديني » حتى شرع على الفور يصلح من شؤون الأبرشية ، ويزيل معالم الترف . ثم وهب بيته المتسع لمستشفى البلدة ، واكتفى بغرف المستشفى القليلة الضيقة مأوى له ولأهل بيته . ووزع الخمسة عشر الف ليرة التي يتقاضاها من الحكومة على وجوه الـــبر ، ولم يستبق منها لنفقاته الا الف ليرة في كل شهر .

وتنسم أهل « ديني » بدعائه وابتهالاته رَوح المخافة والايمان ، وكان للثقة التي تغلغلت في صدور من جرح الاسى قلوبهم ، احسن الاثر في هذه القلوب .

٢

جنحت الشمس للمغيب ، فهبّت نسمة رُخاء على مدينة « ديني » ما لبثت ان شابتها نفحة برد ، حينما سعى اليها في مطلع شهر تشرين الاول من عــــام ١٨١٥ رجل أضناه وعث الطريق .

كان متين التركيب قوي البنية ، يميل الى الطول مع شيء من البدانة . وكان حليق الرأس نابت اللحية يتجاوز عمره الاربعين، ويتلفع باطمار ، ويحمل بيده عصاً ، ويشيل على كتفه كيساً وضع فيه جميع ما يملك من متاع .

ولما حاذى دار العمدة تردد هنيهة ثم دلف داخلاً ، وخرج بعد دقائــق ، فحدجه الجندي المكلف بالحراسة بنظرة تكبر وغطرسة .

وما كاد يجد نفسه في الطريق حتى تلفت حوله متأملاً ثم اتجه بسرعة صوب فندق صغير طرق على بابه ووقف ينتظر . وخرج اليــه صاحب الفندق فنهره قائلاً : « ولّ وجهك عني ايها القبيح بين الرجال ، أخبارك سبقتك اليّ ، فأنت تدعى « جان فالجان » وقد لفظك السجن منذ ايام ! »

وقرصته عقارب الجوع فشد بيده على بطنه . وتفرس في الأفق فرأى بوادر الظلام، فلهفت نفسه واندفع الى الامام فطرق باب خان متداعي البنيان صادف فيه شراً مستطيراً . فانه مـــا كاد يغشى المكان ويدنو من النيران حتى تطلعت اليه الانظار وسادت الوشوشة واللغط ، ثم اقترب منه صاحب الخان وحدجــه

بنظرة يتطاير منها شرر الغيظ وقال : « امـا كفاك ما صادفت في ذلك النزل حتى اتيت الينا ، اغرب عني ولا تكلفني اتيان ما اكره » .

وخيل اليه ان افضل مكان يلجأ اليه هو السجن ، فأمّه وطرق بابه . فنهره السجان قائلاً : « ويلك يا هذا ! ألا ترى ان البناء سجن يضم اليـه رهط الشيطان ؟ فافعل ان شئت ما يستوجب العقاب حتى افتح لك هذا الباب ! »

فانقلب راجعاً وما زال يمشي متعثراً حتى اعترض سبيله حديقـة غنّاء ، فراودته نفسه ان يلوذ بها قانعاً بالراحة عن الطعام . فلما دخل صادفه بيت صغير طرق بابه بيد مرتعشة .

ورفع المزلاج ووارب صاحب الدار الباب وقال متسائلاً بصوت أجش : « ماذا تُريد ومن ترى انت ؟ »

قال : « سائل غريب يستضيفك على ان ينقدك اجراً مضاعفاً ان أقريتـه وأفسحت له في بيتك » .

فقال صاحب الدار هادراً : « ومن ذا أحق باسعافك من فنادق المدينة ؟ »

فضاقت الدنيا في عيني جان فالجان وانفلت في الحديقة وهو يناجي نفسه ويقول : « اواه ! لقد استكثروا عليّ اللقمة والفراش ، ولفظني السجن ، ألا ليتني مت قبل أن يفرج عني ... »

وتنفس الصعداء ومشى متثاقلاً حتى اذا حاذى حجراً كالمقعد ، انطرح عليه كما ينطرح القتيل واغمض عينيه المخضلتين بالدموع وهو يتمتم بكلام غـير مفهوم ...

وبينا هو يتقلب على الصخر ، طلعت عليه من بيت مجاور امرأة نَصَف اقتربت منه وقالت : « ما بك أيها الرجل تفترش الصخر وتلتحف الغيم ؟ »

قال : « أفي ذلك مدعـاة للعجب ؟ قضيت عشرين عاماً وانا انام على

الخشب .. فلما خرجت من السجن كنت كالخارج من الظلام الى القبر ، فقـــد طردني الجميع وتنكروا لي ، وكأنهم اتفقوا على سومي الخسف » .

فاستحالت دهشة المرأة الى مرارة ، وهتفت : « عـلى رسلك يا صاحبي ، انظر ، هناك بيت يأوي اليه عباد الله ، فاذهب ، اقصده تجد العون والرعاية» .

ما انتهت الآنسة « بابتستاين » من سرد قصة المتشرد الذي ألمّ بالمدينة في تلك الامسية على اخيها الاسقف وخادمتها ، حتى انفتح الباب الذي لم يوصد قط واندفع المتشرد داخلاً وهـــو يتلفت في كل مكان وترمي . فهبت العانس واقفة، وفتحت الخادم فاها مشدوهة. وتكلم الغريب فقال: «أنظر اليّ! اسمي « جان فالجان » مجرم محكوم امتص السجن رحيق عمري واقتلع مـن حياتي عشرين حولاً ، ولم استنشىء عبير الحرية الا منذ اربعة أيام . وفي هـذه المدينة أوصدت دوني الابواب . حتى أيست وخامرني القنوط ولم أجد مندوحة من قضاء ليلتي طاوياً على صخرة باردة . الا ان القدر قيض لي امرأة طيبة أشارت عليّ ان ألوذ بك ، فجئت ... فأغثني انقدك ما تشاء من المال ! »

فهز الاسقف رأسه وخاطب الخادم بقوله : « أعدي الفراش وجهزي الطعام ، فقد أمّ دارنا ضيف عزيز ! »

فتهللت اسارير الرجل وقال وكأنه لا يصدق اذنيه : « أحقاً ما أسمع ؟ »

فابتسم الاسقف وأجاب : « اني عابد أنشد رحمة خالقي » .

وتقدم إلى الباب فأغلقه ، ثم دعا المتشرد ان يجلس إلى المائدة بجانبه . وما فتىء يحادثه ويستزيده حتى شبع الرجل .

ولما نهض القس نظر الى ضيفه متأملاً وقال : « إخالك يا سيدي متعباً فهلم الى مرقدك » :

ثم تقدمه الى الحجرة التي اعدت له بعد أن ناوله شمعداناً فضياً مضاء وحمل هو شمعداناً آخر .

ونام الشرير المنهوك . نام جان فالجان ولكنه تنبه من رقاده والليل يجاوز نصفه . تنبه مذعوراً وقد رأى قصة حياته من أولها منذ كان طفلاً ...

رأى أباه الفقير يشذب الشجر ويكتسب القليل . ورأى نفسه يترسم خطوات ابيه في شقائه .

فقد ابويه وهو صغير . وقضىزوج اخته بعد حين فرأى نفسه وهو لا يتعدى الخامسة والعشرين مسؤولاً عن سبعة أطفال .

ووجد نفسه في احدى الليالي ، يمد يده الى واجهة دكان ليسرق بعض الأرغفة . ولكنه وقع في يد العدالة وحكم عليه السجن خمس سنين !

جرى هذا سنة ١٧٩٦ ومنذ تلك السنة لم يعد يعرف الا برقمه . اما اسمه فقد طمس واما رقمه فقد كان ٢٤٦٠١ !

وسنحت له الفرصة فهرب من السجن ، ولكنه رجع ثانية ليقضي في ظلماته ثلاث سنوات إضافية .

وما زال يوالي محاولاته فيهرب ليقبض عليه فيعود ، وتعود مدة عقوبته فتضاعف ، حتى بلغت المدة التي قضاها في السجون تسعة عشر عاماً ونيفاً .

لقد امتدت يد جانفالجان الىرغيف من الخبز ليملأ به بطوناً خاوية طاوية ، فكان جزاؤه السجن تسعة عشر عاماً . وكان الحكم الذي تلفظ به الحاكم بداية النهاية لأسرة كاملة .

دخل جان فالجان السجن و... ينشج ويذرف الدمع ، وانطلق منه جلفاً جافاً .. دخله واليأس مستحو... ... وغادره وقلبه المظلم تغمره موجة عاتية من التشاؤم ..

فماذا كانت قيمة الحياة لهذه النفس الحائرة المضطربة؟ وكيف نظر الى الحياة بعد ان استنزف منه رغيف واحد... قوة هذه الحياة وزهرتها؟

كان جان فالجان جاهلاً كما أسلفنا ، إلا انه لم يكن أخرق معتوهاً . وقد علمته السنون دروساً ما كان ليتعلمها لو لم يزج به في السجون ، ولو لم يرسف بالاغلال ويطبق فمه كارهاً على كلام وكلام ، ولو لم يُسط ظهره عشرات المرات ويتهاوى الى الارض وهو يئن من النصب كلما عمل فوق طاقته واحتماله . ومع انهم سلكوا معه منهاج الظلم والطغيان ، وارهقوه بالاعنات الفادح ، الا انه كان يتذبذب بأفكاره ، فيسمو بها تارة ، ويسفّ أخرى .

على انه ما كاد يخرج من القيد ، حتى أيقن ان عذابه قد تضاعف ، بالبطاقة الصفراء التي وصموا بها حياته .

وقادته قدماه الى مدينة « جراس » ، فطلب من رب العمل ان يضمه الى جماعته ، فلبى الرجل طلبه وأنزله منزلة العمال الآخرين . فأقبل الشقي على عمله يؤديه خير اداء ، الا انه صرف من العمل بنصف ما يستحق ساعة ألمّ رئيسه بماضيه . فجزع وتولاه يأس قاتل وجعل يناجي نفسه وهو يغادر المصنع ذليلاً قانطاً : « أهكذا يظلم الناس بعضهم بعضاً، أهكذا يحب الانسان الباطل ويكره الحق ؟ »

•

دقت ساعة الكاتدرائية الثانية بعد منتصف الليل فتنبه الشقي من نومه ، وكان انتقاله الفجائي من النوم على الأخشاب الى النوم على الفراش اللين . وطوّفت في مخيلته على حين غرة تلك الصحاف الفضية . ووسوس في قلبه الشيطان . ان يستولي عليها ، فقفز من مرقده ، ولكنه عاد فاستلقى ثانية . فهل يسلب من أحسن اليه ؟

وانتصر صوت الشر على صوت الخير في نفسه المضطربة فقام ثانية وتسلل بخفة من حجرته بعد أن قبض على عصاه ومتاعه . واتجه الى مخدع الأسقف ، حتى اذا ما دنا من النائم رفع عصاه ، ولكنه عاد فانزلها ، فقد رأى وهج

الطهر والايمان والاطمئنان يشع من ثنايا هذا الوجه الناصع ، غير انه استخرج الصحاف من مخبئها وحملها كما هي بسلتها ورجع من حيث أتى . وما هي إلا هنيهة حتى غادر الدار ، فوضع الصحاف في خرجه وطوح بالسفط وتسلق الجدار المرتفع بخفة النمر وذهب في سبيله لا يلوي .

ولما كان الصبح هرعت الخادم الى الاسقف في ركنه الظليل في الحديقة وقالت منذعرة : « اين سفط الفضة يا سيدي ؟ »

فمد العابد يده الى السفط الملقى على الأرض وقال : « هاك هو فاحمليه » .

قالت : « أواه ؟ لقد صح حدسي ، فأنا مذ ألمّ طرفي بهذا الشرير فقد تبينت من لمحات ناظره ما ملأ قلبي شكاً » .

فقال زاجراً : « يا ضعيفة الثقة ، اما تعلمين انا لا نملك هذه الآنية ؟ فعلام انزعاجك وفي وسعنا الاستعاضة عنها بأوعية من النحاس ، وان لم يكن ، فمن الخشب ؟ »

وبعد دقائق ، وبينا كان العابد يتناول طعام الافطار ، إذ بالباب يطرق بعنف ويفتح عن ثلاثة رجال يتشبثون برابع .

كانوا ثلاثة من الشرطة ، اما رابعهم فكان جان فالجان . وتبادل الرجال النظرات ، وارتفع صوت الاسقف يقول « سيدي العزيز ؟ ماذا حدث حتى تسهو فتولي عنا دون ان تأخذ معك الشمعدانين اللذين رجوتك ان تقرنهما بالصحاف ؟ »

فحملق جان فالجان فيه غير مصدق ، وقال الضابط متعجباً : « انصف الرجل اذاً حين زعم انك نزلت له عن هذه الفضة ؟ »

فهز الاسقف رأسه وأجاب : « أجل ، أجل ، لقد نطق بالصواب فاخلوا سبيله ناشدتكم الله » .

ثم امر خادمه ان تأتيه بالشمعدانين . فلما جلبتها قدمها الى جان فالجان وهو يقول : « تالله لو قصدتنا في كل حين . فنحن نكرم مثوى الاصدقاء ونرحب بكل من ساقه الينا لطف القضاء » .

واطرق جان فالجان والدمع يكاد ينبجس من عينيه ، ثم أمّ المخرج ورن في سمعه وهو ينصلت من الباب قول العابد : « افعل ما فيه خير نفسك وراحة ضميرك ايها الصديق .. لقد أقسمت لي ان تطيع ربك وتبحث عن الأصول والفروع وتسعى الى بلوغ منزلة الكمال في الفضل والتقوى ومخافة الله ! فسر على بركة الله وتذكر – تذكر صديقك الامين » .

وابتعد جان فالجان والكلمات ترن في اذنيه ومأثرة العابد تثير دهشه ومشى قدماً ، يضرب في الارض فيغذ السير تارة ويتباطأ أخرى ، حتى اذا انهكه التعب استلقى تحت ايكة وارفة الظل واغمض عينيه وحلق في فضاء الفكر .

ولما اقبل الظلام تناهى الى سمعه صوت غناء ففتح عينيه ، فاذا بغلام لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره يقبل عليه وهو يطفر ويثب ويضم الى صدره حيواناً اليفاً كان على الأرجح مصدر رزق له . وجعل الحدث بعد أن اصبح على قيد خطوات منه يلهو بقطعة فضية ، فيقذف بها في الفضاء ويلتقطها قبل أن تسقط . واخطأت يده مرة فسقطت القطعة وتدحرجت حتى حاذت قدم جان فالجان . وبحث الغلام عنها وما لبث ان قال : « ألا رفعت قدمك قليلاً ايها السيد حتى استرجع قطعتي ؟ انني « جارفي » الصغير ولا املك من الدنيا سواها ؟ »

فقطب جان فالجان ثم رماه بنظرة تقدح شرراً ، وما لبث ان انتهره ولوح بعصاه مهدداً .. فسقط في يد الغلام وابتعد وهو ينتحب .

والتقط جان فالجان القطعة وملى بصره فيها ؛ وما عتم ان نهض من ضجعته وادلج في الليل البهيم الذي ضرب رواقه .

وتنبهت حواسه بغتة فوقف منتصباً وجعل يصيح بأعلى صوته وينادي الغلام ويطلب اليه الرجوع . ثم طأطأ رأسه واستأنف السرى واليـأس يوسوس في صدره .

لقد انتصر الشر على الخير في نفسه وتألق النور الذي اشعلـه الاسقف في مخيلته ، وتفتحت تلقاء ناظريه منافذ يشعّ منها الضياء .. فماذا أصابه ؟ ماذا فعل به الاسقف ؟! وخيل اليه في تلك الفينة انه طفق ينظر الى ابليس على ضوء الجنة .

فكم قضى من الزمن يبكي في تلك الليلة ! وماذا فعل بعد أن كفكف دموعه ؟. سؤالان لا جواب لهما ... انما المعروف عنه ان رجلاً في تلك الليلة بالذات شوهد في الساعة الثالثة صباحاً وهو يجثو عن كثب من منزل الاسقف ، ويصلي بحرارة وإيمان .

★

ضحكت النساء الأربع ضحكة كالبكاء ، وهن يتكلفن المـــرح تكلفاً ، وافترقن فدخلت « فانتين » الى حجرتها واستخرطت في البكاء ..

كان هذا حبها الأول ، وقد وهبت نفسها لحبيبها « ثولوميس » ولكنه اخذ منها أثمن ما تحوزه امرأة ثم خفر الوعد وهجرها بعد ان أنجبت منه ابنة .

ما تفتحت اكمام فانتين في قرية « مونتري سيرمـــير » حتى ألفت نفسها محرومة من حنان الأم ورعاية الأب . ومضت بها السنون فشرخت واكتمـل عودها . ونزحت الى باريس واختلطت بمن هب ودب وارتمت في أحضان شاب عابث يدعى « ثولوميس » فاستولى عليها واتخذ منها محظية . حتى اذا ملها بعد أن أنجبت طفلتها ، ولى وجهه عنها !

وضاقت المسكينة ذرعاً بالحيـــاة وعافت نفسها باريس فارتحلت عنها

ومقصدها مسقط رأسها .

ولما حلت في قرية « مونتفرمي » عرجت على نزل صغير يديره مخلوق حقير يدعى « تيناردي » وزوجه التي تحاكيه مكراً .. ورأت فانتين على عربة قديمة محطمة ملقاة على باب النزل امرأة هذا الشرير تداعب طفلتين صغيرتين وتلاعبهما .

وما هو إلا سؤال وجواب ، واقبال من فانتين وتهافت ومكر من مدام تيناردي ، واشتراك زوجها اللئيم بالحديث حتى نزلت فانتين لهما المال الذي تحمل والمتاع الذي تملك على ان يستبقيا ابنتها ويعنيا بها ، وعلى ان ترسل اليهما في كل شهر خمسة عشر فرنكاً ..

ونامت فانتين في تلك الليلة في النزل وهي قريرة العين ترى فيما وفقت اليه ضماناً لخير معاملة تلقاها فلذة كبدها . ولكن خاب فألها فأنها ما كادت تغيب عن الأبصار في باكورة الصباح حتى نزعت المرأة عن « كوزيت » ملابسها واعطتها لطفليها .

وعذب الزوجان الطفلة المسكينة . واخذا يبعثان بالكتب إلى أمها يصفان لها سعادة الطفلة وما تحتاج اليه من المال .. وكانت فانتين تستجيب مغتبطة فترسل من عرق جبينها ما يطلبان .

وكانت فانتين ساعة غادرت النزل ، قد همت بالطريق تقطعه بقوة وايمان . ولما تغلغلت في أرض قريتها عجبت لما رأته من الانقلاب الهائل ، فقد استحالت الاكواخ الى قصور ، والاطلال الى مصانع شاهقة .

وقد عم الخير هذه القرية عام ١٨١٥ ، أي يوم انطلقت منها مولية شطر باريس منذ اثني عشر عاماً .

وكان ذلك عقب حلول رجل غريب بين ظهراني اهل هذه القرية المغمورة المطمورة ، التي سرعان ما اتسعت وانبسطت وأضحت مدينة صغيرة ذائعة

الصيت .

واتفق في ذلك اليوم الذي وصل فيه الغريب ان نشبت نار متلظية في منزل كبير اتت عليه ، وكادت لولا شجاعة هذا الغريب وبسالته ، تلتهم طفلين بريئين .. الا انه استخلص الطفلين من الألسنة المندلعة ، فكسب بذلك محبة الجميع ، كما ظفر باكبار قائد الشرطة الذي شاء القدران يكون أب الطفلين ، فلم يسأله عن اوراقه ، ولم يحاول استخلاص سره !

وعرف الغريب الباسل منذ ذلك الحين « بالأب مادلين » .

★

كان مادلين في العقد الخامس من عمره . وكان انشغال الفكر ظاهرة ملازمة له ، وهذا جميع ما قيل عنه بعد حادث الحريق .

طفق مادلين يعمل وكللت مساعيه بالنجاح ، وجنى من اعماله أرباحاً طائلة حتى انه استطاع ان يبتني مصنعاً كبيراً في نهاية السنة .

وادار وجهه ناحية أخرى ، فأسعف العمال وشيد لهم المساكن وفصل بين الرجال والنساء في المصنع . وما عتم بعد قليل ان أقام مأوى للعجزة والمسنين ، وأنشأ صندوقاً لمساعدة المقعدين .

وسمع به الملك فأعجب وسرّ وامر ان يقلد منصب العمدة . غير ان مادلين اعتذر كما التمس الأعذار لرفض وسام الشرف الذي خلعته عليه الحكومة .

وراجت الشائعات بين اهل البلدة على أثر رفضه كل آية من آيات التكريم. ولكنهم أحبوه رغم كل هذه الاراجيف ، وما زالوا يلحون عليه حتى رضخ اخيراً وقبل منصب العمدة . وهكذا أصبح رئيس البلدة وصار يلقب بالرئيس مادلين .

ومع انه اكتهل ووخط الشيب رأسه الا ان قوته كما قبل كانت خارقة لا تضاهيها قوة.. فلطالما أعان حصاناً على النهوض من كبوته ، ورفع عربة غارت دواليبها في الوحل ، وشل حركة ثور هائج يبغي التنكيل بالناس ...

ولما حفز الفضول رجال المدينة الى الاطلاع على حياتـــه الخاصة ، أجاب ملتمسيهم وصحبهم الى غرفته، فدهشوا لما رأوا من أثاثها الحقير، ولفت أنظارهم شمعدانان موضوعان في مكان بارز .

وفي مطلع سنة ١٨٢١ نعي اسقف « ديني » ، فذهب مادلين الى مكتبه في اليوم التالي وهو يتشح بملابس الحداد ، فلغط الناس فيما بينهم وقالوا : « الحمد لله، لقد تبددت شكوكنا في رجلنا، وها هو ينبئنا اليوم بأنه من اسرة الاسقف الكريمـــة .. فلما استوضحوه الامر خطـّل رأيهم قائلاً : « كلا انني لست من ذوي قرابته ، بل احد خدمه المخلصين ! »

واضمحل مع مرور الأيام حسد الحاسدين ، وأصبح مادلين مطمح الأبصار ومهوى الافئدة ، الا رجلاً من قادة الشرطة حل في تلك البلدة ورأى ما حفّ بشخص مادلين من التبجيل وما حاز من غنى وجاه،فطفق يتتبع خطاه ويحصي عليه حركاته وسكناته .

كان « جافير » هذا ذئباً في اهاب انسان وصخرة لا تلين . وقـــد شك في أمر مادلين وحقد عليه بلا سبب .

لقد ولدته امه في السجن ، وكان ابوه أيضاً سجيناً يرسف بالاغلال .. فلما شب عن الطوق ونظر الى ما يحيط به أيقن ان المجتمع يوصد ابوابـه في وجوه فئتين من الناس – تلك التي تهاجمه ، وتلك التي تنصب نفسها درعاً له ...

وآثر جافير ان ينتمي الى الفئة الأخيرة فانخرط في سلك البوليس واتصف بالاستقامة والاخلاص .

كان متقيداً بالقانون لا يدخر وسعاً في تطبيقه ولو كان ضد أبيه وأخيه .

وكان يخفي جبهته تحت قبعته ويغمر ذقنه بياقته . اما عيناه فقد كمنتا وراء حاجبيه ، واما يده فقد كانت تستقر دائماً أبداً في ثنايا معطفه ..

كان مستقيماً بيد ان مغالاته في البطش باسم القانون كرّهت بـه الناس . وكان يثق بالموظفين والقضاة ثقة عمياء لا تزعزعها وشاية او نميمة .

وقد صدف عن الناس واعتزل الخلان وتقشف وتزهد ولم يعرف للترف مذاقاً .

هذا هو جافير الذي نشب بينه وبين مادلين صراع خفي عنيف لم يفطن اليه أحد ولم يلمسه مادلين في أول الأمر إلا قليلاً ..

وبينا جافير يتقلب بين اليأس والرجاء ، ويكاد يقنط من قوته وذكائه ، إذ بمادلين يضع في يده أقوى سلاح ، وإذ بجافير يغتنم الفرصة ليشهر هذا السلاح في وجه المحسن الكبير .

فقد سقطت عربة صغيرة محملة بالبضائع على صاحبها « فوشلفين » ، حتى كادت تستل الحياة من جسمه .

وهرول مادلين فيمن هرول من الخلق واهاب بالقوم صائحاً : « من رفـع مؤخر العربة على ظهره نقدته مكافأة جزيلة ... » فشخص اليه الجميع واجمين محجمين ..

وهتف جافير في تلك اللمحة بصوت جهير : « ومن ترى يفعل هذا غـير سجين عرفته في سجن تولون ؟ »

فوجف قلب مادلين وفر اللون من وجهه . وصاح الرجل الصريع: « أواه، اني مائت لا محالة » .

وقال جافير : « أجل عرفت هذا الرجل الهائل وعاشرته » .

ونظر مادلين الى جافير ، ثم ارتسمت على شفتيه بسمة حزينة وجثا عـلى ركبتيه ، وقبل أن ينبس أحد ببنت شفة كان يدخل تحت العربة ..

ومضت الدقائق ومادلين يحاول جاهداً ، وتفصد العرق من جبهته ولكنه أفلح أخيراً ، وتزحزحت العربة ، ونجا فوشلفين الذي كان يكره مادلين ويحقد عليه .

فقطب جافير حاجبيه وعضّ على شفتيه وانتابته الأفكار . ولما اضطر مادلين إلى قبول منصب العمدة ، جعل جافير يقصد مكتبه كلما اقتضى عمله ذلك ، ويسلك معه سلوك الموظف المهذب الذي يحترم رئيسه .

●

وهكذا لما رجعت فانتين دهشت شديداً لما رأته من تقدم تلك القريــة وازدهارها ، وخيل اليها انها في أضغاث .

ولما استقر بها المقام ووجدت العمل الذي صبت اليه في مصانع مادلين، قرت عيناها واطمأنت إلى أنها ستكسب من المال ما يفي بحاجتها ويكفي طفلتها .

وكانت تعلل نفسها بالآمال وتفكر « بكوزيت » فيخفق فؤادها اشتياقاً . وكلما انقضى شهر كانت ترسل الى صاحب النزل النفقة المتفق عليها .

وأثار تكتمها القالة بين النساء ، فهن يعجبن لانزوائها ويرتبن بكثرة مـا تكتب من الرسائل .

ودار بخلد احداهن فكرة قيمة ، فأغرت صاحب البريد على أمر بما قدمته له من خمز . فأحضر لها الرجل رسالة من رسائلها ، فما تلتها المرأة حتى وضح السر . ولكي تزداد النساء يقيناً على يقين بعثن برسول من لدنهن تدعى « مدام مكترنيان » الى « مونتفرمي » فرأت الطفلة كوزيت مرأى العـــين وعادت أدراجها لتقص على صويحباتها ما رأت ..

وما هي الا أيام معدودة حتى ارسلت المراقبة في طلب فانتين ، فلما مثلت

بين يديها نقدتها خمسين فرنكاً وقالت : « لم يعد لك مقام بيننا فقد امر العمدة ان أفصلك » .

واتفق في ذلك اليوم ان المسكينة استلمت من « تينادي » انذاراً بوجوب مضاعفة النفقة . فذهلت فانتين واظلمت الدنيا في عينيها فكيف تيسر أمرها وقد ركبها الدين ؟ وكيف تدبر المال لابنتها وقد نبذها رب العمل ؟

وسولت لها نفسها مقابلة مادلين ولكنها أحجمت خوفاً واستحيـــاء . ولم يكن مادلين على علم بأمرها ، فقد اناط مسئولية قسم النساء بامرأة مستقيمة عفيفة النفس . إلا أنها لم تصل بنبل شيمتها حد العفو والرحمة ، فقررت ان تكفّ يد فانتين عن العمل .

سدت في وجه فانتين أبواب الرزق ، وسدت كذلك في وجهها سبل الفرار من القرية فقد هددها الدائنون بالعاقبة الوخيمة إن حاولت الافلات .

وكانت تقطن معها عجوز فقيرة الحـــال فلما حلت النكبة بفانتين عطفت عليها ورأمتها كابنتها وعلمتها كيف تصمد للمصائب وتعتصم بحبل الله .

وطفقت فانتين تكدح النهار بطوله لتصيب ما يقيها غائلة الجوع ، وكانت ترجع في المساء فتتهالك على الخوان وهي تسعل سعالاً متقطعاً يصيبها منــه ألم شديد . وكانت أحياناً تحدث جارتها قائلة : « عجباً ، انني أشعر بالخور والضعف وإخال يدي تلتهمها نيران متأججة » .

وتصرم صيف وجاء شتاء . وقل العمل الذي اصابته فانتين بمساعدة جارتها . وورد‌ها كتاب من « تيناردي » ينبئها فيه بأن الصغيرة أصبحت مهلهلة الثياب حافية القدمين ، وعليها ان شاءت أن تقي ابنتها غائلة البرد أن ترسل على الفور عشرة من الفرنكات . فما وجدت المسكينة في حوزتها إلا شعرهـــا الذهبي الطويل ، فباعته بأبخس ثمن واشترت بالنقود لباساً دافئاً أرسلته على الفور الى تيناردي . فلما استلمه الرجل توغر صدره غيظاً فرمى به الى احدى ابنتيه .

وظلت فانتين مع ذلك تتمتع بجمالها ، فقد عقصت شعرهـــا وراء رأسها وغطته بقبعة صغيرة . ولكنها بدأت تفقد ثقتها بالناس ، فكرهت مادلين لأنه سبب بلائها ، وكرهت النسوة اللاتي مهدن بفضولهن ومكرهن لهذا البلاء .

وتمادى الدهر في كيدها ، فوصلتها رقعة مقتضبة مـن « تيناردي » يقول فيها : « كوزيت مريضة وقد بذلنا في سبيلها كل جهد ومال ، فان لم تبعثي لنا بأربعين فرنكاً فمصيرها الموت » .

فتملكتها ثورة من النقمة والجزع ، وجعلت تضحك وتبكي ، ثم اندفعت تعدو على غير وعي في الأزقة . ولكنها عثرت على من ابتاع سنين من أسنانها البيضاء اللؤلؤية بأربعين فرنكاً أرسلتها الى تيناردي .

ونظرت اليها جارتها بعد عودتهـا وأطالت النظر . ثم هزت رأسها وهي تذرف دمعة حرى على هذه البائسة التي باعت شعرها ثم أسنانها ، ولا يعلم إلا الله ما ستضطر الى بيعه بعد قليل !

وجاءها الجواب، فقد كتب ذلك الشيطان مرة ثانية يطلب منها مئة فرنك وإلا أكره على طرد ابنتها .

ولم تجد فانتين ما تبيعه ، لم تجد ما تساوم عليه سوى جسدها ..

أواه ! باعت فانتين شعرها وسنيها، وها هي تتاجر بعرضها ، فتبيع نفسها وجسدها !

وتصبح امرأة تتناقلها الأيدي وتغدو امرأة من الشارع .

لك الله يا فانتين ، الجوع .. البرد .. الوحدة .. القسوة .. الحرمان .. الحزن .. لقمة العيش .. كل ذلك .. كل هذا البؤس جعلك ترضخين وجعلك تستسلمين ، وجعل المجتمع الجامد الإحساس المتحجر القلب يقبل منك هـذا التسليم !..

في كل دسكرة او مدينة صغيرة فئة من الشبان الموسرين المتعطلين المتعصبين لحياة البطالة ، المتفننين في الهندمة ، المسرفين في مد طرفي الشاربين او عقفهما ، المتحذلقين في الأماكن العامــة بمغامراتهم ومخاطراتهم وتبذيرهم وخصامهم وشقاقهم وقتالهم .

من هؤلاء من يستبيح الاعراض ، ومنهم من يطعن في القيم ، وكلهم لا يتورعون عن مشاكسة النساء .

ففي هذه البلدة التي ران الهوان فيها على فانتين طفق شاب من تلك الفئة المستهترة يشاكس المرأة البائسة ويتعرض لها بالاهانة .

واتفق في إحدى الليالي ان مرت به فانتين وهي حاسرة عن مفاتن جسدها ، فأقبل عليها وانقض انقضاض الباشق على ظهرها واضعاً بين الجسد واللباس الرقيق قبضة من بَرَد ، ما كادت المسكينة تحسّ بقرصه حتى ولولت ثم انثنت بخفة عجيبة فأنشبت أظفارها في وجهه .

وبرز من بين الجموع وجه صارم متجهم ، ألقى صاحبه يداً جافة غليظة على كتف المرأة ، ثم جرها وراءه وهو يقول مزمجراً : «هيا يا امرأة هلمي معي» .

وشدهت فانتين ، وجعلت تنتحب وتضرع الى الرجل ان يتركها .. إلا أن « جافير » أفهمها انها اخطأت في حق الشاب ولا بد لها من تحمل العقاب .

فمشت الوالهة وقد غامت عيناها وغاص قلبها بين ضلوعها .

ولما انتهى بها الى مركز الشرطة أمر بأن تساق الى الحفظ ثم انتحى جانباً من المكتب وجعل يسطر تقريره . ولما فرغ من الكتابة أرسل في طلبها وأفهمها ان عليها ان تمضي في السجن نصف عام .

ودلف مادلين في تلك اللحظة الى الحجرة وقال بسرعة واقتضاب : «دعك من هذا يا جافير واطلق سراح المرأة .. »

فذهل جافير وتطلع الى العمدة وهو لا يكاد يصدق سمعه . وانصتت فانتين، ولكنها ما كادت ترى العمدة واقفاً تلقاءها حتى جن جنونها .

فانقضت عليه وبصقت في وجهه وراحت تقول : « أف لك ! أما كفاك ما أنزلته بي حتى لحقت بي إلى هذا المكان لتقضي على فلذة كبدي التي من أجلها ركبت هذا المركب الخشن ؟

فما سمع مادلين هذا الكلام حتى انثنى الى جافير وأمره ثانية أن يطلق سراحها . فتردد جافير ، ولكنه طأطأ رأسه مسلماً ، وانسحب الحرس ، وتلفتت فانتين فلم تر أمامها سوى مادلين وقالت تحدث نفسها : « ويحي من حمقاء ! كيف استبحت اهانة هذا الملاك ؟ »

وقطع عليها حبل أفكارها صوته الحنون يحدثها بما لم تحلم به قط ، قال هذا الصوت الذي خنقته العبرات : « على رسلك يا فانتين ، لقد والله جهلت قصتك من أولها ، انت منذ اليوم ، مع طفلتك محسوبان عليّ ، فقرّي عيناً ، فابنتك عما قليل تأتي اليك .. »

وحملت فانتين الى المستشفى الذي انشأه مادلين بجوار منزله . ولما أفاقت في الظهيرة شعرت بوجود انسان يتنفس قريباً منها ففتحت عينيها فرأت مادلين واقفاً يحدق بشيء مثبت فوق رأسها ، فنظرت الى حيث حدد الرجل طرفه فرأت على الحائط صليباً فسألته قائلة : « ماذا تفعل يا سيدي ؟ »

فأمسك بيدها وتحسس نبضها وقال : « انني كنت أصلي لذلك الشهيد الذي في السماء » . واتم فيما بينه وبين نفسه : « ولهذه الشهيدة التي ترقد هنا ؟ »

ثم انه ارسل كتاباً الى « تيناردي » يطلب اليه أن يرسل كوزيت الى امها، وشفع كتابه بقدر كبير من المال .

أما جافير فما عاقه عائق عن تسويد كتاب عديد الصفحات الى رئيسه في باريس .

استقبل الشيطان « تيناردي » كتاب مادلين كما يستقبل الصادي جرعة ماء ، فايقن ان فانتين وقعت على كنز وان هذا الرجل عظيم الجـــاه . فكتب له كتاباً ضمنه قائمة ضخمة بالمصاريف . فما كان من مادلين الا ان حثه على التعجيل بارسال كوزيت وضمن كتابه مبلغاً آخر من المال .

ولكن تيناردي احتفظ بها متجاهلا إلحاح مادلين . وكانت فانتين تتقلب على فراش المرض وقد شحب وجهها ونتأت عظامها ، فلم تخف عـن الطبيب خافيتها واسرّ الى مادلين ما شعر به من اقتراب اجلها .

فبهت مادلين واصابه خوف عظيم ، وبكر في اليوم التالي الى مكتبه لينهي بعض الاعمال . وبينا هو منكب على اوراقه اذا بجافير يدلف الى الحجرة حاسر الرأس تدل نظراته الشاردة على ما يكابده من ألم نفساني شديد . ولمـــا تكلم قال: « وقعت جريمة يا سيدي ولا بد من الاقتصاص من مقترفها . واني اذ افضي اليك بهذا الخبر انبئك بأني المجرم السيء الحظ ، لقد اجرمت بحقك ، وارتبت بشخصك مع انك تعلو على كل مظنة » .

فقاطعه مادلين قائلا : « على رسلك ايها المفتش ، فانا لا اذكر انك اقدمت على خطب » .

قال : « كلا ايها السيد ، فقد اذنبت وزللت حينما وجهت كتاباً زعمت فيه باطلا انك مجرم قديم قضيت في السجن سنين وسنين » .

وتوقف جافير عن الكلام ريثما استماد انفاسه ثم استطرد : « انت يا سيدي في قوة ذلك المجرم ، فما شهدت عيناي قط رجلا يرفع عربة ، غيرك وغير جان فالجان » .

فارتبك مادلين الا انه تماسك وتجلد وانتظر بقية الحديث .

وتابع جافير يقول : « وعلمت من الجواب انهم قبضوا على هـــذا المجرم وهو يسرق تفاحة ناضجة من شجرة ، وقد تعرف عليه سجين كان يزامله

ويلازمه في السجن وناداه باسمه ، ولكن الخبيث انكر الاسم وزعم بكل قحة انه يدعى « شامباثيو » . وكذلك تعرف عليه آخران من زملائه في السجن .

«وقد توجهت على التو الى سجن الناحية ومليت الطرف في الرجل فادركت انه جان فالجان بالذات، وفوق ذلك فقضيته تنظر في الغد ، وسأبكر بالذهاب لتأدية الشهادة، واني لأطلب اليك بالحاح ان تؤدبني وتعاقبني بما استحق » .

فهز العمدة رأسه وقال : « لست في مقام لوم يـــا جافير ، فانت موظف أمين . فاذهب بسلام ».

قال : « انني بأمرك صادع ، بيد اني احب ان اعلمك بان رحمتك لن تؤثر في كثير او قليل على عاطفتي اذا ما حدت عن الصراط وارتكبت ما يضعك تحت طائلة القانون » .

في مساء ذلك اليوم توجه مادلين لزيارة فانتين . وكان قبل ذلك قد ارسل في طلب الاخت « سمبليس » وهي احدى الراهبتين المعنيتين بالمرضى . امـــا الراهبة الأخرى فتدعى الاخت « بربيتي » وهي من الضواحي ، وما انخرطت في سلك الرهبنة عن تنسك وتزهد ، انما فعلت ذلك كما لو انها احترفت مهنة تتعيش منها ... فما كان دخولها الى محراب الدين الا كدخول سواها من النساء الى المطبخ !

وعلى نقيضها في كل شيء كانت الاخت « سمبليس » . فهي الضوء المشرق ، والرقة الناضحة عن الطيبة .

هذي هي الملاك التي ارسل مادلين في طلبها عندما ألمت به المحنة . فلما انتهى من التحدث اليها ، قصد حجرة فانتين . فلما رأته العليلة بادرته بالسؤال عن كوزيت . فقال : « لن تلبث كوزيت ان تأتي اليك ، فالزمي الاناة ولا تدعي الشوق يغالبك فيغلبك على امرك .. »

ولما غادرها توجه الى منزل صاحب عربات فامره ان يرسل عجلة مـــع

حصانها الى بيته في الساعة الرابعة والنصف من صباح اليوم التالي .

لا شك ان القارىء علم ان مادلين هو « جان فالجان » نفسه ، وقد اتخذ له هذا الاسم مبالغة منه في التستر ، وفراراً من ذكريات الماضي .

●

وقد وقفنا على فحوى ضميره وسبرنا غور نفسه ، وآن لنا الآن ان نعيد الكرة فنسبر تلك الاغوار ونكنه تلك الاسرار ونحدس مـــا يجيش في هذا الصدر .

وليس لدينا الا القليل لاضافته الى ما طالعه القارىء من الحوادث التي تلت اعتداء جان فالجان على الغلام واغتصاب قطعة النقود منه . فمنذ تلك الحادثة انقلب صاحبنا الى رجل يختلف كل الاختلاف عـن السجين جان فالجان ، فقد انكر شخصيته الاولى ، واكتسى إهاباً آخر . وقد باع الصحاف وابقى على الشمعدانين ذكرى لذلك العابـــد الصالح .. وحرص على التطهر من ادران الماضي ، فتم له ما اراد ، وكان ما اصابه شيء أخطر من الانتقال من حال الى حال ... كان كما تنبأ العابد التقي — التجلي .

فأين جان فالجان المظلم الافق من مادلين الذي اكتسى برد الحجا وانطبعت على سيماء طلاوة الايمان ؟

وما اكثر ما كان يقع في التجربة ، وما اكثر ما انعسر على التردد ، واتى من الاعمال ما يزج به في المآزق ويعرضه لانكشاف امره ، وبالتالي لزوال ريحه والرجوع الى غيابات السجون ؟

وكان آخر واقسى انواع التجربة التي تعرض لها ما جابهه به جافير من قصة القبض على جان فالجان المزعوم .. فقـد رأى نفسه على مفرق طريقين وهو محتار في امره مضطرب في ذات نفسه ، لا يدري أي الطريقين يختار ..

وقضى ساعات ذلك النهار وهو يضطرب بين الشك واليقين ، كريشة في مهب الريح .

ودون ان يدري سبباً لذلك ألفى نفسه يوصد باب مخدعه ، ويشعر من بعد بالراحة والامان .. وتساءل عـن معنى هـذا الشعور بالأمان الذي طغى عليه عقب اغلاق الباب ورتجه ! فهل يا ترى تنبهت غريزته الاولى من سباتها ؟ هل استيقظت بعد طول رقادها ؟ !

ولكنه أخفق فيما سعى اليه ولم يبلغ وطره فيما رغب فيه ، فقد دخل من خاف دخوله ، وأبصر به من حرص على إسدال ستار الظلمات دون بصره — إنه ضميره ... ضميره ... أو الله ... الله ...

وقام لساعته ووقف بقامته القوية ، ورفع ذراعيه الى فوق رأسه ، الى السماء ، وقال : « لنشرب هذه الكأس .. لنؤد واجبنا .. لننقذ الرجل .. »

ونضد كتبه فوق بعضها البعض ، وألقى بوثائق الديون في الموقد ، ثم كتب كتاباًعنوانه «لافيت الصيرفي» في باريس، ووضع هذا الكتاب في جيب، ووضع مفكرته في الجيب الأخرى ، وجعل يذرع ارض الغرفة جيئة وذهوباً .

ولم يتبدل مجرى فكره ، ورأى بوضوح ما يجدر به عمله — رأى واجبـه مكتوباً تلقاء ناظريه ، بأحرف من نور .. رأى هذا الوهج يستوي امامة أني وجه عينيه .. وكانت هذه الاحرف النارية تهيب بـه ان اذهب .. اذهب .. اقرّ باسمك .. اعلن عن نفسك !!

ما كاد يصل به الفكر الى هذا الشأو حتى مرقت في مخيلته صور عديدة لا حصر لها — يداه المقيدتان .. مصنعه المهجور المقفر .. فانتين الميتة الفاقـدة الحياة .. كوزيت المشردة العارية الجسد المتضاغية من الطوى .

وفي مثل غمضة عين وفتحتها استخرج طمره الذي كان يلبسه وهو بعد جان فالجان ، وطوّح به في جوف النيران .

ثم حانت منه التفاتة فرأى انعكاس الوهج على الشمعدانين الفضيين ، فأمسك بأحدهما ونكت به النار ، ثم امسك بالآخر وحرك يديه ليردفهما بالثوب ، ولكن خيل اليه انه يسمع صوتاً منبعثاً من المجهول يهيب به قائلاً : « جان فالجان ! « ايها المسكين .. سيطريك الجميع ويفددون مآثرك .. ولكن ، سيرتفع صوت من وراء الغيب .. صوت لن يسمعه الآك ، صوت يلعنك في الظلام ! لن تصل هذه الاصوات المنثالة بالمديح والاطراء الى السماء ، لن يصل اليها الا اللعنة .. اللعنة .»

وصاح جان فالجان صوتاً هائلاً وقال وهو يعصر صدغيه براحتيه : « من هنا ؟ .. من المتكلم ؟ .. »

وانحط جان فالجان المعذب على كرسي عندما دقت الساعة ثلاث مرات ، واستغرق في النوم .

وتنبه من اغفاءته على طرق شديد اهتز له الباب ، فعلم ان صاحب العربة قد جاء بها . فاستدعي خادمته العجوز وطلب اليها ان تستمهل السائق قليلاً .

ونزل بعد دقائق فصرف الرجل واستقلّ العربة وصدره مسرح لتزاحم شتى الخواطر والنزع — شعور يجذبه وآخر يدفع به — ومع ذلك فقد وجه الخيل وجهة « أراس » وان لم يكن يعلم لمَ فعل ذلك وهو الذي لم يفكر قطّ بأراس !

وتعاقبت الساعات ، وارخى الليل سدوله وعاقته عوائق جمة في الطريق ، واستبدل العربة بجواد ، ولكنه دخل « أراس » اخيراً والساعة تشير الى الثامنة . فتوجه على التو الى نزل البلدة فأغلق دونه باب الحجرة التي خصه بها صاحب الدار ، وجلس على المقعد ، وارتفق عليه وحلق في سماء الفكر ..

والعجيب في امره ان افكاره في تلك الساعة الفاصلة كانت هادئة متسقة ، تجري في اخدود ممهد ، وتنم عن رجوع النفس الى جادتها وامتلاك الروح لروعها ..

وما لبث ان نهض من مكانه وغادر النزل متخذاً سمته الى دار العدل ، بعد ان استفسر من الخادم عن موقعها .

واخذ يتحكك بالجمهور المحتشد مستطلعاً الانباء ، مرهفاً السمع لما يقال. وخامره شعور مرهف غامض ، لم يدر أهو شعور الخوف والرهبة ام شعور الفرح والغبطة لمثول الفرصة التي يثبت فيها ان ضميره حي وان وازع الضمير اقوى مـــن جانب الاغراء !

ولما تشكلت المحكمة دخل القاعة فاذا بها تغص بمن فيها وطفق يتفرس في الوجوه ، واستدار نحو القضاة ، وما لبث ان حدد طرفه برجـل يتوسط حارسين .

وحدق في الرجل ، وتولاه شداه عظيم .. أهو يرى ذاته ؟ أحقيقة ما يراه ويبصره ؟ ان الرجل نسخة عنه ، بل هو نفسه لو لبس بزته !

واحسّ رئيس المحكمة بوجوده ، فأحنى له هامته محيياً ، والتفت المدعي العام نحوه وهز رأسه مبتسماً .

وتهالك مادلين على الكرسي الذي قدمه له الحاجب وأرهف السمع فتناهى اليه ان التهمة الموجهة الى شبيهه هي السطو على شجرة تفاح .. وقـــد وصفه النائب العام بانه مجرم مارس الاجرام زمناً ، وكال له الذم كيلاً ، ونعته بشتى الاوصاف ، وشرح للقضاة خبثه وختله وطول مرانـــه على حياة السجون .. وطالبهم اخيراً ان يأخذوه بالشدة !

وكانت امائر الدهش تعلو سحنة المتهم طيلة ذلك ، كان شاخصاً امامــــه يستمع لما يقال ، ثم يفتح فاه وكأنه ينوي الاعتراض .. ولا يلبث ان يضم شفتيه ويخلد الى الصمت .

ونهض محاميه فدحض الحجة بالحجة ، والبينة بالبينة ، وخاض في حديث

فتهي بعيد كل البعد عن الموضوع .. ثم عرج على حادث السرقة ، ففند الاقوال واثبت غياب الدليل !

وختم مرافعته بطلب البراءة له ، ورد الاعتبار الى شخصه .

وعاد النائب العام ، فانتصب كما ينتصب إله النقمة ، وجعل يرد بلباقـــة وحصافة على الدفوع التي ساقها المحامي . وخاض هو الآخر في خضم التشريـع ، فشرح واقعة الغلام الذي اغتصب جان فالجان نقوده ، ودلل على ذلك بما لديه من شهود ، اولهم المفتش جافير ..

جلس النائب العام ، وجلس المحامي واتجه رئيس المحكمة بنظره الى المتهم وامره ان يقف ، ثم طلب منه ان يتكلم .

فصدع المتهم بالأمر ووقف متثاقلاً وهو يتحسس وجهه ورأسه . وتلفت متململاً فيما حوله . وما عتم ان فتح فاه وقال : « التحقت في صدر شبابي بالعمل لدى السيد « بالوب » صاحب مصانع القصدير في باريس ، وامضيت ردحاً من الزمن وانا اكدّ سحابة النهار . فاذا ما جنّني الليل ، واستلقيت على الفراش لأستريح ، استعصى عليّ النوم لكثرة ما كبّدت من الالم والعذاب في نهاري ..

« وما زلت كذلك ، اقاوم الوهن المتغلغل ، حتى ناهزت الأربعين وتخطيتها الى الخمسين ، ففقدت حصافتي وذكائي ، وتبلـّد شعوري . كانت ابنتي تشاطرني همي ، فتعمل النهار بطوله وبعض ساعات الليـــل – فتغسل وتكوي – ومع ذلك كنا قانعين بما قسمه الله لنا .

« إلا ان الجهد الذي بذلتها فتاتي ، وقسوة زوجها وتعنته أفضت بها سريعاً الى القبر » .

وغصّ الرجل بريقه ، وسحّت من مقلتيه دمعة حرّى ، مسحها بطرف كمه وأردف :

« تلك هي حياتي من أولها – شقاء وعذاب ونصَب – اما ما تبع ذلك .. »

وضحك .. ضحك المسكين ضحكة عته وجنون .. وضحك الناس :

وصاح الرئيس زاجراً : « لسنا في موطن سرد لتاريخ حياتك ايها المتهم أجبني على سؤالي .. هل سرقت التفاح ؟ .. هل انت جان فالجان ؟ .. »

قال : « كلا .. كلا .. انني لم أسرق تفاحاً قط ، إنما وجدت الغصن ملقى على الأرض فالتقطته ، ويـــا ليتني لم التقطه . ألا تعساً لك أيها النائب العام ؟ أتنوي إلصاق الفرية بي على انها حقيقة ؟ انني لا اعرف لي اسماً .. كنت اسمى « الصغير » ، فلما هرمت صرت ادعى « الشيخ » !

فنهض النائب العام وصاح بصوت جهير : « ألم تسمع مقالة المفتش جافير ؟ لقد شهد بما يثبت إفكك ، وأكد انك جان فالجان بالذات ، فهو يعرفك كما يعرف نفسه ، ألم تقض في السجن تسعة عشر عاماً ؟ ألم يكن هو المسؤول هناك عن بعض المسجونين ؟ » .

ثم طلب النائب العام ان تستمع المحكمة لبقية الشهود ، فلبى الرئيس طلبه واستدعى ثلاثة رجال .

كان اولهم ويدعى « بريفي » ، وقد زاول الاجرام ومارس السرقة ، وزنى وفجر ، حتى قادته قدماه الى السجن ، حيث طوى في ظلماته سنين عديدة .. وشهد بريفي ان المتهم هو جان فالجان بالذات ، وان السجن تلقفه سنة ١٧٩٦ ولفظه سنة ١٨١٥ .

وشهد بالمثل الشاهدان الآخران المدعـوان « شنلديو » و « كوشباي » ، والاثنان عريقان في الاجرام .!

وانبعثت في تلك اللحظة حركة غير عادية ، ومزق الفضاء صوت أجش يقول : « ايها الشهود ، انظروا اليّ ! » .

فسكن اللغط وهدأت الضوضاء ، وشخصت الابصار .. وبدا مادلين للعيان أشبه بمارد من الجان !

وهتف الرئيس وقد تولاه الشداه : « السيد مادلين ! »

قال مادلين: «ايها الشهود.. ملّئوا ابصاركم في وجهي..ألا تعرفون شخصي؟ ألست جان فالجان ؟ »

فقطب الرئيس ثم انشأ يقول وصوته ينضح بالرقة والاشفاق: «اليّ بطبيب، فقد نزل بالرجل الطيب مكروه » !

وعقب النائب العام : « أجل .. أين الطبيب ؟ فالرجل الأمثل أصابتـــه داهية نكراء » !

فصاح مادلين : انا لست بمجنون يا حضرة الرئيس ، إنمـا أنا رجل أنشد الحق وادفع ما يوشك أن يحلّ بهذا البائس من حيف .. فأطلقوا سراحه على التوّ ، فالواقف امامكم هو والله جان فالجان ! »

ثم التفت إلى الشهود وتابع يقول : « اي بريفي ، ألم تعرفني ؟ .. وانت يا شنلديو ، ألم نسمك « كفر بالله » ؟ .. أرني كتفك ، ألم تحرقه في يوم جنّ فيه جنونك لكي تمحو عنه وصمة العار التي وسموك بها في السجن ؟ »

فالتفت الرجل الى القضاة وهزّ رأسه موافقاً .

واستتلى جان فالجان : « لقد قرعتني الحادثات، وقوضت حياتي النائبات.. كنت شاباً تملأ القوة اعطافي ، ولكن الجوائـــح محقتني ، والكوارث دهمتني فهدمتني ... وخلا الوفاض ، ونضب الرزق ، فتضورت من الجوع وتضاغى اطفال اختي من الطوى .. فلم اسرق الرغيف الا بعد ما شقيت وسلب رشدي ما لقيت » .

وتأوه المعذب وتحول الى الباب ليذهب ، ولكنه تردد هنيهة وعقب يقول: « ان رجال الامن يلمون بمقري ، ولست يا سادة عامـــداً الى الاختفاء أو

الفرار » .

وبرئت ساحة المتهم ، واخلي سبيله ، فخرج يتعثر من القاعــة المزدحمة ، وهو يعجب مما شاهد ووعى ، ويظن الناس جميعاً في سورة جنون ، لا يعلمون ما يصنعون .

٣

أحيت فانتين الليل ساهرة تتقلب على فراش الاوجاع ، كتمت ما بها معللة النفس بانفراج الغمة مستبشرة بما يجيء به النهار من صحة وما ستتحف به عيناها من مرأى وحيدتها كوزيت .

ووصل مادلين والضحى في اوله فانكفأ الى حجرة الراهبة الممرضة يستفسر منها عن فانتين .. فبهتت الراهبة ساعة وقع عليه نظرهـا وقامت من جلستها وهي لا تكتم ما داخل حسّها .. فقد ابيض رأسه وكأنه اشتعل .

وفهم مادلين ما خالج صدر العذراء ، ولكنه غادرها الى مخدع المريضة . وفتحت فانتين مقلتيها الذابلتين فشاهدت مادلين يتأمل وجهها الناحل ، فقالت بصوت يخفق بالأمل : « وافرحتاه بك يا سيدي ! أين كوزيت » ؟

فجمجم الرجـــل وغمغم ولم يتكلم . واعادت فانتين السؤال ، بيد أن الطبيب دخل في تلك اللحظة وابتدر المريضة قائلا : « ليفرغ روعك يا عزيزتي فابنتك اضحت هنا » .

فصاحت والفرحة تكاد تقتلها : « إلي بها إذن ، عجّل يا سيدي » ورفعت إليه راحتين مضمومتين مبتهلتين ..

فقال الطبيب : « إهدئي قليلا ، فان المفاجأة قد تؤذيك » .

فقالت بصوت متهدج : « لقــــد زال سقمي وتلاشى ألمي . اين كوزيت ؟ وكيف تجرؤ على الحؤول بيني وبينها » ؟

قال : « الم اقل ان الانفعال يعث في صدر المريض ؟ وها أنت تبدين مـــن الهياج ما يكاد يميتك فاصبري قلت لك » .

فأغضت طرفها وقالت متوسلة : « على رسلك يا سيدي الطبيب ، لقــد اخطأت فاغفر لي ، وثق ان رؤيتي لابنتي ترجع الي صحتي وقوتي » .

فأعرض عنها الطبيب وشغلها مادلين بحديثه ، ولكنها ابت ان تحول دفــة افكارها الى الاتجاه الذي اراده هو ، بل طفقت تطرح عليه عشرات الاسئلة عن كوزيت وثيابها وطعامها وكلامها وإحساسها .

وصاح طفل لعوب في فناء البناء ، فتكتمت المريضة انفاسها وقبضت على يد مادلين باصابع متشنجة وصاحت : « ها هي ابنتي ، اني اسمع صوتها .. لقد عرفتها .. عرفتها .. »

وتلاشى صوت الطفل . وصمتت صمت اليأس والقنوط . ولكنها بعد قليل جمجمت بصوت خفيض كأنها تغازل طيف الحبيب :

« سأبلّ من مرضي فنصبح مـــن اسعد خلق الله .. وسيكون لنا حديقة جميلة تمرحين فيها وتلعبين » ..

وهزّت رأسها وافتر ثغرها عن بسمة الامل والالم ، وجعلت تضحك ..

وتتبع مادلين حركاتها واصغى الى كلماتها ، وفكر في هذا الشقاء المتخبط في الأمل !.

وكفت فانتين فجأة وحملقت حملقة مجنون ، واستعانت بمرفقيها فقامت نصف قومة ، وفتحت شفتيها كأنها تروم الصراخ ولا تجد اليه سبيلا .

فتداركها مادلين قائلا : « اهدئي ، اهدئي » . وتحول بصره الى حيث

تنظر ، فاذا بـه يرى جافير ماثلاً على قيـد ذراع بوجهه الصارم ونظرته الجامدة !

اما ما حدث وادى الى حضور جافير ، فهو انه ساعة غادر مادلين قاعة المحكمة ، ركب عربة البريد الى « مونتري سورمير » فبلغها وذكاء ترنّق من المشرق ، فارسل كتاباً الى الصيرفي « لافيت » وقصد الى المستشفى .

ولكنه ما كاد ينطلق من المحكمة حتى فاء النائب العـام الى نفسه ، فهب واستصدر الأمر بالقبض عليه ، ولم يعتم ان بعث الى جافير ينبئه بمـا حدث ويطالبه بالقبض على جان فالجان . ولم يضيع المفتش الوقت سدى بـل قام لساعته وانطلق الى المستشفى وهو متوغر الصدر ثائر النفس ، يستعجل الوقت ، ويتلهف الى الدقيقة التي يقع فيها جان فالجان في يده .

وولج الغرفة التي تضطجع فيها فانتين ، وتريث عن كثب من الرجل الحاني على المريضة .

كان جافير كالجاهل المتعصب في دينه الذي تشمله النعرة فتصرفه عـن كل تعقل ويأتي من الأمور ما يطوّح بـه ويطوّح بسواه . كان كذلك الجاهل المتعصب ، وقد انطبع في تلك اللمحة جهله الخبيث على قسمات وجهه .

ورأت فانتين في ومضة ما كاد يصيبها على يد جافير فيما مضى من الضرّ ، فصاحت كمن يبغي الهرب ممـا ينتظره : « سيد مادلين .. انقذني منه .. انقذني ... »

فربّت مادلين على ذراعها المعروقة وقال : « إطمئني يا عزيزتي ، فهو لم يأت في طلبك » .

وانثنى الى جافير وتابع يقول : « اني رهن اشارتك » .

فزمجر المفتش يقول : « وعلام الانتظار اذن ؟ هلم .. أسرع » .

وتجلى عناد جافير في تلك الكلمات ، وحملقت فانتين فيه بعينين مذعورتين ، ونقلت طرفها بينه وبين مادلين وبين الراهبة ، وتراءى لها ان الوحش لا يريد سواها . ولكنها رأته بعد لحظات يمسك بمخنق وليّ أمرها ، فصاحت بصوت كالعويل : « سيدي .. »

وقهقه جافير ساخراً وقال : « لقد ولـّى عهده يا هـذه » وحاول أن يجره الى الخارج ، فلم يحركه قيد انملة من مكانه .

وقال مادلين : « سيدي المفتش جافير ، بودي لو خاطبتك على انفراد » .

قال : « لسنا في مقام مسارّة ، فاجهر بما يتنازع حسّك ! »

فهمس مادلين : « امهلني ثلاثة أيام أبحث خلالها عن ابنة هذه العاثرة » .

وسمعت المريضة ما قاله مادلين ، فصعقتها الحقيقة وصاحت لاهثة : « ويلاه ! اين ابنتي أيها السيد مادلين ؟ »

فانبرى جافير يقول : « تباً لك أيتها البغي التاعسة ! ان سيدك هذا مجرم يدعى جان فالجان ؟! »

فاسقط في يدها ، وقد وقع قول جافير في نفسها موقعاً سيئاً . ولم تلبث ان ارتخت يدها ، وسقط رأسها الى الوراء ، ولفظت أنفاسها .

فلما رآها مادلين على تلك الحالة ، تأججت نار غيظه ، فانتزع يد جافـــير وعصرها في قبضته حتى كاد يسحقها وقال : « لك الخسران أيها الآثم ! »

ثم انقض على السرير واقتلع منه قضيباً حديدياً ، واندفع نحو جافير والشرر يتطاير من عينيه واستتلى : « ابتعد عني وإلا .. »

فرعب جافير ونكـّص الى الوراء مجفلاً .

وانحنى جان فالجان على الميتة ، ورنا الى وجهها بنظرات تجلت فيها انسانيته بهية رائعة ، وطفق يناجيها بتمتمة خافتة .. ولا يعلم إلا الله ما قاله لها . إلا

ان الأخت سمبليس الصادقة فيما تروي ، شهدت بأنها رأت الوجـــه الساكن سكون الموت يختلج اختلاجة طفيفة ويضيء ببسمة سماوية .. وان الجبـــين الشاحب شع من ثنايا بريق خاطف !

ولم يجد مادلين بعد ذلك ألماً حين تقدم من جافير خاضعاً .

•

زج بمادلين في السجن ، فذاع أمره ، وسمع كل من في المدينة بخبره . ومـا لبث كل من احسن اليهم ان تخلوا عنه وحمدوا الله جميعاً على ما أماطه من لثام هذا المقنع بتقوى الله ، واثنوا على جافير مقدرته وكفاءته .

مات المصنع بمـــوت فانتين وسجن مادلين ولم يمكث في المنزل والمستشفى سوى الراهبتين والجثة .

كما لم تغادر منزل مادلين تلك الخادمة الهرمة التي لم تصدق ما لغط بـــه الناس . وما وافت الساعة التي يرجع فيها مادلين عادة الى منزله حتى أخذت المفتاح فعلقته في مكانه المعروف ، ووضعت الشمعدانين على الخوان كما تفعل كل ليلة .

ومضت مطوة من الليل ، وخيل اليها أنها تسمع ركزاً ، ففتحت البـاب ووقفت على عتبته فاغرة الفم .

فقد وقع طرفها الكليل على سيدها وولي أمرها . إلا أنها استجمعت قوتها وقالت : « يا إلهي ! حسبت انك .. »

فقاطعها مادلين متماً : « في السجن .. أجـــل كنت في السجن ، ولكني اقتحمت النافذة فعجلي الى الأخت سمبليس واستدعيها إلي» .

فلما صدعت الخادم بالأمر ، سارع الى الشمعدانين فلفهما بقطعة من القماش

ووضع معها ورقة خط فيها : « هذان هما الشمعدانان اللذان يشهدان على صحة أقوالي ، فاطلقوا المتهم البريء » والقى اللفافة في مكان ظاهر .

ودخلت الراهبة بعد قليل ، وعيناها محمرتان منتفختان من كثرة ما ذرفت من دموع ، فاحنى لها مادلين رأسه وناولها رقعة كتب فيها بضعة أسطر وقال: « ابعثي بهذه الورقة الى الكاهن ولك ان شئت ان تقرأي ما كتب فيها » .

وقرأت الراهبة :

« أسوق اليك أيها الكاهن الوقور رجائي بأن تشرف على ما خلفته ورائي من مال في هذه البلدة ، فتنفق منه على جنازة فانتين وتوزع الباقي على الفقراء والمعوزين » .

وتعالت الأصوات في تلك الفينة ، وتناهى الى الطريد والراهبة صوت الخادم تقسم بالله على ان مادلين لم يطأ عتبة الدار !

فاختبأ مادلين في ركن مظلم . وجثت الراهبة على ركبتيها وانشأت تصلي.

بعد ساعة شوهد رجل يغذّ السير في طريق باريس . وكان هذا الرجل المدلج في بهيم الليل يدعى جان فالجان !

وقيل لدى السؤال والاستفسار في اليوم التالي ، انه كان يرتدي قميصاً ويحمل على كتفه صرّة ! فمن اين جاء بالقميص ؟ من يعلم لعله كان قميص عامل تخرمه الاجل منذ يومين في المستشفى ، ولم يخلف بعد موته سواه !

أما فانتين ، فقد رجعت الى امها — الأرض —

واما القس ، فقد ضرب برجاء مادلين عرض الحائط ، فلم يتكفل بالانفاق

على جنازة فانتين، بل طوح بجثتها في رمس المجهولين المغمورين، حتى اختلطت عظامها بعد حين برفات سواها من الآدميين في تلك الحفرة التي لا يملكها أحد ويملكها الكل .

إن الجثة تضيع .. وتختلط بالرغام .. وتمتزج بالعظام .. ولكن الله يعرف أين يجد الروح ..

٤

خيم السكون على ساحة المعركة وأرخى الليل سدوله، ولم يعد الناظر يرى إلا أكداس الجثث التي تغطي السهل .

تلك هي معركة « واترلو » .. تلك هي خاتمة الرجل الذي أقام الدنيا وأقعدها .. تلك هي نهاية المطاف بالنسبة « لنابليون بونابرت » .

وكان للطالع اليد الطولى في مصير تلك الموقعة ، فقد ركّز نابليون نار مدفعيته الحامية تركيزاً فنياً مدهشاً على الانكليز حتى لم يبق مجال للشك في ان الدائرة ستدور عليهم ، إلا أن الدهر أراد أن يقلب ظهر المجن لهذا الفذّ ، فأجرى ما ذهب بالمسعى ، وأحل الهزيمة محل النصر .

وأصدر « ولنغتون » في تلك الليلة أمراً عسكرياً بإعدام كل من يضبط متلبساً بالسرقة ، ومع ذلك فقد أطل القمر الحزين على تلك المقبرة الفسيحة بضوئه الباهت ، ليهتك الستر عن اشباح تسعى بين الجثث ، وتسرق ما تعثر عليه ..

وانتصف الليل ، وطفق رجل نحيل يتنقل بخفة بين الاشلاء ويستحوذ على ما يجده من مال وخواتم وساعات .

واسترعى انتباهه شيء يلمع على ضوء القمر ، فنظر إليه محدقاً ، فاستطاع

أن يرى ذراعاً ممدودة وقد تلألأ في خنصرها فص خاتم فما ابطأ ان انتزعه ، ولكنه أصيب بذعر طاغ ساعة شعر بتلك اليد تمسك به .

وأرخت اليد قبضتها .. وتكلم اللص ساخراً : « هذا ميت حي .. فلنر مبلغ ما فيه من حياة ! »

وطفق يتحسس جيوبه فعثر على ساعة ذهبية ، ثم علـى محفظة جلدية ، فاستولى عليها .

وجمد في مكانه ساعة تململ الجريح وتمتم بصوت خافت متقطع : « من .. من حاز النصر ؟ من كسب المعركة ؟ »

فقال اللص : « انهم الانكليز ! »

فقال الضابط وكأنه لم يسمع كلامه : « لله درك ايها الصديق ! لقد أنقذت حياتي .. فمن أنت ؟ »

قال : « أنا مثلك ، جندي فرنسي ! »

« وما اسمك ؟ »

« تينياردي ! »

« لن أنس هذا الاسم إن قدرت لي الحياة .. وأنت فلتتذكر اسمي جيداً ، انه « بونتمرسي » .

★

« جان فالجان ، المحكوم الهارب يقبض عليه رجال الأمن.. المجرم الخطر يقع في قبضة البوليس ! »

صدرت الجرائد المحلية تزين صدرها بخبر القبض على من نعتوه بالقاتـــل

واللص والهارب من القانون .. فقالت احداها :

« كانت احدى مدن الشمال الصغيرة مسرحاً لنشاط رجل غريب هبط اليها في أحد الايام من حيث لا يدري إنسان ، وما لبث ان أثرى ثراء فاحشاً بعد قيامه ببعث الحياة في صناعة محلية أهمل أمرها منذ سنين .. وقد كان لخدماته التي أدّاها في هــذا الحقل تأثير بعيد المدى على ازدهار مرافق الحياة في تلك المدينة واتساعها ونموها ، وكوفىء على ذلك بتعيينه عمدة للمدينة . إلا أن الشرطة اكتشفوا حقيقة أمره ، وعلموا أن الرجــل محكوم هارب ، واسمه « جان فالجان » .. وعلم بعد القبض عليه انه تمكن مــن سحب نصف مليون فرنك من الصيرفي « لافيت » . وعبثاً حاول البوليس إماطــة اللثام عن مخبأ هذا الكنز ، فقد لزم الرجل الصمت ولم يفه بكلمة تنير السبيل ».

اما الحقيقة التي لا مراء فيها ، فهي انه بذهاب « مادلين » ولّى الرغد عن « مونتفرمي » وتبعثرت اشلاء الاعمال التي كان يتولى امرها ، وتبددت المشاريع التي اعتدلها من العدة اكملها ، وأصبحت جهوده الهائلة اثراً بعد عين ..

وقبل المضي في السرد يخلق بنا ان نروي الاسطورة التالية التي تداولتها الألسن في «مونتفرمي» عقب تلك الحوادث ـ كما تروج مثيلاتها من الشائعات والخزعبلات عــن كائن من الجان يغشى الغاب إذا جن الليل في ملابس عجيبة وقلنسوة اعجب ، يعلوها زغب وقرنان مدببان معقوفان ، فيحفر الأرض ويستمر في الحفر حتى يمر قطع من الليل !!

شاهد اهالي مدينة طولون في اواخــر شهر تشرين الأول سنة ۱۸۲۳ ، الباخرة « اوريون » تدخل المرفأ وتقترب من حوض التصليح . وكانت هذه السفينة القديمة من الاسطول العامل ، ولكنها حولت في ذلك الحين الى مدرسة لتلقين فن البحر وتخريج الضباط والملاحين .

وكانت تحمل على ضهرها مئة وعشرون مدفعاً .

واتفق في اليوم التالي ان شاهد الناس حادثة رهيبة ، اذ فقد نوتي توازنه فهوى من حالق ، الا انه تمسك في آخر لحظة بالحبل فتأرجح جسده بعنف شديد ، ولكنه لم يرخ قبضتيه ، بل تشبث بالحبل واخذ يصرخ ويستغيث . وهلعت القلوب لصراخه ، وشخص الالوف بابصارهم الى هذا البائس المعلق بين الحياة والموت ..

ولم يجرؤ انسان من الناس على المبادرة الى انقاذه ، واخذ الوهن يتسرب شيئاً فشيئاً الى اعضاء المسكين. وبرز بغتة رجل متلفع برداء المحكومين الاحمر ، وشوهد وهو يعتلي القلوع بمهارة الفهد . وكان ساعـــة وقوع الحادث يعمل مع زملائه على ظهر السفينة . فلما ألمّ بما جرى طلب من الضابط المسؤول ان يفك اغلاله حتى ينقذ النوتي . وما عتم ان انقض على الحبال يتسلقها .

وكتم الناس انفاسهم وشخصوا بعيونهم الى هذا الجبار العنيد الذي يجازف بنفسه غير آبه لخطر ولا مبال بموت ..

ووصل المحكوم الى الرجل المتلاشي ، فاحتضنه كما يحتضن الاب ابناً له ، وربطه بحبل حمله معه لهذه الغاية ثم نقله الى نقطة الامان !

ودوى التصفيق وتعالى الهتاف ، وبلغ الحماس مبلغاً جعل كل امرىء يشعر كأن الخطر قد رفع عن شخصه . وانثنى البطل يزمع الهبوط ، وانحدر بسرعة هائلة ، ولكنه اخطأ التقدير كما لاح للجموع فهوى الى البحر ، وابتلعه الغمر !.

وفي صباح اليوم التالي قرأ الناس في الصحف انباء الفاجعة على النحو التالي :

« ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٣ — غرق امس محكوم كهل بعـد ان انجد نوتياً من بحارة السفينة الحربيـــة « اوريون » . ولم يعثر حتى الآن على جثة المحكوم ، المعروف برقم ٩٤٣٠ ، ويدعى هذا السجين « جان فالجان » .

في سنة ١٨٢٣ كانت « مونتفرمي » قريـــة متوسطة مغمورة، شح ماؤها وترتب على الناس أن يجلبوه من عين تبعد مسافة طويلة عن المساكن .

وكان « تيناردي » صاحب النزل الوحيد في القرية ، يكتري في النهار كهلاً يجلب له الماء مقابل بعض المال ، غير ان هذا الحمال كان يكف عـــن العمل في الخامسة من كل يوم .

وهذا الامر كان يروّع « كوزيت » الصغيرة . ولا يغرب عن البال ان كوزيت كانت ذات فائدة مزدوجة « لتيناردي » وزوجه ، فهما يتقاضيان أجرة رعايتها وإيوائها، وفي نفس الوقت ينوطان بها كثيراً من الاعمال.. ولهذا لم يعمد تيناردي عندما انقطع مورد المال الى طردها ، بـــل اعتبرها خادمة عادية تعين على شؤون النزل وتجلب الماء كلما مسّت الحاجة اليه .

وجاء عيد الميلاد ، فلبست « مونتفرمي » حلة مشرقة من حلل العيد . وكان زمهرير الشتاء قـد تأخر عـن موعده في تلك السنة – ١٨٢٣ – فلم ير الباعة خيراً من عرض ألعابهم تحت العراء وعلى قاعـــة الطريق ، مما أضفى على القرية الهادئة كثيراً من الروعة والرواء ..

وحفّ ليلة العيد رهط من الرجال بمائدة مستديرة موضوعـــة في قاعة الاستقبال ، وأقبلوا على بنت الحان يعاقرونها وكانت زوجة تيناردي تشرف على الخدمة وتجهز الاطعمة .

وأقعت كوزيت في مكانها بقرب الموقد وهي مرتدية اسمالها . وقد ضاعف حذاؤها الخشبي من البرد الذي تغلغل في جسدهـا ، فأخذت ترتجف وجعلت اسنانها الصغيرة تصطك . ولكنها مع هذا لم تنقطع عن حوك اللباس الذي في يدها خيفة ان ينالها الاذى الشديد من مدام تيناردي . امـــا ابنتا تيناردي «ايبونين وأزيلما» فقد كانتا تلهوان وتلعبان وتضحكان، وبين الوقت والآخر كان يرتفع صراخ طفل من غرفة أخرى مشقوقة الباب . وكان هـــذا الطفل ابن تيناردي الثالث ..

وكانت هـــذه المرأة كبيرة الجرم عريضة الكتفين مكتنزته ، وحشية النظرات. وكانت تقوم بجميع الاعمال لا يساعدها في ذلك الا كوزيت الصغيرة. وقد نبت الشعر في خديها وذقنها كالرجال.. وكالرجال كانت لاتفتأ تشتم وتجرع الخمر ، وتتكلم بجرأة وقحة. أما تيناردي الزوج فقد ممروق المظم ، الا ان صحته كانت جيدة ، فهو لا يشكو الوصب ، ولا يكف عن الشرب ، ويسرق كلما تسنى له ذلك. وقد رأيناه عشية المعركة يلمّ دون وجل بالقتلى ، يقتنص ما في جيوبهم غير حافل بحرمة الموت .

كان في نعومة الثعلب بالرغم من شراسته وجشعه ، فهو لا يتورع عن التوسل باللين لبلوغ ما تصبو اليه نفسه .

والعجيب في امره انه بالرغم من تعلقه بالمال ، فرّ منه الدرهم . وتراكمت عليه القروض وبلغت في مجموعها زهاء الف وخمسمئة فرنك .

بين مخالب هذين الفاسقين سقطت كوزيت ، فساماها الخسف .. وكان لكل منهما طريقة في تعذيبها ، فالمرأة تضربها ضرباً موجعاً ، والرجل يحملها ما لا طاقة لها عليه من ألوان العمل ، ويجعلها تمضي الشتاء القارس عارية حافية ..

ودلف الى الحانة اربعة آخرون . وكانت كوزيت اثناء دخولهم تشخص امامها ساهمة شاردة ، وتفكر كأنهـــا كبيرة السنّ . تفكر بتعسها بشقائها وابتعادها عن عاطفة المحبة .. وتفكر بالأم التي لا تكاد تعرفها ، وبالأب الذي لا تعرفه .. وتفكر بالدمى الجميلة .

كانت تفكر بكل هذا حينما طرق صوت سيدتها يأمرها بالمبادرة الى العين لجلب الماء ، فتحاملت الصغيرة على نفسها واخذت دلو الماء وهرولت خارجة بعد ان اعطتها المرأة الشريرة قطعة مـــن النقود لتشتري بها رغيفاً في طريق العودة من العين .

وبهرتها الاضواء التي شعت من محالّ اللعب ، فتريثت وجعلت تنقل عينيها

بين مختلف الدمى . ثم استرعى نظرهـــا عروسة كبيرة فنسيت في لمحة ما كان يثقل صدرها من مخاوف وأحزان ، ورنت الى الدمية وقالت تحدث نفسها : « لا شك انها سعيدة هانئة ! »

واطالت النظر فيها، ونسيت في غمرة اعجابها المـــاء والرغيف ، الا انها سرعان ما تذكرت كل شيء ساعة هزّها هزاً صوت مدام تيناردي المدوي يصبح مهددا متوعداً . . فاختطفت الدلو وهرولت تعدو وتتعثر ،

واستمرت كوزيت تجري ، ولكنها ما كادت تبتعد عن الدور قليلا وتغيبها الظلمات في احشائها ، حتى وقفت في مكان من الطريق والذعر آخذ منها كل مأخذ . وسرت القشعريرة في بدنها، وخيل اليها الوهم ان الاشجار أشباح سود تتحرك وتبغي التهامها . فضمت يديها الى صدرهـــا وانكمشت على نفسها ، وحدثتها نفسها بالرجوع ، ولكن وجـــه تيناردي الكالح لاح لها فجأة، فصرخت كحيوان جريح واندفعت الى الامام .

ونفحتها الرياح الباردة فارتجفت ، وبدا لها ان الظلام المحيط بها سيبتلعها الى الابد ، وانها ستتعذب ، وتتعذب ، ولا ترى النور قط . ووصلت اخيراً الى الماء فملأت الدلو ولما قفلت به راجعة ناء جسدها الصغير بهذا الحمل الثقيل ، فاهتز الدلو في يدها ، وجعل يقذف بالماء البارد الى ساقيها العاريتين .

وطغى عليها اليأس اخيراً ، وأنشب فيها الألم مخالبه ، فصاحت « أواه !.. يا إلهي .. يا إلهي .. »

في تلك الفينة أحست بغتة بالدلو يخف في يدها. ورفعت كوزيت رأسها ، فرأت بجانبها رجلا كبيراً . فلم تجفل ، لم يتبادر الى قلبها الخوف . كان هذا الرجل غريباً عن القرية لم تقع عليه عين كوزيت من قبل ، وقد وصل في ذلك اليوم. وقبل ان يغشى القسم المسكون منها، احس وهو لا يزال قريباً من العين، بشخص يتحرك وسط الغابة ، فحبس انفاسه من قبيل الحذر وحدق في الظلام ،

فأبصر بالطفلة تسعى بحملها جاهـــدة تئن وتتأوه ، فطارت نفسه شعاعاً ، وهرع اليها !

وتكلم الرجل الهابط من السماء بصوت يفيض حناناً فقال : « اي بنيتي ! إن دلوك لثقيل ، فكيف تستطيعين حمله ؟ »

فأجابت كوزيت وهي تجيل في وجهه طرفاً ناطقاً بالشكر والعرفان : « اجل يا سيدي ، إنه كذلك » .

وساد الصمت بين الرفيقين، ولكنه صمت كان ابلغ من كل بيان بين النفسين.

وقطع الرجل حبل الصمت اخيراً فقال : « ماذا لك من العمر ايتها الصغيرة ؟ » .

قالت : « ثماني سنوات » .

« والى اين تقصدين في مثل هذا الليل البهيم ؟ » .

« الى مكان يقع على مسافة ميل » .

« واين امك ؟ » .

« لا ام لي .. كل فتاة لها ام ، إلا انا » .

« وما اسمك ؟ » .

« كوزيت ! » .

فخفق قلب الرجل ، واصابه انفعال شديد . وما لبث ان قال : « ايتهـا الصغيرة .. ايتها الصغيرة .. اين تعيشين ؟ » .

قالت : « في مونتفرمي ، في نزل السيد تيناردي وزوجته ! » .

فأجاب بصوت حزين : « اني ذاهب معك الى هذا النزل » .

واستمرا يتقدمان، حتى اذا اقتربا من النزل قالت كوزيت فجأة: «سيدي: اعطني الدلو قبل ان تراني مدام تيناردي فتسوء العاقبة ! » .

واعطاها الرجل الدلو ، ودخلت كوزيت من الباب وهو في أثرها . وارتفع صوت المرأة يشتم ويقول : « سحقاً لك ايتها الشقية ! اين كنت ؟

فأجابت الطفلة وهي تشرق بدمعها : « سيدتي .. ان غريباً من الرجال قد جاء الى النزل .. وها هو ذا ، انظري .. »

فتحولت المرأة الى الغريب تتفحصه ولم تعتم ان قالت : « هل انت هو الضيف ؟ فعلى الرحب والسعة ! » .

ولكنها ما كادت تتأمله حتى عجلت متلافية : « انني آسفة .. فجميع الغرف مشغولة ! » .

قال : « افسحي لي في اي مكان ، في المطبخ او الإسطبل . وسأدفع من المال ما تطلبين » .

قالت : « على ان تنقدني المال قبل ان تنام » .

قال : « لك ذلك » .

وجلس الضيف الى مائدة صغيرة وجعل يرقب كوزيت ويتتبع حركتها . فهالته نحافتها وضآلة جسدها .

وعلى حين غرة هتفت مدام تيناردي تقول : « تباً لك ايتها الفأرة ! نسيت الخبز على ما اظن ؟ ! » .

فتقلصت عضلات الصغيرة وجمجمت : « أواه ! لم اجد البائع ! » .

فحدجتها المرأة بنظرة ساحقة يتطاير الشرر منها واردفت : « واين النقود يا كاذبة ؟ » .

وبحثت كوزيت في ثنايا ثوبها الممزق ، وجمدت يدها ، واختلط عليها الأمر وقد ايقنت انها اضاعت النقود .

ومدت المرأة يدها الى السوط فأمسكته ولوحت به في الفضاء .

وولولت كوزيت مستغيثة: «سيدتي! ارحميني..» واستخرطت في بكاء مرّ .

وقبل ان تنزل المرأة يدها بالسوط، تناول الغريب قطعة من النقود ورماها دون ان يشعر به احد على الارض واسرع يقول : « على رسلك ايتها المرأة .. هذه هي قطعة النقود ، وقد سقطت من الفتاة » .

فاختطفتها المرأة والقت السقوط من يدها وجاءت في تلك الاثناء ابنتا تيناردي ، وقد حملت كل منهما دميتها . وطفقتا تلعبان وتضحكان ، وكوزيت ترنو اليها وتتمنى لو شاركتها في لهوهما.. ولحظ الغريب تلهف الطفلة، وسمع مدام تيناردي تنهرها بغلظة ، فأخرج من جيبه قطعة من ذوات الخمسة فرنكات وقال للمرأة وهو يحدجها مقطباً : « ما قولك في هذا القدر من المال، اعطيكه على أن تغضي الطرف عما تفعله البنية ؟ » .

فنظرت اليه طويلا ، ثم تناولت النقود من يده وقالت . « لك ما تشاء ، فلتلعب كوزيت ! » .

وتبادل الزوجان النظرات ، وتوقف الرجال عن الشرب والكلام ، وقد شدههم تصرف هذا الغريب وسخاؤه ! » .

وانشأت الطفلة تلعب ، وسولت لها نفسها أمراً ، فمدت يدها الى دمية احدى بنات تيناردي . فما كادت هذه تراها تلمس دميتها بيدها حتى جنّ جنونها ، فصاحت محتجة حانقة .. وزجرت امها مهددة .. وتراجعت يد كوزيت في خوف وتحسر !

نفد صبر الغريب ، فانتصب واقفاً ، ودنا من المرأة فرماها بنظرة ساحقة

ارتمدت لها فرائصها ، ثم انثنى خارجاً ، ومـا هو الا قليل حتى عاد يحمل الدمية التي اعجبت بها كوزيت وقد اشتراها بأربعين فرنكاً وتقدم الى الطفلة البائسة وقال: «اليك دميتك يا عزيزتي ولتطب نفسك.. انها لك، ملكك..».

ورفعت الطفلة عينيها الغارقتين بالدموع ، فرأت الدمية وكأنها رأت فيها الشمس .. واصاخت لتلك الكلمات العجيبة – انها لك ، ملكك ..

وقالت مدام تيناردي بصوت ملائكي عذب ينضح بالرقة ، وكأنه السم بالدسم : « خذيها يا حبيبتي ، خذيها يا كوزيت ! » .

فانقضت الطفلة على الدمية واختطفتها وهي تقول : « سأدعوها كاترين .. فهذا الاسم يليق بها ! » .

وذهب الجميع الى مضاجعهم ، ولم يبق في المكان سوى الغريب . ومرت الساعات وهو ملازم مكانه وصاحبـا النزل ينتظران ويرقبان ويكاد النعاس يستولي عليهما ! ودنا تيناردي منه أخيراً وقال :

« أو ليس للنعاس سلطان عليك ايها السيد ؟ لقـد هيأت لك غرفة تليق بك ، انها الغرفة التي نمت فيها انا ليلة إعراسي ! » .

وكانت الغرفة التي اشار اليها تيناردي مرتبة نظيفة انيقة الاثاث .. وقد ايقن الضيف ان هذه الكلمات قيلت لعشرات من الرجال قبله – لكل من بذل وسخا !

ولما غادره تيناردي ، اقتعد الكرسي الكبير القريب من المرقد واستغرق في الفكر ، ثم زايل مكانه وترك الغرفة بهدوء ونزل الى الركن الذي تنام فيـه كوزيت . ووقف فوق رأسها وهو يرنو إليها حادباً مشفقاً ، وما عتم ان امسك بحذائها الخشبي فدسّ في داخله قطعة نقود ذهبية ثم لثم جبهتها ومسح بيده على شعرها وعاد ادراجه .

في ضحى اليوم التالي ، جلس تيناردي إلى مائدته واقبل على الورق يكتب

للرجل الغريب حسابه، ويحاول جاهداً ان يستنبط ما يسوغ له الصعود بالارقام الى اقصى حدّ ، واخيراً اتفق مع امرأتـــه على ان يطلب منه ثلاثة وعشرين فرنكاً ..

وبعد لحظات جاء المسافر وهو يحمل امتعته وعصاه ، فأقبلت مدام تيناردي عليه تحييه وتقول : « لعلك ظاعن عنا ايها السيد ؟ » .

فاجاب وهو شارد اللب: « نعم، اني ذاهب، فكم يتوجب علي ان ادفع ؟».

فقدمت له الورقة وهي صامتة واجفة .

وحدق الغريب في الورقة وقال : « ايتهـا السيدة ، أصدقيني الخبر .. هل لاعمالكما في هذا النزل فائدة تذكر ؟ هل تجنون الارباح الطائلة ؟ » .

فقالت وهي تتأوه ؟ « اننا نقاسي كثيراً في سبيل الحصول على الرزق ، فالمكان حقير والقرية نائية ونفقاتنا باهظة ، والصغيرة ضغث على إبّالة ! » .

« ومن هي هذه الصغيرة ؟ » .

« كوزيت ، الفتاة التي قدمت لها الدمية .. انها تكلفنا فوق طاقتنا » .

« فلو عرض عليك احدهم التخلي عنها ، فماذا تفعلين ؟ » .

فتضرج وجه المرأة وصاحت : « ايها الضيف الطيب ، خذها ان شئت ، ارفع عن كاهلنا هذا العبء ، ارجوك ! » .

« حباً وكرامة سآخذها » .

ودخل تيناردي في تلك الدقيقة ، وكان قد سمع طرفاً من الحديث ، فقال بصوت اجش : « اخرجي ايتها المتعبة ، فلدي ما اقوله للسيد الضيف » .

فتسللت المرأة خارجة دون ان تعرض ، واستتلى تيناردي يقول : « ثق يا سيدي ان كوزيت هي بمثابة الابنة لي .. واصارحك اني لا اطلب اكثر من

الف وخمسمئة فرنك ، فان دفعت هذا المبلغ تصبح الطفلة لك ! » .

فتردد الغريب هنيهة ثم اخرج من جيبه قبضة مـــن اوراق النقد وقال : « اليك المال فاستدع الفتاة ، اسرع ! » .

ولم يكذب الرجل خبراً بل صرخ ينادي زوجته ثم امرها ان تستقدم الطفلة . وكانت كوزيت ساعة دخلت عليها مدام تيناردي تقف مشدوهة ، تنظر الى دميتها غير مصدقة ، وتنظر الى القطعة الذهبية غير مصدقة ، وتخال نفسها نائمة تحلم احلامها الذهبية .

فلما رأت صاحبة النزل مقبلة عليها ارتاعت وحاولت اخفاء ما في يدها . غير ان المرأة لم تفجأها بالصفع والضرب كما الى ذهنا ، بل قالت ووجهها يطفح بشراً : « هلمي يا كوزيت ، اسرعي ، فالرجل الطيب ينتظرك » .

ولم تفهم الفتاة ما تعنيه سيدتها ، الا انها بادرت الى الحجرة التي اجتمع فيها الغريب بتيناردي ، فلما رآها الاول مقبلة عليه استخرج من بين امتعته لباساً لطفل في السابعة ، وحذاء وقبعة وقدمها جميعاً لكوزيت وهو يقول: « إلبسيها يا بنيتي فنحن ذاهبان » .

وفي اقل من ساعة شوهد شيخ وطفلة يمشيان سوياً ويبتعد ظلها عن القرية رويداً رويداً دون ان يثير امرهما ريبة احد من الناس .

.

لم يمت « جان فالجان » .

لم يبتلعه اليمّ عندما سقط فيه بعد قيامه بانقاذ الملّاح . وما سقط اتفاقاً بل تعمد السقوط لكي ينجو من الأغلال والقيود . وتسنى له الاختفاء حتى أيقن الجميع أنه قضى نحبه غرقاً .

وبعد ان أمن العيون ، ابتاع ما يحتاج إليه مـــن ملابس ، وهام على وجهه متجنباً المدن الكبيرة ومتوارياً قدر طاقته عن عيون الرقباء من رجال الامن . ووصل باريس فابتاع ثياباً لفتاة صغيرة ، ثم اكترى غرفـــة في بيت يقع في

الأرباض وقصد عقب ذلك إلى قرية « مونتفرمي » كما اسلفنا ..

ولما قفل راجعاً الى باريس كانت كوزيت برفقته وقد دخل المدينة العظيمة والنهار يدبر والليل يقبل .

وكانت كوزيت قد انهكها التعب من كثرة ما مشت في ذلك اليوم . فحملها جان فالجان بين ذراعيه وضمها الى صدره . فلما أحست بالراحة بعد العناء اغتبطت نفسها ولم تعتم أن ألقت رأسها على كتفه ونامت .

★

كان الجائل في طرقات باريس منذ اربعين سنة ، اذا توغل في الاحياء الآهلة وتركها ضارباً في الأرباض ، يصل بعد قليل الى بناء عتيق أكل الزمان منـــه اطرافه وهدم بعض ما قام من جدرانه . وقد نأى هذا المنزل عن كل بناء آخر .

كان هذا البناء مؤلفاً من طابق واحد ، وقد بليت ابوابه ، وتأكلت مغاليق نوافذه . وتوسط غرفه الصغيرة الرطبة قاعة مستطيلة معتمة يفضي اليها درج حجري . وكان هذا البناء يعرف بمنزل « الشيخ غوربو » .

وقف جان فالجان امام هذا المنزل الذي اختاره مكاناً لسكناه كما يختار الطير عشه على فنن متوار لا تصل اليه العين.

وفتح بمفتاح يحتفظ به الباب الخارجي، ودخل وهو لا يزال يحمل كوزيت. ورقي الدرج ، ثم عطف الى اليمين وفتح باباً آخر .

وكانت الحجرة التي دلف إليها متسعة لا تحتوي إلا فراشاً للنوم ومائـــدة وبضعة مقاعد . وفيها ايضاً موقد من الحديد . وظهر له في الركن القصي باب يفضي الى حجرة اصغر وضع في جانب منها سرير كالأرجوحة . فدنا منه جان فالجان واضجع الطفلة في هذا السرير ، ورجع الى الغرفة الأولى فأشعل شمعة ، ثم عاد الى كوزيت وطفق يتأمل في وجهها ومـــا لبث ان انحنى فقبل يدها

الصغيرة ، كما لثم منذ تسعة اشهر يد امها التي استغرقت وقتئذ في نومتها الأبدية !

وتململت كوزيت بغتة ، واختلجت اهدابهـا . وصاحت بصوت ينمّ عن الرعب والاسترحام : « اجل يا سيدتي ! اني هنا .. هنا .. » .

ورمت بنفسها الى الأرض ، واستتلت وعيناها تنفتحان وتنطقان بالخوف : « ويلي ! ما العمل ؟ اين مكنستي ؟! » .

وتنبهت حواسها وحملقت بعينيها وأردفت: « آه ! لقد تذكرت .. أسعدت صباحاً يا سيدي » .

ولحظت دميتها كاترين ملقاة بجانبهـا على الأرض فاختطفتها وتحسستها بيدها ، واحتضنتها وهي تلقي خلال ذلك عشرات الاسئلة على جان فالجان .

لم يعرف جان فالجان للحب مذاقاً فيما سلف فقد قضى خمساً وعشرين سنة من حياته وحيداً شريداً لا يؤنس وحدته انسان. اما الآن فقد ترطب قلبه بالحب الابوي ، فانتعش ساعة رأى كوزيت وشعر بالسعادة والنشاط .

وتصرمت الايام وجان فالجان يعيش في حلم ، وكوزيت تحيا وكأنها ولدت من جديد ... فأحبت بعد ما حرمت الحب – احبت هـذا الشيخ ، هذا الصديق .. ونمت ، او بالاحرى شعرت بأنها تترعرع بسرعة هائلة ، في جسمها وشعورها وتفكيرها !

وكانت امرأة عجوز تشرف على البيت ، وتقوم بخدمـة جان فالجان وكوزيت . وكانت فضولية ، لم يفتها شذوذ الرجل ولا سعادة الطفلة . ولم يغب عن عينها ما كان يتظاهر به الرجل اثناء خروجه ، من الفقر ، وما كان يتحف به كوزيت في نفس الأوان من الهدايا والملابس .

كان جان فالجان اذا خرج ، يلبس اطماره فيبـدو كسائر المتسولين . وما اكثر ما اغدق عليه الخيرون من مالهم ، فكان يغتنم الفرصة ليسقط الدرهم الذي تلقفه ، في يد شحاذ آخر !

وتسنى للمرأة بعد ايام ان تراه دون ان يشعر وهو يفتق سترته ويخرج منها ورقة مالية من ذوات الالف فرنك .

وكان يربض في تلك النواحي متسول ينيف على السبعين ، درج جان فالجان على مديد المساعدة اليه كلما مر به . وكان يتبادل معه بضع كلمات ثم يغادره . ومر به في احدى الامسيات وهو جالس تحت مصباح الطريق ، فعرج عليه ووضع في يده قطعة من النقود كعادته . فرفع المتسول عينيه فجأة وحدق في وجه جان فالجان بقوة ثم اطرق برأسه .. جرى هذا بسرعة البرق . ولكن جان فالجان ارتعش ارتعاشة شديدة ، وخيل اليه انه لم ير على ضوء المصباح وجه المستجدي البائس ، بل وجهاً مخيفاً يعرف تقاطيعه حق المعرفة .

ولم يعرف النوم سبيلاً الى عينيه في تلك الليلة . ولزم حجرته طيلة اليوم التالي . ولما أغبس الليل اخذ من درجه القطع الفضية ووضعها في لفافة حتى لا يحدث احتكاكها في جيبه صوتاً يثير الشبهات . وبينا هـو يفعل ذلك افلتت احدى هذه القطع ووقعت على الارض ، فأحدث سقوطها رنيناً سمعته القائمة على المنزل فتكهنت بما هو جار ، وقامت لساعتها فغادرت غرفتها ...

ثم انه اومأ الى كوزيت ان تدنو منه ، وما ابطأ ان امسك بيدها وانطلق معها لا يلوي ...

*

مشى جان فالجان وجميع حواسه مرهفة ، ينصت بأذنيه ويحدق بعينيه . وطفق يسلك الدروب فيعرج ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يرجع من حيث اتى ، ويحرص دوماً على الالتصاق بالحائط حتى لا تأخذه العين .

وحفزته غريزته الى التلفت وراءه فلما فعل لمح اشباحاً ثلاثة تسترق الخطو على مبعدة منـه ، فعطف الى اليمين واستذرى قوساً حجرياً كبيراً ، وانتظر

وقلبه يخفق بشدة وعنف . ومـــا هي الا دقيقة حتى مر على مقربة منه اربعة رجال يمشون صامتين ساكنين فأيقن من سمتهم وشكلهم انهم ينتمون الى الشحنة السرية ، وانهم يتتبعون آثاره .

ووصل بعد نصف ساعة الى مفرق آخر تتشعب منه طريقان ورأى على مبعدة منه جداراً مرتفعاً رجح لديه انه سور لبناء ضخم قديم. فمشى بخطوات واسعة واستند الى الحجارة الضخمة واستدار مواجهاً مطارديه ، وهو يرجو ان يراهم متخذين سبيلاً آخر ، بيد انه ذعر ذعراً عظيماً ساعة ألفاهم متجهين نحوه. وتناهى اليه في تلك اللحظة صوت خافت يقترب من مكانه ، فالتفت الى مصدر الصوت ، فرأى ثمانية اشخاص يسعون من ناحية اخرى الى مكان الذي لاذ به. وكان جان فالجان قد حذق في السجن فن تسلق الاسوار من ركنها دون الاعتماد على السلالم او الحبال . ولكن ماذا يفعل بكوزيت وكيف يستطيع رفعها معه؟

وأجال طرفه اليائس فيما يحيط به ودار في خلده في مثل لمح البصر فكرة الاستعانة بحبل المصباح الذي شاءت الصدف في تلك الليلة ان يترك دون اضاءة. فترك كوزيت في مكانها وخف الى المصباح ، فحزّ الحبل بمقرض كان يحتفظ به وهرول راجعاً ، فحل ربطة ياقته ولفها حول كتفي الطفلة ثم عقد رأس الحبل بها واوصاها بالتزام السكون .

وما هي الا دقيقة حتى سمعت جان فالجـان يطلب إليها ان تدير ظهرها للحائط . فامتثلت لما اشار وشعرت عقب ذلك بانها ترتفع عـــن الارض . ثم وجدت نفسها فوق جدار عريض .

وتعالت الاصوات ، فعلم جان فالجان ان جافير ورجاله قد دهموا الحائط، فربت على وجنة كوزيت مشجعاً وجمد في مكانه لا يتحرك . ولما خف اللغط ، واطمأن جان فالجان الى زوال الخطر ، ضم اليه كوزيت وهبط بها الى الناحية الثانية من الأرض . ولم يكن الارتفاع شديداً .

ووجدجان فالجان نفسه يتوسط حديقة فسيحة تختلف بمنظرها ومظهرها عن سواها من الحدائق .

وتأمل في البناء المتهدم الذي واجهه فاستطاع ان يتبين فيـــه بعض الغرف الصالحة للسكن . ثم تحول ببصره الى بناء كبير اخر ، فلم يلحظ فيه ما ينم عن وجود الحياة. ولكنه اهتدى الى سقيفة خشبية فتقدم منها بحذر وولجها وهو يحمل كوزيت بين يديــه . وارتفعت في تلك الفينة اصوات الرجال الذين طاردوه ، وسمع صوت جافير وهو يصدر الاوامر

ومضت ساعة والهاربان قابعان في مكانها . ولما هدأت الضجة ولاح له ان جافير انسحب مع رجاله ، ربت على خد الفتاة مشجعاً . ولكنه سرعان مـــا عاد اليه توتر اعصابه فقد تعالت فجأة اصوات منبعثة مـــن الظلام .. اصوات نسا . يرتلن بخشوع .

وجثا جان فالجان وكوزيت على الأرض العراء .. لم يعلما كنه الاصوات ولا مصدرها .. لم يعلما اين هما .. الا انهما شعرا — الرجل والطفلة .. التائب والبريئة — شعرا بأنهما يجب ان يجثوا !

وهبت نسمات قارصة ، فتحركت الاغصان وسمعت لها خشخشة حزينة كئيبة ، وذابت الاصوات المرتلة في بهيم الليل .

وخلع الرجل الطيب معطفه ودثر به الفتاة وهو يقول : « انتظريني لمحة قصيرة يا حبيبتي » .

وخرج من السقيفة وجعـــل يتجول في المكان المهجور حتى دنا من البناء الكبير ، فوجد ابواباً موصدة وصمتاً وسكوناً لا يعكر صفوهما شيء . وبينا هو يسترق الخطو في حـــذاء الطباق الارضي لمح نوراً ضئيلاً يشع من احدى النوافذ ، فاقترب مـــن النافذة واشرأب بعنقه ، فشاهد قاعة كبيرة خالية من الامتعة ، ولكنه رأى في وسطها شيئاً مستطيلاً كأنه انسان يرقد رقدة المـــوت .

فقفّ شعره واقشعرّ جلده ، فوثب الى الخلف ثم جرى بأقصى قواه الى السقيفة. وما كاديدخل حتى تهالك على الارض وهو يتساءل بلهفة عن هذا المكان العجيب الذي قادته اليه الصدف . ولما استعاد جأشه تحامل على نفسه ودنا من كوزيت فوجدها نائمة تبتسم ابتسامة ملاك ، فجلس قريباً منها وحدق في وجهها ملياً ..

وطرق سمعه صوت واه ، فاستدار متعجباً وحدق في الظلام ، فشاهد شيئاً يتحرك ببطء في الحديقة ، فارتعش قليلاً ، كما يرتعش المنبوذ الهارب من خطر داهم – لأن المنبوذ يخاف كل امرىء ، وفوق ذلك لأنه لا يأمن النهار فهو يكشف امره ، ولا يأمن الليل فهو يساعد اعداءه على مفاجأته – لقد كان منذ لحظات يرتعش لأن الحديقة مقفرة ، وها هوذا يرتعش لأنه شاهد فيها انساناً !

وهكذا انتقل في سرعة البرق من خوفه الوهمي الى خوف حقيقي ماثل امامه . وقال يحدث نفسه – لعل جافير واتباعه لم يبتعدوا عن هذا المكان كثيراً ، ولعلهم خلفوا وراءهم جاسوساً يترسم خطاه . وانكمش على نفسه وجعل يرقب الرجل ويتتبع حركته . وتولته دهشة اذهلته عن نفسه عندما لاحظ ان جرساً كان يقرع كلما تحرك الرجل ، وان الصوت كان يزداد كلما اقترب ويقل كلما ابتعد .. فايقن ان الجرس مشدود اليه .

وتحسس يدي كوزيت ، فاصابه الدوار وندت عن صدره آهة الم وجنون ، فقد كانت اليدان مثلوجتين جامدتين ! وشرع يناديها متلهفاً : « كوزيت ! كوزيت ! » .

ولكنها لم تستجب ولم تجب .

وهزها بعنف عسى ان تعيد الحركة اليها الحياة ، فلم تفتح عينيها .

فتملكه رعب قاتل – هل ماتت كوزيت ؟ – ووقف منتصباً على قدميه ، دون ان يفكر بالاخطار المحدقة به ، تقدم من الرجل وقد استخرج جميع ما

معه من الاوراق المالية « فلما حاذاه — وكان منهمكاً في عمله — قال : « مئة فرنك ! » .

فأجفل الرجل ورفع عينيه مبغوتاً .

وأعاد جان فالجان قوله : « مئة فرنك تأخذها الآن ان اويتني الليلة في مكان دافىء ! » .

وسطع القمر فأضاء وجه جان فالجان .

وهتف الرجل مستغرباً : « ماذا ! الاب مادلين ؟! » .

وقال جان فالجان : « ومن انت ؟ وما هو هذا المكان ؟ » .

قال : « الا تذكرني ؟ الا تذكر الرجل الذي أنقذت من تحت العجلة ؟ الا تعرف (فوشلفين) » .

قال : « بلى ، تذكرت ، وماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة الباكرة ؟ » .

« لقد انتهزت فرصة الصحو وخرجت اكسو الاثمار بما يحفظها من الصقيع والبرد » .

« وما معنى هذا الجرس المشدود الى ساقك ؟ » .

«انه ينبه السيدات الى وجودي.. وجميع نزلاء هذا المنزل من السيدات»..

« وما هو هذا المكان ؟ » .

« وكيف تطرح هذا السؤال وانت الذي يسرت لي العمل هنا ؟ انه دير راهبات (البيكبس) . والآن هلا اخبرتني كيف تسنى لك الدخول والمكان لا تطأه قدم رجل ؟ » .

فدنا منه جان فالجان وقال : « فوشلفين .. لقد انقذت حياتك ، ويمكنك الآن ان تقابل صنيعي بمثله ! » .

فقبض الشيخ على يدي جان فالجان وهو يرتجف من الانفعال ، واخلد للصمت والدموع تترقرق في عينيه . ولما وجد سبيلاً الى الكلام قال : « لشد ما اود ذلك ان من علامات رضا الله ان اقابل صنيعك بمثله .. اني يا سيدي رهن اشارتك ! » .

فقال جان فالجان : « اين غرفتك ايها الصاحب ؟ » .

قال : « لقد خصص لي كوخ منعزل عن سائر البناء ، هناك خلف انقاض الدير العتيق ، وفيه ثلاث غرف صغيرة » .

« هذا حسن .. والآن اطلب منك امرين – ان لا تخبر احداً بوجودي ! وان لا تحاول الاطلاع على حقيقة امري » .

« لك ذلك ، فانا موقن بانك لا تصنع ما يشين ، وانك تخاف الله دائماً وتعمل على مرضاته » .

« فهلم اذن الى الطفلة » .

« ماذا تقول ؟ واية طفلة ؟ » .

ولكنه لم ينتظر جواباً بل مشى في اعقاب جان فالجان كما يتأثر الكلب الامين صاحبه !

وما مضى من الزمن الا نصف ساعة حتى كانت كوزيت مستلقية على فراش الشيخ وقد عاد الى خديها لونها ، وعادت الحياة الى جسدها الضعيف – اي عادت الزهرة التي كادت ان تذبل فأينعت وازدهرت .

★

تعالت ترانيم السحر يرددها الصدى في جنبات المكان ، فنبهت جان فالجان وفوشلفين من شرودهما ، وما لبثا ان نهضا فاضطجع كل منهما على حزمة من

قش . وقبل ان يغمض للطريد جفن قال يحدث نفسه : « هنا مقامي ومثواي ان شئت السلامة .. ولا مندوحة لي من البقاء .. » واقتتلت مثل هذه الافكار في رأس فوشلفين فكحل الفكر عينيه بالسهاد حتى آذن الليل بزوال !

ولم يكن الرجل قد سمع بما اصاب مادلين من كوارث طوحت به من الذروة . فهو لا يغادر هذا النطاق الذي ضربته عليه اسوار الدير الا لماماً ، وهو لا يعبأ باستطلاع امور الغير ، كما انه ساعة فاجأه مادلين بظهوره لم يفكر في استجوابه لما يعهده فيه من الصلاح والتقوى ..

كان فوشلفين في ماضيه مجبولاً على الطمع ، إلا انه بعد الحادثة التي اصابته وكادت تودي بحياته ، وجعلت منه رجلاً اعرج مشوه الساق ، تغيرت حاله من الطمع الى القناعة ، لهذا لم يتردد كثيراً في اقناع نفسه بأن يفتدي مادلين بحياته ان اقتضى الامر ذلك .

وتحول بعينيه ناحيةمادلينوقد لاحت تباشير الصباح فرآه يتكىء على حزمة القش ويرمق كوزيت بحنان ومحبة فقال : « والآن لنبدأ في معالجة المشكلة المشتركة ، فاعلم ان خروجك من هذا الكوخ محظور والا هلكنا وأضعنا كل شيء ! » .

« وما العمل ؟ » .

فاستتلى فوشلفين : « لقد جئت في وقت ملائم ، او بالأحرى في وقت خيم فيه شبح الحزن على هذا المكان ، فاحدى الراهبات المتصفات بالورع والتقوى قد ماتت او هي على شفا الموت، ولهذا انهكمت الأخوات في صلاتهن وانشغلن في اتخاذ الاجراءات والترتيبات التي يقتضيها الموقف متى حـــل الموت بين ظهرانينا ... ولكن هناك فتيات صغيرات ... » .

فقاطعه جان فالجان مستغرباً : « فتيات صغيرات ! ومن هن ؟ » .

« انهن اطفال في عمر فتاتك يتلقين العلم . فلو وقعت ابصارهن عليك للأن الدنيا زعيقاً ! » .

« فانتم تديرون مدرسة للصغار اذن ! .. » .

واستطرد فوشلفين يقول : « والعقبة التي تعترض طريقنا الآن هي كيف تستطيع ان تخرج دون ان يراك احد.. انني مقتنع انك هبطت علينا من السماء، اما الراهبات .. اما الرئيسة الصارمة .. فماذا يكون رأيهن ورأيها ؟ اجل لا مفر لك من الخروج ، ثم علينا بعد ذلك ان نجد الوسيلة لدخولك ثانية » .

فارتعدت فريصة جان فالجان وقال : « لن اخرج فهذا ضرب من المحال .

« انني استطيع ان اخرج بالطفلة دون عناء ، فأضعها على سبيل المثال في السل الكبير واوصلها الى الخارج ، اما انت ! .. » .

فهز جان فالجان رأسه .

وران صمت ثقيل على الرجلين .

وقرع الجرس الكبير في الدير ، فانتصب فوشلفين واقفاً ، وقال وهو يتأهب ليذهب : « انه لي ، وإخال الأم الرئيسة تستدعيني إليها لتوكلني بامر الدفن ، اننا في هذا الدير ندفن موتانا من القديسات في آخر النهار ، وقد اجازت لنا الحكومة ذلك بعد كثير من الجدل العقيم .. فالى اللقاء . انتظر أوبتي فلن أمكث في حضرتها طويلاً » .

هكذا واجه فوشلفين الصعوبة ، ولكنه كان ذلق اللسان ، يحتوي رأسه على ذهن متوقد .

فلما وصل الى حجرة رئيسة الدير وقف بتهيب وخشوع ينتظر الاذن له بالدخول .

ورفعت الرئيسة بصرها بعد دقائق فرأته يقف في مكانه منكس الرأس فقالت : « آه ! انت هنا ؟ ما بالك لا تدخل ؟ تقدم ايها « الاب فوفين ».

وكانوا في هذا الدير قد اطلقوا عليه هذا الاسم المرخم حتى لا يضطروا الى مناداته باسمه الطويل العسير !

قال : « اجل ، اني هنا ايتها الام الوقور » .

« أدخل فأنا راغبة في محادثتك على انفراد » .

« وأنا الآخر لدي ما اقول » .

« وماذا تروم ؟ » .

وتكلم الرجل فسرد عليها نواحي عديدة من حياته وزعم لهـا انه ينوء بأعباء اعماله ، ويطيب له لو أعانه رجل آخر على تحمل قسم من هذه الاعباء.. ثم أخبرها أن له أخاً بستانياً مهر في عمله ، فلو سمحت له الرئيسة لاستقدمه ليقطن معه في كوخه. ولم يخف عنها امر كوزيت بل زعم ان لأخيه ابنة صغيرة يود ان يلحقها بالمدرسة لتتلقى العلم الصالح على ايدي الاخوات ..

ولما انهى حديثه رفعت الرئيسة رأسها وحدقت في وجهه متأملة متفكرة وما عتمت ان قالت بعد ان اطرحت عنها شعور التردد :

« ايها الاب فوفين ، ان الرهبنة لم تحظ الا بالقليلات مـن امثال الام (كروسيفكس) وقد استجابت لدعاء ربها اليـوم وسنضجعها في مثواها الأخير » . .

« ان اخوات هذا الدير قد حلت فيهن بركة الام كروسيفكس . ولمـا حضرها الموت تكلمت معنا ، ثم ناجت ملائكتها . وقد شعرنا والكلمات تنثال من فيها انها تعود الى الحياة في الله . . ولست في شك ان في موتها تنطوي جميع معاني الخلود .. واعلم انها سجيت في نعشها منذ عشرين سنة .. وقد اضطجعت فيه ضجعة الموت مع انها كانت حية حياة الخلود السرمدي .. ولا يليق بنا ان نحرمها من مرقدها هذا الذي احتلته طوال هذه السنين فننقلها الى تابوت آخر ونلحدها في حفرة اخرى . » ولهذا قررنا ان نعيدها الى نعشها

ونودعه في المكان الأمين الذي يستوي فوقه الهيكل » .

« سمعاً وطاعة .. فانا كحجر في هذا البناء ايتها الام » .

« ويبقى لنا الآن التخلص من التابوت الخالي .. فماذا نفعل فيه ؟ » .

« نودعه اللحد المخصص للقديسة الراحلة في المقبرة » .

« وكيف ؟ وماذا يقول الحمالون ؟ » .

« سأملأه بالتراب حتى لا يستريب احد ، ثم نحمله الى المقبرة ، وينتهي الامر دون ان نثير ظنون رجال الحكومة » .

وزال تقطيب الأم الرئيسة ، واشارت اليه ان يخرج . فلما تحرك فوشلفين ، استدركت بصوت مرتفع : « ايها الأب فوفين ، انني شاكرة لك اخلاصك ، لهذا تراني راغبة في مساعدة اخيك ، فاستقدمه غداً بعد ان تنتهي من عملك ، ودعه يصطحب معه ابنته ! » .

فقفل الرجل بسرعة الى الكوخ ، فشاهد جان فالجان يشير الى السل المتدلية من الحائط ويقول : « اسمعي جيداً يا كوزيت ، لا مندوحة لنا من مغادرة هذا المكان . ولكننا سنعود اليه ثانية ، ونمكث فيه وقتاً مديداً .. وسيحملك صديقنا الطيب في هذا السل الى امرأة شفيقة تعنى بك ريثما اوافيك به » .

وأحس جان فالجان بدخول فوشلفين فالتفت اليه قائلاً : « ما وراءك يا صديقي ؟ » قال : « طب نفساً فقد أقنعت الرئيسة بان تلحقك بالعمل هنا ، ويتحتم عليك الآن ان تخرج ، ومـــا اظنه الأمر الصعب أن تفعل هذا ، اذا سلكت نفس الطريق .. طر كما هبطت .. » .

قال : « هذا امر دونه خرق القتاد » .

ففكر فوشلفين وقلب الامر على مختلف وجوهه ، وبانت الحيرة في محياه ، وطفق يتكلم وكأنه يحـــدث نفسه ، قال : « لا شك في ان التراب سيحدث

صوتاً مريباً في بالتابوت ، ويا ليتني استطيع ان اضع فيه جسداً حتى أسلم من الظن » .

ثم استدار الى جان فالجان واستطرد: « ان الرئيسة اذعنت لطلبي مكافأة لي على خدمة سأؤديها » .

وعلق يشرح له ما يقوم به كلما قضت راهبة نحبها .. فهو مكلف باغلاق التابوت وتثبيت غطائه ، وهو مسؤول عن هيل التراب على الجثة .. ثم صمت صمت المرتبك واستتلى : « وانني اليوم مقدم على عمل خطير ، فالراهبة الميتة أوصت بأن تلحد في حفرة تقع تحت الهيكل ، وهـذا تحرمه علينا القوانين المرعية ، بيد ان الرئيسة رأت ان تنفذ وصية الراحلة ، وان تفوض إلي المهمة على ان تجازيني مقابل اخلاصي بادخال اخي وابنته الى الدير » ..

وسأله جان فالجان قائلاً : « وما هو التابوت الخاوي ؟ » .

« التابوت الذي ارسلته الحكومة للراهبة المتوفاة » .

« وما معنى هذا ؟ » .

« عندما تموت راهبة ، ترسل الحكومة تابوتاً لها . وفي اليوم التالي ترسل من يحمله الى المقبرة ، وسيأتي الحمالون غداً فلا يجدون فيه احداً » .

« فلنضع فيه احداً ! » .

فهب فوشلفين من مكانه كمن لدغته افعى وصاح: «ومن نضع فيه؟ من ؟».

« انا ! اين التابوت ؟ » .

« انه في غرفة الموتى » .

وهل يتسنى لك اخذي الى تلك الغرفة ساعة يهجع الجميع ؟ » .

« استطيع ان اتدبر هذا الامر ان شئت » .

« ومتى يأتي الحمالون لنقل التابوت ؟ » .

« في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد » .

« عليك اذن ان تأتي لوضعي في التابوت في الساعة الثانية » .

وقال جان فالجان معقباً: « والشيء الذي يقلقني الآن هو ما يجري في المقبرة عند وصول التابوت » .

قال : « اما انا فلا ابالي بما ينتظرنا هناك ، لأن حفار القبور رجل سكير وهو صديق لي حميم .. فمتى وصلنا في ساعـــة الغروب ، لن يبقى على موعد اغلاق باب المقبرة سوى خمس واربعين دقيقة ، وسيكون الحفار ثملاً . فان لم يصدق حدسي عمدت الى دعوته ليشرب معي كأساً ، فاذا فعل ، وهو لا محالة فاعل ، فسأسكره ثم ألقيه ارضاً وآخذ بطاقته وارجع ادراجي اليك ! » .

بينا كانت الشمس تنحدر للمغيب في اليوم التالي شاهد المارة عربة يحتلها قس وشماس تسير الهوينا وراء نعش مرفوع على كواهل اربعة رجال ، وفي المؤخرة شوهد رجل عجوز يظعن بمشيته . وكان الموكب الصغير يتقدم في اتجاه المقبرة .

والمقابر في باريس كما بينا ، تغلق ابوابها وقت الغروب ، فلا يأذن البواب لأحد بالدخول او الخروج بعد تلك الساعة الا لحفار القبور الذي كان مصرحاً له بدخول المقابر في اي وقت شاء شريطة ان يبرز بطاقـــة هوية اصدرتها له السلطات المختصة . وكان هناك في الجانب الآخر مـــن الطريق الذي تقع فيه المقبرة حانة صغيرة تدعى (السفرجلة الطيبة) ، وما اكثر ما انتقل المشيعون من موكب ميت الى مائدة تغص بالزجاجات والاقداح !

فلما وصلت عربة الموتى الى المقبرة كان قرص الشمس المتوهج لا يزال يبهر الابصار ، فدلفت العربة الدكناء إلى حرمة المقبرة بحملها ، يتبعها حاملو النعش والرجل الاعرج الذي لم يك سوى « فوشلفين » .

وكان كل شيء قد جرى وفقاً للخطة المرسومة ، فاودعت جثـــة الراهبة المتوفاة في مقرها تحت هيكل الكنيسة وخرج فوشلفين من الدير وهو يحمل كوزيت في سلة ، وتلصص جان فالجان الى غرفة الموتى دون ان يراه انسان ، ثم وافاه فوشلفين فأعانه على الاختفاء في التابوت الخالي .

ولما جاء البواب ليتأكد من ان اجراءات الحكومة قد امتثل بها ، وليتثبت من تصريح الدفن ، رأى فوشلفين رجلاً غريباً يقف بجواره . فحدد فيه عينيه ورماه بنظرة تعجب وتساؤل وما عتم ان قال : « من انت ؟ وما مرامك !» .

فاجاب الرجل : « انا حفار القبور هنا » .

فامتقع لون فوشلفين حتى أمسى اقرب الى لـــون امرىء اخترقت صدره رصاصة قاتلة ، وردد دون وعي : « حفار القبور ؟ ! » .

« نعم . وقـــد خلفت الحفار السابق ، واسمي ان طاب لك معرفته هو (غريبي) » .

وصمت مفكراً .. وتفصد العرق من جبينه .

لم يتبادر الى ذهن جان فالجان اي شك في انه سيخرج حياً من التابوت ، لم يدر في خلده اي فكر عـــن تلاعب القدر وكفره .. كان يلعب مع الموت ، وكان طيلة الوقت يتابع بانتباه من حيزه الضيق ما يجري في الخارج .. وقـد شعر انه انزل الى اللحد ، ثم خارت قواه بغتة .

وهزه على حين غرة صوت قوي ، فعلم ان الحفار قذف عليه قبضة رفش من التراب .. وتكرر اصطدام التراب والحجارة بالتابوت .. واحس بضيق شديد يأخذه في صدره وحلقه .. وتململ كأنه يحاول الافلات مـــن محبسه ، وغاب عن صوابه !

فماذا جرى قبل ان يشرع الحفار الجديد في هيل التراب على جان فالجان ؟ وماذا اعقب ذلك ؟

ما كاد القس ومساعده يذهبان في سبيلهما حتى اقبـــل فوشلفين على الحفار يعرض عليه ان يشرب معه كأساً قبل انجاز مهمته . الا ان الرجل ابى واصر على الرفض ، ثم غرس الرفش في التراب وبدأ عمله ..

ولم تكن الشمس قد اختفت بعد وراء الافق ، وحانت من فوشلفين البائس التفاتة ، فرأى بطاقة الرجل تبرز قليلاً من جيبه ، فاستلها بخفة ، وسارع يقول : « حسبك يا هذا عناداً ، حسبك تفانياً في العمل ، وارع مصلحتك قبل كل شيء ، ولا يغرب عنك ما تتعرض له من القصاص والغرامة ان اغفلت حمل بطاقتك ، فهل هي معك ؟ انظر .. انظر .. » .

فارتجف الرجل ورمى الرفش من يده ، واخذ يتحسس جيوبه .. فلما لم يجدها هتف لاهثاً : « اواه ! تعساً لي ! » .

فقال فوشلفين : « لا تيأس مـــن رحمة الله ، وعليك ان تعجل باحضار بطاقتك قبل غياب الشمس .. أسرع قبل ان يفوت الوقت » .

ولم يضع الحفار دقيقة من الوقت ، بل هرول يعدو بكل قواه .

وتلفس فوشلفين الصعداء وهبط الى اللحد فانتزع غطاء النعش وارتـــد الى الوراء وقلبه يتصدع من شدة الصدمة . فقد شاهـد جان فالجان جامداً جمود الموت .. ساكناً سكون اهـل القبور .. كانت عيناه مغمضتين وفمه مطبقاً واصفرار وجهه مريعاً ..

وتمتم فوشلفين بأسى مرير : « لقد مات ! » .

ونهض واقفاً وضرب على رأسه بأقصى قوتـه واستأنف : « ويلي من غرّ أبله ! أبهذا العمل أنقذته ؟ ! » .

وجعل الشيخ البائس يبكي ويقول : « انني لست مسؤولاً عما جرى ، ان المسؤولية تقع على عاتق الحفار السابق الذي قضى نحبه في غفلة عنا ! وما يكون

مصير الفتاة الصغيرة ؟ وماذا يقول الجميع ؟ أيهـا الاب مادلين .. ايهـا الاب مادلين .. يا خير الرجال » ..

وشد شعره بيده .. ونظر الى الوجــه الساكن فرأى العينين المغمضتين تنفتحان ، ورأى الشفتين المطبقتين تنفرجان ..

ان مشاهدة الموت امر مريع ، ولكن مشاهدة الحياة تعود الى الميت ، هو امر أبعد اثراً من احاسيس الخوف التي تعتمل في الصدر.. لقد سرت القشعريرة في جسد فوشلفين وهو يرى الحياة تعود الى صديقه ، واغبرّ لون وجهه ، وسمر في وقفته يحملق بعيني مجنون .

وتكلم جان فالجان أخيراً فقال : « لقــد استولى علي الكرى فيما اظن ، فنمت .. » .

وصاح فوشلفين : ليبارَك اسمك أيتها العذراء » .

وجثا على ركبتيه والدموع تتساقط من مقلتيه ثم نهض واقفاً وتابع : « لك الشكر يا الهي . لك الشكر يا سيد مادلين ! » .

وقدم لجان فالجان زجاجة صغيرة وقال : « اشرب ، اشرب قليلاً » .

وجرع الميت الحي جرعة استعاد بها قوته ، ثم غادر الاثنان الحفرة بعد ان ارجعا الغطاء الى مكانه من التابوت وأهالا عليه التراب ، وحملا معهما الرفش والفأس وانطلقا من المقبرة لا يلويان .

بعد ساعــــة وقف في عتمة الليل رجلان وطفلة امام باب دير البيكبس للراهبات. وكان الرجلان – فوشلفين وجان فالجان ، والطفلة ـ كوزيت .

وكانت كوزيت قد امضت ليلة ويوماً في البيت الذي حملها اليه فوشلفين ، وهي لا تدري ما تخبئه لها الايام . وقد انضب الخوف دمعها فلم تبك . كما ان الاضطراب والتوجس افقدها شهيتها فلم تذق طعاماً .

فلما وقع طرفها المذعور بعد اربع وعشرين ساعة على جان فالجان ندت من صدرها صرخة جذل ، واقبلت عليه وقد سرّي عنها فاخذت تتحسس يده وتلثم وجنتيه وتضم رأسه الى صدرهـــا الصغير ، حتى انه لم يتمالك نفسه من البكاء .

وقادهما فوشلفين الى حجرة الأم الرئيسة . وكانت الراهبة تنتظر مقدمهم ، فما كادت تراهم مقبلين حتى التفتت اليهم متفحصة ثم تحولت ببصرها الى جان فالجان وجعلت تتأمل في وجهه وتصعد عينيها في قامته ، وما لبثت ان شرعت تطرح عليه اسئلتها .. قالت :

« انت هو الاخ الذي حدثني عنه فوفي ؟ » .

فاجاب فوشلفين : « نعم ايتها الأم الموقرة » .

« وما اسمك ؟ » .

فاجاب فوشلفين : « ألتموس » .

واستتلت الراهبة تقول : « وكم تبلغ من السنين ؟ » .

فقال فوشلفين : « قرابة الخمسين » .

« وما عملك ؟ » .

فاجاب فوشلفين « بستاني » .

« وهل انت مسيحي مؤمن ؟ » .

فاجاب فوشلفين : جميع افراد اسرتنا كذلك » .

« وهل هذه الطفلة ابنتك ؟ » .

فاجاب فوشلفين : « كلا ايتها الام الطاهرة بل حفيدته » .

والتفتت الرئيسة الى الراهبة الجالسة بجانبها وهمست قائلة : « ان اجابته صريحة جلية تدعو الى الاطمئنان والركون ! » .

ولم يكن جان فالجان قد تكلم بعد !

ثم قالت بصوت مسموع : « علينا ان نزود البستاني الجديد بجرس اسوة بك يا فوفي » .

وهكذا لم تملك الراهبات انفسهن في اليوم التالي من رفع براقعهن قليلاً والنظر الى الرجل الجديد ذي الجرس الجديد الذي كان يعمل بجانب فوشلفين في الحدائق ..

وألحقت كوزيت بالمدرسة .

●

تعلمت كوزيت الحكمة من البؤس والألم ، وايقنت ان الصمت خير من الكلام ، وان الرزانة اسلم من الثرثرة ، لهذا لاذت بالصمت عقب التحاقها بمدرسة الراهبات ، وهي تحسب انها ابنة جان فالجان .

وسرعان ما ارتاضت على حياة الدير وارتاحت نفسها لاترابها من الفتيات ولما اعطوها الملابس الموحدة التي يرتديها اطفال الدير ، جمع جان فالجان ملابسها وامتعتها القديمة واحتفظ بها في حرز ووضع الحرز قريباً من مرقده .

اما فوشلفين فقد عوضه الله خيراً على ما اداه لجان فالجان ، فعمله قل الى النصف ، وجان فالجان زوده بالطباق الذي كان مغرماً بتدخينه ..

اما الراهبات فلم ترتح اسماعهن الى اسم « ألتموس » وطفقن يدعونه « فوفي الآخر » !

ونشط جان فالجان يعمل ويكد. وكانت كوزيت تأتي كل يوم لقضاء ساعة من الزمن معه ، ولا تفتأ كلما خلت اليه ، تقابل بينه وبين الراهبات ، فترى البشر هنا والكمد هناك ، فتزداد محبة له ، ويتضاعف تعلقها بشخصه . وشاطرها

جان فالجان سرورها ومتعتها ، وكان مرحه يتضاعف على مر الايام ، وكان حبه لكوزيت ينمو ويزداد رسوخاً في اعماق قلبه الكبير .

كان الدير سجناً آخر قضي عليه ان يحشر فيه ويبقى بين جدرانه .. وكان احياناً يستعيد الى الذاكرة تلك الايام التي امتحن فيها بالبلاء ، ثم يرى زملاءه المسجونين بعين خياله نائمين في جحور قذرة وفي ثغرات منحوتة في الجدران .. ويراهم والبرد يهرأ اجسادهم ويجمد اطرافهم .. فيتأوه من قلب مكروب .

لقد ازالت السلطات شخصياتهم ، ومحت اسماءهم ، وألصقت بكل واحد منهم رقماً يعرف به ولا يعرف بسواه ..

وتولاه العجب الشديد — أليست هذه الكائنات التي تعيش في الدير ، صنو تلك التي عاشت معه في السجن ؟ فلم تفرض الراهبات على انفسهن هذه الحياة ؟ لم ذاك ؟ لم ؟ .. أهي الكفارة عن الاثم ؟ أهي الوسيلة الى تطهير النفس ؟ وما هي هذه الكفارة ؟ وتساءل جان فالجان عن ماهيتها ..

وهتف صوت في داخلــه — صوت مبهم عميق الغور هتف يقول : « انها الكفارة عن آثام البشر .. انها الفداء والتضحية ..

٥

بعد مرور ثمانية او تسعة اعوام على حوادث الجزء الثاني من هذه الرواية ، كان يرى في شارع « تمبل » صبي في الحادية عشرة من عمره ، ضاحك الوجه تتلألأ حداثته على شفته ، وتتراقص حيويته في عينيه .

وكان الغلام يرتدي سروالاً متسعاً فضفاضاً لم يرثه عن ابيه ، وقميصاً نسائياً لم يؤل اليه من امه .. بل انه حصل على السروال من محسن وعلى القميص من محسنة :

ومع ذلك فقد كان له أب وأم .. ولكن الاب لم يفكر فيه : والام لم تشعر نحوه بعاطفة الحب ..

ولم يشعر هذا الغلام بالسعادة إلا على طوار الطريق ، لأن الرصيف كان أرق له واحنى عليه من قلب امه .

لقد قذف ابوه وامه به الى الحياة .. وقد خلقه الله وخلق الحركة والحيوية معه .. فهو يجيء ويذهب ، وهو يغني ويلعب ، وهو يعمل ليعتاش ويكتسب .. كل ذلك والضحك سجية في طبعه ، والابتسام إمارة من امائره ، والاعتماد على النفس فضيلة وسمه الله بها منذ نعومة اظفاره !

وبالرغم من معاملة ابيه وامه السيئة ، ونبذهما اياه نبـذ النواة ، إلا انه كان يقول لنفسه احياناً : « يجب ان ازور ابي وامي » .

ولا يلبث ان يترك الشارع فيعبر الجسور ويجتـــاز الطرقات حتى يصل الى الضواحي ، واين يصل ؟ .. الى المنزل رقم ٥٠ – ٥٢ .

وللقارىء إلمامة بهذا المنزل ، فهـــو المنزل الذي مكث فيه جان فالجان وكوزيت ردحاً قصيراً ، وهو المنزل الذي هربا منه بعد ان اهتدى جافير الى مكانهما فيه .. وهو المنزل المعروف باسم « منزل الشيخ غوربو » .

في ذلك الزمان كان يتناوب استئجار غرف المنزل المذكور اشخاص يبدأون حياتهم من الطبقة الوسطى وينتهون على مراحل متعددة الى الحضيض – الى احط دركات الفقر والمسكنة !

ولم يكن الساكن منهم يعرف جاره .. ولم يكن يشعر بالميل الى معرفـة جاره .. فقد حطمهم الدهـــر وخلفهم وراءه اشلاء واشباحاً جياعاً يتلفعون بالاطمار وتصفر جيوبهم من المال !

وقد ماتت المرأة التي كانت تشرف على هذا المنزل بعد رحيل جان فالجان عنه ، وخلفتها امرأة اخرى لا يقل عمرها عن السبعين تدعى «مدام بيرغون» .

ومن افقر الذين قطنوا هذا المنزل في ذلك الحين ، عائلة مكونة من اب وأم وفتاتين . وقد احتلوا جميعاً غرفة صغيرة اشبه ما تكون بالوكر ..

اما رب الاسرة البائسة هذه فقد اطلق على نفسه اسم « جوندري » ، ولم يجهر باسمه الحقيقي لإنسان !

هذه العائلة هي عائلة الغلام المتشرد . وكان كلما أمّ المنزل في زيارة لذويه لم يصدف فيه سوى الشقاء والحرمان . واكثر مـــن ذلك فانه كلما جاء لم يكن يطالعه في غرفة عائلته وجه ضاحك او ثغر باسم .. فكل شيء كان جامـــداً جمود الصخر ، بارداً برود الثلج .. وإذا ما رآه افراد اسرته كانوا يسألونه : « من اين مقدمك ؟ » .

وكان يجيبهم كلما سألوه : « من الشارع ! » .

وعندما كان يتأهب ليذهب ، كانوا يقولون : « والى اين انت قاصد ؟ » .

وكان يجيبهم كلما سألوه : « الى الشارع ! » .

هذا الغلام يدعى « غافروش الصغير » . هذا هو اسم الشريد المرح الذي كانت تحتفي به الارصفة ، وتضمه اليها الطرقات ، فيستعيض بها عن امه وابيه وشقيقتيه !

وفي الغرفة المجاورة لوكر هذه الاسرة عاش شاب لا يقل فقراً عن تلك العائلة ، وكان هذا الشاب يدعى « ماريوس » .

★

لا يزال شيوخ تلك النواحي المتفرعة الطرق يتذكرون رجلا انيقاً مهيباً يدعى « السيد جيلينورمان » .

كان في التسعين في ذلك الحين ، إلا انه كان يمشي منتصب القامة ، ثابت الخطو .. وكان صوته جهورياً وبصره حديداً ..

شرب الخمر في شبابه وشربها في كهولته ، وما فتىء يشربها وهو على اعتاب المئة ! وكان يأكل بشهية ، وينام ملء جفنيه .

وكانت تعايشه ابنة عانس في العقد الخامس من عمرهـــا . وبالرغم عن اكتهالها إلا انه كان يعاملها كما لو أنها طفلة تحبو !

عاش في داره في جادة « فيل ذي كالفير رقم ٦ » وكانت هذه الدار قديمة رممت مرات كثيرة ، وتقع وسط حديقة غناء وارفة الظلال عابقة بالأزهار ، وقد ازدانت حجراتها ودهاليزها بالرسوم الرائعة التي تأخذ بمجامع القلوب ، واسدل على نوافذها ستائر فاخرة . وكان مخدع نوم الشيخ مجاوراً لحجرة مكتبه . وقد آل له هذا البيت عن عمة توفاها الله منذ سنين .

كان يعبد آل بوربون ويفكر في ثورة سنة ١٧٨٩ كما يفكر الانسان بالكارثة .. وقد طالما سرد على مسامع معارفه قصة فراره من براثن الثوار ، وكيف نجا من المقصلة بأعجوبة وغادر فرنسا بمعجزة !

وكان من رأيه ان الرجل إذا شاء ان يتفرغ لحياته الخاصة ولعشيقاته الأثيرات ، يخلق به ان يضع محفظته المنتفخة تحت تصرف زوجه .. فان فعل ذلك تمتع بحريته .. وقد طبق هذه النظرية على نفسه ، فأتت زوجه الثانية على ثروته ولم تبق له منها بعد وفاتها إلا ما يقوم بأوده .. وقد تقلص دخله حتى اصبح لا يتجاوز خمسة عشر الف فرنك في العام .

وما أكثر ما كان معجباً باسم « فيكوليت » ، حتى انه دعا جميع خدمه من كلا الجنسين بهذا الاسم !

وبالرغم عن بلوغه أرذل العمر ، إلا انه انجب من إحدى الغانيات طفلين وهو في الرابعة والثمانين !

ولما حملت الأم طفليها في احد الايام اليه ، وجيء بهما إلى غرفته ، لم يشتعل غضبه كما خشي خدمه ، بل هون من الأمر بضرب الأمثال عن الرجال الذين انجبوا وهم في مثل عمره .. والذين عاشروا الغانيات بعد ان عاشروا الزوجات ! .. ثم صرف الام وابنيها على ان يدفع لها ثمانين فرنكاً في نهاية كل شهر .

اما اولاده من زوجتيه ، فهما ابنتان ، اكتهلت الاولى دون زواج ، وماتت الثانية في الثلاثين بعد ان اقترنت بمن تحب . وكان زوجها جندياً خدم في جيوش الجمهورية ، ثم في جيوش الامبراطور . وظفر في موقعة « اوسترلتز » بوسام الشجاعة ، ومنح رتبة « كولونيل » في موقعة واترلو ، قبيل أفول نجم نابليون عندما قاد كتيبة صغيرة وانقض بها على جناح الأعداء منزلاً بهم خسائر فادحة ! وقد رآه نابليون وهو يخوض غمرات القتال ، فأعجب به أيما إعجاب وصاح وهو

يدنو منه والدماء تنزف من صدره : « سقياً لك .. سقياً يا كولونيـــل ! يا بارون !! » .

وكان الشيخ المتزمت الصارم ينتهز كل فرصة ليذم ابنته الثانية على ملأ من الناس ، وينعي عليها زواجها بجندي .

اما اعتقاده بالدين فكان واهي الحلقات ، فهو يستهزىء بالدين ، ويتهكم بالمؤمنين ، ويزعم أنه دهري ، يرى في الطبيعة جميـع عناصر الوجود ، ويثق بانها خالقة الدنيا وصانعة الأحداث !

هكذا كان السيد جيلينورمـــان الذي احتفظ بشعره .. وتلك هي بعض خصائص هذا الشيخ . كان وقوراً متى جدّ الجدّ ، وذا طيش وخفة إذا استهتر وتمادى وطاب له المجون !

وابنتاه اللتان ذكرناهما ، كانتـــا على طرفي نقيض في الخلال والصفات والسمت ...

فالصغرى منهما كانت تميـــل بطبعها الى المرح ، وتحب الأضواء الباهرة والالوان الزاهية ، والشعر العذب ، والموسيقى الحالمة المشبعة بالعواطف .. وكان ملاك احلامها فارساً تضرب ببطولته الامثال .

وكان للكبرى ايضاً احلامها .. الا ان نظرتها لرجل أحلامها كانت تناقض نظرة أختها .. فقد منّت النفس بالعثور على ثري وإن كان أبله ! أو موظف يصطحبها الى ردهات الاستقبال وان كان كنزاً ثقيلا .

على أن كل طموح مهما قرب من الواقع لا يتحقق جملة ، فقد بعلت الصغرى بفتى احلامها ، ولكنها درجت في اكفانها والشباب في إبانه .. وما تزوجت الكبرى ، بل ظلت عزباء ، وتقدم بها العمر فأضحت عانساً ! .

في هذا البيت الذي احتله الشيخ المسنّ وابنته العانس ، ترعرعت حياة

اخرى – غلام يرتعش فرقاً كلما دنا منه الشيخ ، وينكمش على نفسه فزعاً كلما خاطبه الشيخ .

كان الغلام هذا حفيد السيد جيلينورمان من ابنته التي تخرّمها الردى في موعة الشباب .

★

كل عابر للجسر الاثري الجميل في مدينة « فيرنون » لا بد ان يلحظ وهو يمر فوق الحاجز رجلاً في الحلقة الخامسة يضع على رأسه قلنسوة من جلد ويرتدي بنطلوناً وقميصاً رماديين ، ويحتذي نعلاً خشبياً . وقد لوحت الشمس بشرته حتى اسودت ، ولكن شعره كان ابيض في لون الثلج . ورسخت في وجهه ندبة كبيرة هي اثر جرح ثخين اصيب به . وكان يمشي مطرق الرأس مقوّس الظهر ، ويبدو اكبر من سنه الحقيقي ، ويحمل رفشاً ومقرضاً للنبات .

لا بد لعابر السبيل ان يلحظ هذا الرجل منهكماً في عمله ، يعنى بحديقة داره التي يشرف عليها الجسر . وكانت هذه الدار أصغر من جميع الدور التي تجاورها ، إلا انها كانت من اجملها .. كما كانت الحديقة اصغر الحدائق ، الا انها كانت من أينعها .

وبالرغم من مكانته ومهابته ، لم يخشه انسان او يرهب جانبه كائن من كان لما اتصف به من حميد الصفات وادب السلوك ودماثة الخلق .. هذا هو الرجل جورج بونتمرسي !

وكل قارىء للمذكرات الحربية ونشرات الجيش لا بد ان يمر عليه مراراً وتكراراً اسم – جورج بونتمرسي – ولابد ان يعجب بصاحب هذا الاسم وبسالته وشهامته .

انخرط وهو في موعة الشباب في سلك الجندية ، ثم رقي الى ضابط . واندلعت نيران الثورة ، ومرت تلك السحابة الحمراء القاتمة ، وحارب بونتمرسي في مختلف الميادين .

فلما تقاعد بعـــد ان انتاشت البلاد الخطوب ، افرد له في ميزانية الجيش معاش ضئيل ، فجعل من مدينة فيرنون مقاماً له ، واكترى فيها اصغر منزل وجده ، وعاش في معزل عن الخلق .

ونجحت بغيته فبنى على المدموزيل جيلينورمان ، وقد وافق والدها الشيخ الملتزمت كارهاً على هذا الزواج وقال مغضباً : « إن اعظم الويلات تنزل بأعظم العائلات ، ولا ترى هذه العائلات مندوحة من الرضوخ والخضوع للامر الواقع في بعض الأحيان ! » .

وفي سنة ١٨١٥ توفى الله هذه الزوجة الوفية النبيلة المحبوبة النادرة المثال الجديرة بزوجها ، بعد ان انجبت له ابناً غلاماً . ولو احتفظ الأب بابنه لوجد فيه التعزية والسلوان ، ولكن الجدّ أصرّ على انتزاع الطفل من ابيه منذراً الأخير بأنه إن لم يتخل عن وليده ، فسيحرمه من الارث ..

وقد امتثل الأب مقسوراً وهو يغالب حنينه .. فضحى بسعادته مؤثراً خير ابنه ، وحول اهتمامه لازهاره وورووده ، فاحبهـا وأخلص لهـا ، وحاول ان يستعيض بها عن فلذة كبده .

وسمع الطفل — ويدعى ماريوس — بأبيه ، ولكنه لم يره او يعلم عنـه شيئاً ، فقد تجنب ذكر انبائه كل من جده وخالته ..

في غضون تلك السنين كان الاب المشتاق الى وحيده يأتي خلسة الى باريس ، فيذهب الى كنيسة « القديس سبليس » في الساعة التي كانت الخالة تذهب اليها مع الطفل ، فينزوي وراء احد الاعمدة ، ويسترق النظر الى الطفل ، ويحبس أنفاسه خيفة أن تشعر الخالة بوجوده ..

وقد لفت حذره وانزواؤه انتباه راعي كنيسة فيرنون « الاب مابوف » الذي نبهه ايضاً الى ذلك شقيق له هو الآخر قس يقوم بخدمة الكنيسة المذكورة في باريس ، فطفق يجالس الاب المحروم النظرات ويحاول استشفاف سره ..

وبينما كان يغذّ السير في صباح أحد الأيام الى فيرنون لزيارة شقيقه ، لمحه بغتة وهو يجوس خلال حديقته الصغيرة ، فافضى لأخيه بهواجسه ، وأطلعه على خبر هذا المعذب المدنف ..

وما عتّم الاثنان ان قاما بزيارة بونتمرسي متذرعين بحجة السؤال عن امر .. وتتابعت الزيارات بعد ذلك ، حتى اطمأن الكولونيل الى الرجلين الصالحين ، وأفضى للكاهن فيرنون .

وسرعان ما توطدت أواصر الودّ بين الاثنين ولا عجب ، فمتى اتصف قسّ وجندي بالصلاح فلا شيء يتّحد ويندمج مثل اتحاد قلبيهما ، واندماج روحيهما . .

وجميع ما عرفه ماريوس من دنياه ، هو مأواه في بيت جده ، وقاعة الاستقبال في منزل السيدة « دي . ت . » . وكانت هذه الردهة الفسيحة بمثابة المنفذ الوحيد او الكوة التي يشرف منها على الحياة ..

وكان يؤم قاعة الاستقبال هذه شخصيات متباينة مختلفة ، وكان رهط من النساء الجليلات يقصدن تلك القاعة ، وكل منهن تحمل اسماً تاريخياً عريقاً ، وتبدو بسحنة اثرية تليدة ، حتى اختلطت هذه الاسماء في ذهنه بما مرّ عليه من اسماء العهد القديم !

وعندما كنّ يجتمعن في المساء حول موقد انطفأت نيرانه ، واضاء ما حوله مصباح اخضر باهت ، وبدت صفحات وجوههن الرصينة الجامدة التقاطيع ، كان ماريوس الصغير ينظر اليهن بعينين مذعورتين ، وهو يظن انه لا يرى نساء بل بطاركة او كهنة من المجوس ..

لم يمر في التاريخ زمن يماثل تلك الحقبة الواقعة بين ١٨١٤و١٨٢٠ في فرنسا . لقد كانت هذه السنون الست لمحة من لمحات التاريخ الملحوظة ، فهي في آن واحد مشعّة ومظلمة ، مبتسمة وكئيبة ، مشرقة كأن نور الفجر قد نوّرها ، وفي نفس الوقت مطوية في ظلمات تلك الكوارث والنوائب التي ما فتئت تملأ الافق ، مع انها كانت قد درجت في اكفان الماضي !

لقد جاءت الثورة وذهبت ، وجاء نابليون وذهب ، وجاء من بعده لويس الثامن عشر وذهب .. ومع ذلك فتاريخ فرنسا احتفظ ببجدته ..

ففي ذلك الزمان والدنيا تضطرب وتتململ وتحاول ان تطمئن الى قاعدة ، وتركن الى نمط ، كان ماريوس يتلقى دروسه على يد استاذ قدير عهد به جده اليه . وبعد ان قضى الفتى في كنف هذا العالم بضع سنين تحول الى المدرسة ثم الى الجامعة حيث انضم الى من اختار القانون صنعة من اقرانه واترابه . وكان متشرباً بمبادىء الملكية ، متعصباً متشيعاً لرجالها .

*

صادف اتمام ماريوس لدراسته انسحاب جدّه من حياة المجتمع انسحاباً كلياً ، وانزواءه في عقر بيته ، واكتفاءه بمقابلة من يرغب في مقابلتهم بعد تصرم حبل النهار كما قدمنا .

وفي مساء احد ايام عام ١٨٢٧ – وكان ماريوس إبان ذلك قد ناهز الثامنة عشرة من عمره – قال له جده وهو ممسك بورقة صغيرة :

« تأهب يا ماريوس للانطلاق غداً الى مدينة « فيرنون » لرؤية ابيك » .

فارتعش ماريوس .. لقد فكر في كل شيء الا في هذا الشيء – في مقابلة ابيه – فهو لم يخطر له على بال انه سيضطر يوماً الى الاجتماع اليه .. لم يكن هناك من امر بعيد عن مخيلته وتفكيره مثل هذا الاحتمال .

وأتم الجدّ كلامه قائلاً : « ويلوح لي انه يشكو العلة ، وما عليك والحالة هذه الا ركوب متن السفر مع الضحى » .

ووصل ماريوس في أصيل اليوم إلى فيرنون ، فاستفسر عن مسكن ابيه ، وألمّ به والشمس في الطفل . فقرع الباب وانتظر الجواب . وفتحت له امرأة شمطاء تحمل في يدها مصباحاً تخفق ذؤابته باستمرار .

فحياها الفتى وقال : « لمن البيت يا هذه ؟ أهو للسيد بونتمرسي ان صدق حدسي ؟ » .

ولما لم تجبه المرأة ، اعاد الكرة قائلاً : « أهذه داره ؟ أهذا منزله ؟ » .

فهزت المرأة رأسها والكمد يلوح في اسارير وجهها .

واستتلى بصوت متهدج « وهل يتسنى لي محادثته ؟ » .

فهزت المرأة رأسها ثانية .

فقال : « بيد اني ابنه ، وقد دعاني وهو ينتظرني » .

عندئذٍ اجابته المرأة وصوتها يتلعثم : « انه لا ينتظرك ! » .

ولاحظ ماريوس ان المرأة تسبل الدمع ، فخطا داخلاً ، ودلف الى حجرة تضيئها شمعة موضوعة على طنف المدفأة ، أبصر على نورها الباهت الضئيل ثلاثة رجال ، احدهم واقفاً ، والثاني جاثياً على ركبتيه ، والثالث عاري الصدر منبطحاً على الأرض .

وكان هذا المتهالك هو الكولونيل والد ماريوس.. اما الرجلان الاولان فهما الطبيب والقسّ .

وكان الكولونيل قـــد اصيب قبل ثلاثة ايام بوعكة شديدة ألهبت رأسه بالحمى ، وحثته على تسطير كتاب الى السيد « جيلينورمان » ينبئه فيه انـه مريض مشف ، ويود ان يرى ابنه ..

واشتدت عليه العلة عقب ذلك فاخذ يهذي ، ثم دخـــل في بحران اشبه ببحران الموت ، وما لبث ان قفز في ساعة تفاقمت فيها حالته من السرير وهو يصيح بصوت مبحوح :

« اواه ! لِمَ لم يأت ابني ؟ سأذهب اليه ! » .

وغادر مخدعه ، واندفع صوب السلم ، فوقع وتدحرج ، وانحطّ بعنف الى

حضيض الردهة الخارجية في الطباق الاول حيث رآه ابنه ..

وفي اللحظة التي دخل فيها الشاب اسلم الأب الروح ، وكانوا قبل ان ينقطع نفسه قد ارسلوا يستدعون الطبيب والقسّ فهرع الاثنان قادمين ، ولكنهما وصلا متأخرين ، كما وصل ماريوس بعد فوات الأوان .

ونظر ماريوس الى الرجل الذي رآه لاول مرة ولآخر مرة - نظر الى هذا الوجه الوقور الذي ينم عن الشهامة - ونظر الى هاتين العينين المفتوحتين اللتين خبت الحياة منهما ، والى هذا الشعر الأبيض ، والى هذه التقاطيع التي تحمل آثار جرح قديم وفكر الفتى بكل هذا ، فكر بأبيه ، ونظر الى ابيه - انه ميت .. ميت .. ولكن ، ما باله لا يشعر بالحزن ؟ أجل ما باله لا يشعر الا كما يشعر كل إنسان ساعة يقع بصره على رجل عدت عليه عوادي الزمان ؟ !

اما الخادمة فقد كانت تذرف الدمع الهتون ، واما القسّ فقد استرسل في صلاته ، ولكن زفراته لم تنقطع دقيقة ، وأما الطبيب فقد عمد الى منديله يزيل به العرق المتفصد من جبينه ، ويجفف الدموع الواكفة من مآقيه .. وأما الجثة ، أما الجثة فقد كانت تنتحب كما لا ينتحب حيّ !

لم يترك الكولونيل وراءه شيئاً يؤبه له ، والمال الذي خلفه لم يف بنفقات جنازته ودفنه . وعثرت الخادمة على رقعة كتبها الكولونيل قبل موته ووجهها الى ابنه . وقد جاء فيها :

« الى ابني - منحني الامبراطور لقب بارون في ساحة الوغى في واقعة واترلو ، ولابني ملء الحق في حمل هذا اللقب ، فهو له لانني حصلت عليه بدمي ، ولا جرم ان ابني سيكون جديراً به ! » .

وخطّ الكولونيل على ظهر الرقعة جملة أخرى هذا نصها :

« في المعركة هذه - معركة واترلو - انقذ جاويش في الجيش حياتي ،

اسم هذا الجاويش « تينارديي » واظن انه يدير نزلاً متواضعاً في قرية صغيرة تقع في ضواحي باريس ، تدعى « مونتفرمي » . فاذا جمع الدهر بينه وبين ولدي فعليه ان يكرمه ويسدي اليه ما وسعه من عون ومساعدة » .

فاحتفظ ماريوس بالورقة ، وما احتفظ بها انسياقاً وراء شعوره بالواجب تجاه إرادة ابيه الراحل ، بـــل لأن حافزاً مبهماً غامضاً كان يحضه على احترام الموت وتنفيذ مشيئة الموتى » .

★

إحتفظ ماريوس الشيخ بعادته الدينية التي راضته عليها خالته منذ نعومة اظفاره . واتفق بعـــد زوال والده ، ان قصد في يوم احد كنيسة « القديس سلبيس » ولاذ بمكان يقع خلف احـــد الاعمدة فجثا وراء كرسي كتب عليه « الاب مابوف » ، وقبل ان يشرع العابد في اجراء الطقوس الدينية ، دنا منه شيخ متلفع بمسوح الرهبان وقال هامساً : « ايها السيد ، هذا هو المكان الاثير لدي اخترته لذكرى عزيزة عليّ ، واني لأرجو منك ان تنزل لي عنه ! » .

فانتقل ماريوس الى المقعد المجاور واستمر يصلي بخشوع ومهابة . حتى اذا ما ختم العابـــد صلاته وتحفز المصلون للذهاب ، تنحنح الشيخ وقال بصوت خفيض : « المعذرة يا سيدي على ما سببته لك من انزعاج منذ هنيهة ، وعلى معاودة الكرة بأسماعك كلاماً أروم من صميم قلبي ان ابثه لك .

« واكره ما اكرهه ان تظن بي القحة وصفاقة الوجه ، فانا ما طلبت إليك التخلي عن هذا المقعد الا لأسباب تمت الى الذكرى بسبب – ذكرى انسان لا كسائر الناس – بل انسان تربطني به صلة روحيـــة وواشجة لا يفصمها حلول الموت .

« وسأخبرك الآن بما جرى لي مع هذا الانسان : فمنذ عشر سنين ثابر رجل غريب على المجيء الى هذا المحراب بين الوقت والوقت ، وكان هذا الرجل أباً

مسكيناً عاثر الجد – اباً شجاعاً حيل بينه وبين ابنه ، فلم يجد وسيلة يسكن بها حرّ شوقه الا باستراق نفسه الى هذه الكنيسة ، والتلصص بخطوات الخائف المستريب .. وما درى الصغير يومذاك ان اباه يأتي لمشاهدته ، ولعله لم يدر ان له اباً يحبه ويتوق الى رؤيته .

« وكان الأب يلوذ بهذا المقعد تجنباً لعيون الناس ومراقبتهم واتقاء لغضبة الخالة العانس إن وقع عليه طرفها .

« وتعرفت على الرجل ، وكان والد امرأته شيخاً في ارذل العمر ، وكانت خالة الطفل عانساً ثرية . وقـــد هدد الاثنان الأب الملهوف بحرمان ابنه من الارث، ان سولت له نفسه رؤيته والاجتماع اليه :.. فامتثل الأب صوناً لمستقبل طفله ، وسحق ذلك الامتناع قلبه وأودى بسعادته ..

« لقد فرقت بين الرجلين – الشيخ وزوج ابنتـــه . الفوارق السياسية ، فتعصب الشيخ لرأيه ، وأسرف في تزمته ، فنبـــذ زوج ابنته ، واقصاه عن حظيرته ، وحال بينه وبين وحيده .

« وكان هذا الخاثر قد اشترك في معركة واترلو فحقت عليه النقمة ، وحق عليه العقاب .. واي عقاب فرض عليه ؟ اي عقاب ؟!

« ومات المحروم المعذب منذ زمن يسير ، وكان يقطن مدينة « فيرنون » حيث يعمل اخي راعياً للكنيسة ، واسمه كما اذكر بونتمرسي ! .. » .

فاقشعر جلد ماريوس وقال بشرود : « بونتمرسي ! .. » .

قال : « اجل .. ألك به سابق معرفة ؟ » .

قال : « إنه والدي ! » .

فضم القس العجوز يديه الى بعضها البعض ، ثم رفع الى الشاب طرفه وقال : « أواه ! لقد كان لك اب محب .. » .

قال : « ولم اكن اعرف ذلك » .

قال : « لا تأس يا ولدي على ما ذهب ولـــو انه لا يعوض بذهب .. لقد مات والدك ، ولكنه في الحقيقة رقـد رقدة الراحـة وهجع هجعة الهناء بعد العناء ! ».

فمدّ ماريوس يده اليه وصافحه ثم رافقه الى صومعته .

في اليوم التالي خلا بجده وانهى اليه انه منطلق الى نزهة صيد .

فاين ذهب ماريوس ؟ وماذا اتى من الافعال ؟

●

لقد قلبت قصة الشيخ الراهب آراءه في ابيه رأساً على عقب ، فترمض على نار الندامة ، وعنف نفسه على اساء الظن بهذا الاب الذي اغلب الظن انه هام على وجهه ، وانطلق يبحث ويستقصي ..

وماذا رأى ؟ وماذا عرف ؟

فأين ذهب ماريوس ، وماذا فعل ؟ !

٦

نهض الفتى المترعرع « ماريوس » لمكان مجهول ، وقد سطع أمام عينيه نور الحقيقة ، وتبلج لناظريه بعض ما خفي من أمر ابيه . فلمـا قضى لبانته قفل راجعاً بعد ثلاثة ايام ، وقصد لتوّه معهـد القانون وجعل يقرأ تاريخ الثورة والامبراطورية .. وطالعه اسم ابيه لأول مرة في نشرات الجيش التي راجع محتوياتها بتمعن .

وأخذ ، وقد فرغ من هذه الأمور ، يتتبع حياة والده في عزلته الأخيرة في « فيرنون » وأدرك عقب ذلك ما تحلى به والده من شمائل النبل والشرف .

فقد تراءى له أبوه ، يوم بـدأ بحثه ، وديعاً رقيقاً دمثاً ، ثم رآه أسداً محصوراً في جلد حمل .

وقلما اجتمع الى جدّه وخالته في تلك الاثناء . وعندما كانت الخالة تشكو امرها لوالدها وتتذمر من انصراف ماريوس عنها ، كان الجد يبتسم بسمة ذات معنى ويجيبها بقوله : « السن .. السن .. » .

وما صرف ماريوس في الواقع عن جده وخالته سوى العاطفة .. فقد أخذ يروض نفسه على محبة ابيه .

وفي الوقت نفسه تبدلت آراؤه تبدلاً مدهشاً. كانت ميوله في البدء موزعة بين الجمهورية والامبراطوريـة .. فلما قضى أبوه ، ونبش الماضي مـن حياته ،

رأى في الوطن الذي كان ينتظر ان يجد الفوضى والظلام ، نجوماً براقة خفاقة.. رأى ميرابـو .. روبسبير .. دانتون .. وأبصر في ذلك الصعيد شمساً تصعّد عالية مشرقة ، وتتكبد السماء فتتوسط هذه النجوم .

رأى نابليون ...

ما عتمّ ان اكب على مراجعـــه يدرس أخلاق اولئك الرجال وتراءت له الثورة والامبراطورية كأحلى ما يتراءى خيال أو يلمّ بالمرء طيف ..

وتكونت في ذهنه فكرة، وأيقن انه لم يفهم وطنه بمقدار جهله لحقيقة ابيه، وانه لم يعرف هذا ولم يعرف ذاك .. اما الآن فقد عاد اليـه نظره قوياً ثاقباً ، فطفق يرى ويبصر ، وطفق يحب ويكبر .. وبالتالي طفق يعبد !

واجتاحته موجة من اليأس . لمن يستطيع ان يفضي بما يتنازع مشاعره ؟ ألقبر ؟ ألأبيه الذي طواه القبر ؟

وبكى قلب ماريوس ، وتغلغلت فيه موجة عارمـــة من حزن كئيب ، واظلمت نفسه ، فغدا لا تعرف البسمة الى ثغره منفذاً ، ولا العبوس من بين شفتيه مخرجاً ، ولا الانطلاق الى جبينه المقطب مدخلاً ..

وما انفك اثناء ذلك يتأمل فيما مرّ به وخبره ، ويرى بين الوقت والآخر ما يزيد اعتقاده رسوخاً بأبيه ووطنه وبني جلدته .

رأى ، وكأن عينيه تفتحتا من جديد ، ما غاب عن بصره وبصيرته .. رأى المعنى الرائع للأمور العظيمة التي لقن من قبـــل ان يكرهها ويشنأها . ورأى الرجال المخلدين الذين درّب على شتمهم وتنقصهم ..

وتسرب هذا الاكبار لشخص ابيه الى شخص نابليون الذي خدمه ابوه ، فايقن انه خليق بكل حب كأبيه .

وفي ليلة انفرد فيها بنفسه في حجرته الصغيرة القائمة فوق السطح ، جلس

ازاء النافذة المفتحة المصاريع وطفق يقرأ نشرات الجيش التي اذيعت في ميدان القتال . فطالعه اسم ابيه من خلال الصفحات التي قرأ ، وبرز له في كل سطر اسم نابليون ، ورأى بغتة الامبراطورية العظيمة مجسمة تلقاء ناظريه في اطار موحد مجسم .. وشعر بتيار هائل يتكون ويتجمع في داخله ، وخيل اليه ان اباه يطوف به كنسمة من ريح ويهمس في اذنه بكلمات عذبة ..

واستولى عليه الذهول ، فتراءى له انه يسمع صوت الطبول تقرع بشدة ، وان الصوت يتضخم حتى يغدو كالرعد القاصف ، وكأنه قذف القنابل .. وانقلب المشهد ، فأبصر الفرسان ممتطية صهوات الجياد ، والمشاة في جموعهم المتراصة تشقّ طريقها نحو العدو ..

ومع انه اطرح كل محبة لآل بوربون ، ولعن الارستقراطية العابثة بعد ان كان يحب الاولين ويقدس الآخرين ، وغدا ثورياً ديمقراطياً يعجب كل الاعجاب بنابليون معيد مجد الامة ، وينادي بالجمهورية . الا ان ذلك لم يمنعه من الذهاب الى خطاط شهير ومطالبته بتدبيج مئة بطاقة تحمل اسمه ولقبه .. وقـد كتب الخطاط على البطاقات : « البارون ماريوس بونتمرسي » .

كان « لجيلينورمان » الشيخ شقيق توفاه الله عن ابن ، وهـذا الابن انجب غلاماً دعاه باسم « تيودول » .

وتيودول اضحى شاباً يملأ الشباب اعطافه ولا يعرف عن قريبه ماريوس الا ما سمعه من اخباره .

وقد انخرط في سلك الجندية برتبة ملازم وعاش بعيداً عن ذويه ، وحاز من صفات الجندية اكثرها .. فهو لاعب سيف ماهر ، وهو ممشوق القوام متين التركيب ، يتصف بالخصر الدقيق ، والشاربين المعقوفين !

ولم يشخص هـذا الفتى الى باريس الا لماماً ، وبطبيعـة الحال لم تكن له بماريوس معرفة . ومع انه كان يسلم أحياناً بمنزل الشيخ ويقضي فيه بعض الوقت ، الا انه لم يصدف ماريوس او يجتمع اليه .

وفي صباح احد الأيام رجعت خالة ماريوس الى حجرتها منفعلة مهتاجة ، تتساءل عن السر في تمادي ماريوس في التغيب عن المنزل .. فقد طلب الشاب مرة اخرى من جده ان يسمح له بالتغيب عن المنزل في مساء ذلك اليوم .

وبينا هي موغلة في التفكير في ذلك الصباح ، اذ بالباب يفتح ، وبالملازم الشاب يدخل مندفعاً الى الحجرة .. فأشرق وجهها وندّت عن صدرها آهة فرح واستبشار ، ثم رفعت رأسها الأشيب ، فقبلهـا في عنقها ودغدغهـا من خصرها !

وهتفت المرأة وهي تقبض على يده : « على الرحب يا تيودول ، ما اسعدني برؤياك ! وهل تزمع المكث معنا طويلا ؟ » .

قال : « كلا يا خالة ، فانا مبارح باريس الليلة » .

« ماذا تقول ؟ هذا محال ! » .

« بل هو الواقع المرير ! » .

وهل تقطع الفيافي على صهوة جواد ؟ » .

فأجاب : « كلا بل في عربة .. وبهذه المناسبة ، لدي سؤال أود أن اطرحه عليك : إن ماريوس مسافر ايضاً فالى اين يا ترى ؟ » .

فشدهت الخالة وقالت : « وكيف عرفت انه مسافر ؟ » .

قال : « اتفق لدى وصولي ان قصدت صاحب عربات لأضمن مكاناً لي ، فتقابلت وجهاً لوجه مع شاب جاء لنفس الغاية وقرأت اسمه في دفتر الرجل ، وعلمت انه قريبي ماريوس » .

« تبا له ! أواه ! ان ابن عمك ضال متهور .. وهل عرفك كما عرفته ؟ » .

« كلا » .

« أعرني سمعك يا تيودول .. انا في ريبة من أمر هذا الفتى ، فهو يكثر من التغيب ، وبودي لو اطلعت على سره » .

« سمعاً وطاعة يا خالتي ، ولو اني اكره القيام بمهمة جاسوس » .

وفي المساء غادرت العربة باريس فوصلت فيرنون مع الضحى ..

وفتح تيودول عينيه فشاهد ماريوس يبتاع باقة من أجود أنواع الزهر ، فنزل من العربة واقتفى اثره .

ومشى ماريوس والضابط اتبع له من ظله . ورآه بعد قليل يضع الباقة على رخامة قبر ويجثو فيدفن وجهه في راحتيه ويستغرق في الصلاة .

ولما ألقى تيودول نظرة على بلاطة القبر استطاع ان يتبين الاحرف السوداء المحفورة فيها ، وان يقرأها . وشده شداهاً عظيماً فقد حفر على القبر — هنا يرقد الكولولونيل البارون بونتمرسي .

وتناهى اليه نشيج خافت ، ورأى ابن عمه مستسلماً للاسى .. فداخلته الرهبة وقال هامساً : « محبوبته لحد » .

وتولى العجب الفتى تيودول ، فرجع دون ان يشعر ماريوس بوجوده .

وقد التبس عليه الامر فلم يدر ما يكتبه للخالة .

وقفل ماريوس راجعاً الى باريس فوصلها في صباح اليوم الثالث . واتجه فور وصوله الى مخدعه فنضا ملابسه عنه ، وألقى بالقلادة التي يضعها حول عنقه على المائدة ، وسارع الى الحمام ليغتسل .

وتشاء الصدف ان يبكر جده بالنهوض في ذلك النهار شأنه في ذلك شأن امثاله الشيوخ الاصحاء ، فسمع بمجيء حفيده واتجه الى حجرته ، فلم يلقه فيها بل وجد سترته الملقاة على الفراش ، كما وجد القلادة ، فتناولها وتأمل فيها ثم حملها وهرول الى غرفة ابنته .

وما كاد يدخل حتى صاح بلهجة الظافر : « ها هو السر الدفين الذي يخفيه عنا ، وها هي السترة ، وها هي القلادة .. » .

وفتح القلب المعدني الصغير الذي يتصل بحلقات القلادة ، فألفى فيه ورقة صغيرة ما كاد ينظر فيها ويطلع على محتوياتها ، حتى احتدم غيظه وصاح : « ألا تباً له ! تباً لأبيه ! » .

ووقعت في تلك الدقيقة علبة صغيرة من جيب السترة ، فتناولتها ابنته وفتحتها ، فاذا فيها عدد كبير من البطاقات تحمل اسم البارون ماريوس بونتمرسي !

فضرب الشيخ كفاً بكف ، وقرع الجرس بشدة وعنف . فلما جاء الخادم يهرع ، طوح بالقلادة والبطاقات الى الارض وهو يزمجر هادراً ويقول : « خذها ، خذ هذه التوافه من هنا ، اسرع ويحك ! » .

ومضت ساعة والصمت يسود الاثنين ، والوجوم يخيم عليهما .

وجاء ماريوس أخيراً ، ولكنه جُوبه بسخط جده وغضبه قبل ان يلج الغرفة ، فوقف منذعراً متحسباً وهو ينظر الى البطاقة التي امسك بها جده .. وما عتم الرجل الحانق ان قال بصوت اجش : « قف ، قف مكانك .. انت الآن بارون ، وخليق بي ان اقدم لك فروض الاحترام .. فما معنى هذا ؟ قل ! » .

فاجاب ماريوس : « معناه أني ابن ابي ! » .

قال : « ابوك ! من ابوك . اخرج اذهب . لا اريد ان اراك .

وغادر ماريوس المنزل . امر الشيخ ابنته في اليوم التالي ان تخصص للفتى معاشاً شهرياً مقداره ستمئة فرنك .

★

في ذلك الزمان لحق بالناس جيشان أشبه بالشعور الذي تتمخض عنه

الثورة ؛ فساد الهمس ، وتشبع الجو برائحة الاحداث التي وقعت في عامي ١٧٨٩ و ١٧٩٢ .

واختلط الحابل بالنابل ، وعمّت الفوضى ، وتلاقت الآراء المتضادة في صعيد واحد ، واندمج النقيضان ، وامتزج المتعاكسان ، وتعشق الناس نابليون ، وفي الوقت ذاته تشبثوا بالحرية ..

لم تعرف في فرنسا حتى ذلك التاريخ جمعيات سرية منظمة تعمل في الخفاء بيد ان هذا الاضطراب الذي تحكم بالحياة اسفر عن ظهور جماعات أطلقت على نفسها مختلف الأسماء ، كجماعة « اصدقاء السوقة » ..

فما هي جماعة اصدقاء السوقة ؟ ومن هم اعضاؤها ؟ انها جماعة انضوت تحت هذا الاسم هدفها كما زعمت هو تعليم الاطفال ، مع ان هدفها الأول كان في الحقيقة السمو بالرجال .

واعلنوا انهم اصدقاء السوقة ، او الدهماء ، او الطغام ، او الحثالة – سمهم ما شئت .

ولم يكن عددهم كبيراً ، وكانوا يجتمعون في موضعين اثنين – في حانة تدعى « كورينث » وفي مقهى يدعى «موسين» . ويقع الاول في مكان يتكاثر فيه العمال والرجال ، والثاني يقع في مكان يسوده ضجيج الطلاب !

وأكثر اعضاء هذه الجمعية كانوا من فئات الطلبة ، كما اندمج فيها عدد من العمال . اما الاشخاص البارزون فيها والذين يخلق بالتاريخ ان يسجل اسماءهم فهم : انجولرا وكومبيفي وجـــان بروفي وفويلي وكورفيراك وباهوري ولبيغل وجولي وغراتي .

وهؤلاء الشباب ألفوا فيما بينهم – رابطة اشبه برابطة الاسرة الواحدة بحكم الصداقة التي وشجت اواصرهـــا بينهم . وكانوا جميعاً مـــن الجنوب باستثناء « لبيغل » .

ويخلق بنا في هذا المجال ان نلقي بعض الضوء على هذه الرؤوس قبل ان يراها القارىء تغوص في لجة النهاية المؤلمة وتختفي في ظلال المجهول .

« فانجولرا » ابن ثري أمثل ، له من دماثته ما قل نظيره وله من قدرتـه على تحويل دعته الى بركان ثائر ما يندر وجوده. كان بهي الطلعة رائع التقاطيع مشرق البسمة ، الا انه كان مجبولاً على القوة والعناد ، بل قل إنه خلق جندياً من جنود الجمهورية .

ويجيء بعد « انجولرا » الذي كان يمثل منطق الثورة ، « كومبيفي » الذي كان يمثل فلسفتها ، وبين منطق الثورة وفلسفتها فارق واحد . وهذا الفارق هو ان المنطق قد يعقب الحرب او يحبذ الحرب كنهاية ، وان الفلسفة تعقب السلام او تبشر بنيل الآراب عن طريقها ..

اما «جان بروفي» فقد وقف نفسه على الحب – الحب بكل ما في الكلمة من معنى – فهو يرعى الزهرة ، ويعزف على الناي ، وينظم الشعر ، ويحب الناس، ويرثي النساء ، ويبكي الطفولة ، ويخلط بين المستقبل والله ، وينتقـد الثورة لاقدامها على فصل رأس نبيل لم يستأهل الموت ..

فاذا عرجنا على « فويلي » وتتبعنا مسلكه ، ألفيناه عاملاً معوزاً يصنع المراوح، ويكد النهار بطوله ليحصل على ثلاثة من الفرنكات . ولم يكن يفكر الا بشيء واحد – انقاذ الكون – ولكنه كان عرضة لرغبة اخرى تداعب مخيلته وتهدهد صدره – هي تثقيف نفسه – وقد علم نفسه القراءة والكتابة ، وعلم نفسه ايضاً ان يستعيض عن امه المتوفاة بحنان امه التي لا تموت – الوطن .

اما « كورفيراك » فقد كان شاباً جريئاً ، حتى ان ترتيبه في الجماعة جاء الثالث بعد انجولرا وكومبيفي . وقد انبعث من هذين نور باهر ، وانبثق من هذا حرارة ودفء .. فهو بمكان القلب من الجماعة ، وهو بهذا العضو الحساس النابض جدير أن يوصف !

واتضحت خطورة « باهوري » في الاشتباكات التي نشبت في حزيران سنة ١٨٢٢ اثناء الاحتفال بتشييع جثمان احدى الضحايا من الشباب .

وباهوري فكه مرح ذو دعابة ، يعاشر الحسن ولا يتورع عن معاشرة الرديء ، بل يؤثر هذا على ذاك .. وكان مبذراً ينفق بلا حساب ، وشجاعاً مقداماً متطرفاً في الرأي . وقد امضى باهوري احد عشر عاماً في معهد الحقوق ولسان حاله يقول — التلمذة دائماً والمحاماة حلم ليلة .

ويجيء بعده « ليبغل » او النسر ، وكان زملاؤه ينادونه « بوسي » . وقد اتصف بروحـــه المرحة وثغره المفتر دوماً عن ابتسامة رضية قانعة ، وان كان الحظ يتجنبه وكأنه يخافه ويرهبه ..

كان أسوة « بباهوري » يتعثر في معهد الحقوق ، وكأنه لا يود ان يتقدم خطوة إلا ليتأخر خطوة .. ولم يكن له مسكن معين ، بل عاش مع خلانه فقضى ردحاً مع هذا وردحاً مـــع ذاك .. وقضى اكثر لياليه مع «جولي » وكان جولي إبان ذلك يتلقى الطب ، وهو يصغر بوسي بسنتين .

وما تعلم جولي من فن الطب اكثر من ان يكون هو المريض المقاسي لا الطبيب المؤاسي الذي يطبب العليل ويداوي السقيم . فعندما ناهز الثالثة بعد العشرين أدخل في روعه أنه سقيم يشكو الوصب ، وقضى جلّ اوقاته وهو ينظر الى لسانه في المرآة ! وقد جاهر بأن الرجل جاذب مغنطيسي كالأبرة ، ولهذا عمد الى وضع سريره بشكل يجعل رأسه يتجه الى الجنوب وقدميه الى الشمال ، حتى لا تتعارض الدورة الدموية مع الجاذب المغنطيسي أثناء الليل ، أو حتى لا يعرقل دورته الدموية تيار الكرة الارضية المغنط !

كانوا جميعاً الأولاد الشرعيين للثورة ، وقد تدفقت في اوعيتهم دماء المبادىء النقية ، وكرسوا أنفسهم للحق والواجب ، وصمموا على أن يكونوا القدوة في لاستشهاد والفداء .

والعجب العجيب ان يندمج في هذه العصبة الثابتة على مبدئها التي لا تداخل مخيلة افرادها أية نزعة من نزع الشك ، شاب يختلف كل الاختلاف عن الجميع — شاب هو النقيض المجسم — يشكك في كل شيء ، ويرتاب بالحق كما يرتاب بالباطل ، ولا يصدق ما يقال مهما كان نصيب ما يقال من الصدق وافراً . عاش في باريس وتلقى العلم في باريس ، فألمّ بمداخلها ومخارجها ، ومطارح لهوهـا وعبثها ، ومطاعمها وأنديتها وحاناتها . وكان في منتهى درجات القبح ، يعاف القبح بشاعته ، وتنفر الدمامة من دمامته .. إلا انه كان يرنو الى النساء بنظرة حالمة وكأنه يقول لهن — لو استطعت ! ويحاول دائماً ان يقنع اصدقاءه بأنه محبوب مطلوب مرغوب فيه .

ومع ذلك فقد كان هذا العابث القبيح الشكل يؤمن إيماناً راسخاً بشخص واحد .. كان يتعصب لهذا الشخص ، ويستعد في كل حين إلى بذل روحه ومهجته في سبيله .. وكان هذا الشخص هو « انجولرا » .

على ان « انجولرا » كان يحتقر غرانتي هذا ويزدريه وان كان يرثي له ويشفق عليه وكان يعامله معاملة صارمة قاسية قلما كانت تؤثر في شعوره نحوه .. فهو دائماً يقول : « ما اروعك يا « انجولرا » .. ما اقدرك .. ما ابرع المثال الذي صنعك ! » .

●

في عصر احد الايام كان « ليبغل » يعتمد بمرفقه على باب مقهى « موسين » وهو يفكر بما جرى له في اليوم السابق في معهد الحقوق ، عندما مرت به عجلة يجرها جواد . واسترعت العجلة انتباهه ، وعجب من تلكئها وتباطئها ، وكأن مستقلها لا يعلم الى اين يذهب . وشاهد في داخلها حقيبة كتب على جانبها : « ماريوس بونتمرسي » . فاعتدل في وقفته وهتف بصوت جهوري : « ايها السيد ماريوس ! » .

وتوقفت العربة ، ورفع الراكب رأسه مستطلعاً واجاب : « وماذا يريد السيد الكريم ؟ » .

« اوَلست انت ماريوس بونتمرسي ؟ » .

« انا هو دون ريب ! » .

« كنت ابحث عنك » .

« عجباً ! وهل ثمة سابق معرفة تشجني بك؟ » .

« لا .. بيد انك تغيبت البارحة عن المدرسة » .

« لم اتغيب ! » .

« بلى تغيبت ؟ ونادى عليك ذلك الملعون « بلوندو » فلم اتمالك من الرد عليه بقولي : موجود !

« وهكذا نجوت انت من الطرد ، ولكن لم انج انا ! » .

لقد انتهى كل شيء ، وطردت ، ولكني لا اشعر بالندامة فقد تمّ لي ما اردت ولن اصبح يوماً محامياً اضطر الى الدفاع عن الارملة ، ومهاجمة اليتيم .. والفضل في هذا يعود اليك ، ولا مندوحة لي عن زيارتك ، فاين تقطن ؟ » :

« هذه العربة ! » .

« هنيئاً لك البيت المتنقل ! » .

وخرج « كورفيراك » من المقهى في تلك اللحظة .

وابتسم ماريوس بامتعاض وقال : « قضيت ساعتين وأنا أهيم على وجهي ، وارجو ان انتهي من هذه الحيرة .. فماذا اصنع ؟ والى اين اذهب وليس لي بيت يؤاويني ؟ » .

فقال كورفيراك : « ايها السيد .. ايها السيد .. تعال معي الى منزلي ، ففيه متسع لي ولك » .

ونام ماريوس في تلك الليلة مع كورفيراك في الفندق !

أضحى ماريوس في ايام قليلة صديقاً حميماً لكورفيراك . وقد صحبه الى مقهى موسين وهمس في أذنه مداعباً : « يتوجب عليّ ان افسح لك المجال للدخول من باب الثورة ! » .

ثم قادهُ الى حجرة اصدقاء وقدمه الى اعضاء الجماعة وهـو يقول : « تلميذ جديد ! » .

لم يفهم ماريوش مـــا رمى اليه بقوله – تلميذ جديد – كما انه أحس باضطراب لا عهد له بمثلـــه يستحوذ على فكره ، ويتنازع آراءه ، ويتوزع مبادئه ، ويقض مضجعه !

★

وتوالت الاجتماعات التي اشترك فيها ماريوس ، وانتابه الذهول من جراء ما سمع . فقد ورد ذكر واترلو صدفة ، فأرهف ماريوس السمع ، وأصاخ لما يقال . وتناهت اليه الكلمة مصحوبة بصفة الجريمة ، فانتصب واقفاً واستدار الى خريطة فرنسا ، فوضع اصبعه على خريطة كورسيكا وقال :

« كورسيكا .. تلك الجزيرة الصغيرة التي أضفت على فرنسا كل هـــذه العظمة .. » .

وران الصمت على الجميع ، وقد شعروا ان شيئاً ما يجب ان يقال .

واجابه انجولرا أخيراً : « لا يعوز فرنسا جزيرة كورسيكا لكي تبلغ هذه المكانة السامية . ففرنسا عظيمة لأنها فرنسا » .

ولم يطق ماريوس صبراً ، فاستدار نحو انجولرا وقال : « حاشا ان اجحف بحق فرنسا ! ولكننا لا ننقصها ان دمجنـــا عظمتها بنابليون .. ولنتكلم ، لنتكلم ، فقد افعمتم قلبي شداها .. فاين نحن ؟ ومن نحن ؟ من انت ؟ من

انا ؟ انتم جميعاً تسخرون من بونابرت كما يفعـــل جدي .. فأين حماسكم ؟ وبمن تعجبون؟ ومن من الرجال تحبون ؟

وصمت ماريوس ، واخلد معه الجميع الى الصمت . واحنى انجولرا هامته . واتم ماريوس قائلاً :

« ايها الاصدقاء ، توخوا العدل وانصفوا الرجل العظيم ، فماذا نريد اكثر من المجد الذي اتاحه لنا نابليون ، ماذا نريد ؟

وقال كومبيفي بهدوء : « الحرية .. » .

لم يتبادر الى ذهن ماريوس ما يلزم له من نفقات الا عندما طرق بابه في صباح احد الايام صاحب الفندق وخاطبـــه قائلاً : « ان كورفيراك مسؤول عنك ، ولكني محتاج الى المال » .

فقال ماريوس بشرود : « قل لكورفيراك ان يأتي الي » .

وجاء كورفيراك ، وغادرهما الرجل .

واطلعه ماريوس على جلية الأمر ، وأفهمه انه صفر من المال لا يملك من دنياه إلا خمسة عشر فرنكاً .

فقال الشاب : « وهل لديك فضلة من ثياب ؟ »

قال : « ما تراه بعينيك » .

« وأي حليّ ؟ » .

« هذه الساعة » .

«اني اعرف عميلاً يشتري منك سروالاً من سراويلك وسترة من سترتيك.. واعرف تاجراً يشتري ساعتك الذهبية ! » .

وبعث كورفيراك في طلب العميل والتاجر ، وباعهما امتعة ماريوس . ولما

نقدا صاحب الفندق حاجته من المال لم يبق مع ماريوس سوى عشرة فرنكات .

ودرت الخالة العانس بمكان إقامته فارسلت اليه المال الذي امرها والدها الشيخ ان ترسله في نهاية كل شهر ، ولكن ماريوس ردّه اليها مرفقاً بخطاب رقيق زعم فيه انه ميسور الحال يعمل ويكسب ولا يعوزه المزيد ! وغادر ماريوس الفندق حتى لا يضطر الى الاستدانة .

والشقاء ككل شيء آخر يصبح مع الوقت محتملاً ، فالأمر ينتهي بـه الى اتخاذ شكل وهيئة ، ويتطور المرء بطريقة بائسة ويتكيف حتى يصبح قادراً على مداومة الحياة أو الشقاء !

وهكذا ماريوس ، أناخ الفقر عليه بكلكله ، ولكنه خرج من الضيق ، وانفتح السبيل في وجهه رويداً رويداً . وكافح كفاح الابطال حتى تسنى له كسب المال ، واصبح ما يدخله في العام حوالي سبعمئة فرنك ..

واستأجر حجرة صغيرة في منزل الشيخ غوربـو تكاد تكون عارية من الاثاث بايجار سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً . واعطى القيّمة العجوز ثلاثـة فرنكات في الشهر مقابل قيامها بكنس الحجرة وتنظيفها ، وتزويده كل صباح بقليل من الماء الساخن وبيضة ورغيف من الخبز .

وكانت احلامه تدور حول ابيه . ثم ان خيال تيناردي كان يطوّف به في ليال كثيرة ، وان كان لا يعرف شيئاً عنه أو عن شكله وهيئته .. الا انه رسخ في ذهنه ان هذا الرجل قد انقذ اباه .

وبلغ الشاب العشرين من عمره ، وكان قد غادر جده منذ ثلاث سنين . وكان مخطئاً في ظنه ، فجده يكنّ له اعظم الحب ، ولكنه يحبه على طريقته الخاصة - على طريقة الشيوخ .

وانقطع ماريوس عن الذهاب الى وكر اصدقاء السوقـة ، ولم يبق له من

الاصدقاء الذين مـــا فتىء يجتمع اليهم سوى « كورفيراك » الشاب « والأب مابوف » الكهل . ولكن دفة الكهل رجحت في حسابه ، فله الفضل الأول في اطلاعه على سر ابيه ، ولولاه لبقي يعمه في جهالته ، ولبقي يعتنق مبدأه الاول ، ولما أحب أباه ، ولما كرمه بعد وفاته ..

وما لنا لا نتحدث قليلاً عن هذا الرجل الصالح ؟ عن « الأب مابوف » ؟

كان « مابوف » لا يقيم وزناً للآراء والمباديء السياسية ، فهو لا يعنى بها ، وهو يوافق عليها جميعاً ويحبذها جميعاً متى ظلّ في منأى عنها ، وظلت هي بعيدة عنه .. اما مبدؤه السياسي الذي يدين به ، فهو شغفه بالازهار ، واكثر من ذلك تعلقه بالكتب والأسفار ..

وكان يعيش في صومعته بمفرده ، لا يؤنس وحدته إلا امرأة عجوز تقوم على خدمته وإلا كتبه وأزهاره وثماره . وقـــد وضع كتاباً ذاع صيته بين الناس وضمنه كثيراً من الرسوم الملونة ، وعاد عليه الكتاب بألفي فرنك في السنة ، وهذا كل ما كان يدخله من مال . ولكنه تمكن بحسن تدبيره من الظفر بمكتبة نادرة المثال . فهو يخرج من صومعته بكتاب ويرجع بكتابين ، واكره شيء عليه كان رؤية سيف مسلول أو بندقية أو مدفع .

ومال الى ماريوس وقربه اليه ، لأن ماريوس كان يافعاً ورقيقاً ، ولأن الشباب والرقة تدفئان الانسان في شيخوخته ، فلهما من التأثير على الشيخ ما لأشعة الشمس في الريح الراكدة .

مات شقيقه العابد في سنة ١٨٣٠ فأظلمت حياته ، وشعر بالضيق والحرج . وتبع ذلك تعرضه لخسارة جميع ثروتـــه وثروة اخيه البالغة عشرة آلاف فرنك . واشتد عسره ابان الثورة التي اشتعلت في تموز ، فقد كفّ الناس عن كتابه ، فاضطر الى مغادرة صومعته الجميلة بعد أن باع بعض مخطوطاته ، نازحاً الى قرية « أوسترلتز » القريبة حيث اشترى بيتاً من ثلاث غرف بمبلغ زهيد وقطنه مع خادمته وقطتها ..

وأحب ماريوس هذا الشيخ ، وعطف عليه الشيخ حتى فني فيه . ولكنهما مع ذلك لم يلتقيا إلا لماماً ، فالفتى منكب على عمله بلذة وشغف ، يقضي جلّ وقته في حجرتـــه الضيقة في منزل « الشيخ غوربو » ولا يجتمع الا الى صاحبه « كورفيراك » .

وانهت اليه القيّمة ذات يوم أن جيرانـه « اسرة جوندري » سيلقى بهم الى قارعة الطريق . وكان ذلك في اواسط سنة ١٨٣١ .

فتعجب ماريوس وسأل عـــن السبب . ولما علم أنه تقصير الأب عن أداء الايجار البالغ عشرين فرنكاً ، استخرج كل ما معه من مال – وكان معه ثلاثون فرنكاً – فأعطى المرأة عشرين منها ، ثم عاد فأعطاها خمسة فرنكات اخرى وقال : « وهـــذه الفرنكات الخمسة للعائلة الشقية ، وإياك ان تخبري احداً بما صنعت » .

ولم يبق معه من المال إلا خمسة فرنكات !

٧

اصبح ماريوس فتى جميلا يروق القلوب حسنه. وقد لاحظ إبان ادقاعه ما ترميه به الفتيات من نظرات، ولكنه كان ينسب ذلك، الى الاستهجان والرثاء.

وسوء التفاهم هذا بينه وبين الحسان أبعده عن المجتمع وجعله يتهرب من كل صداقة ، ويعيش بلا امل - كالوحش - كما قال كورفيراك !

ومع ذلك فثمة امرأتان لم يكن يشيح وجهه عنهن ، بل كان يعجب ولا يصدق لو قيل له انهما انثيان ! احداهما العجوز القيمة على المنزل ، والاخرى فتاة صغيرة رآها كثيراً ، ولم يلتفت اليها او يشعر بالمهابة التي يشعر بها كلما التقى انثى سواها .

فقد مرت عليه شهور عديدة كان ابانها يبصر الفتاة مع شيخ من الرجال ، كلما اخذ سمته الى « حدائق لكسمبرغ » وتراءى له ان الرجل يناهز الستين ، وكان مطرقاً برأسه دائماً. ومع ان الرقة تبدو بجلاء على اساريره إلا ان منظره لم يكن يشجع المرء على التقرب اليه بالكلام .

كما تكهن بأن الفتاة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها . وكانت دقيقة العود ترجح كفة الدمامة في وجهها على كفة الملاحة ..

فلم ير ماريوس ضيراً في اول الامر من مراقبة الرجـــل والفتاة ، ولكنه سرعان ما أنسي امرهما .

اما هما فلم يبدر منهما ما يدل على انهما أحسا بوجوده ، فهما منهمكان بالحديث دائماً ، لا ينظران الى ما يحيط بهما ولا يحفلان الجماهير التي كانت تغدو وتروح . واسترعى مواظبتها على المجيء انتباه كورفيراك وصحبه ، فما لبث بعد ان قيد لحظه لباس الفتاة الحالك السواد وشعر الشيخ الناصع البياض ، ان اطلق على الفتاة اسم «الآنسة لانوار» اي السوداء، وعلى الرجل «السيد لبلان» اي الابيض ، وسرعان ما حازت التسمية اعجاب الآخرين ، فدرجوا بما فيهم ماريوس ، على الإشارة اليهما بهاتين الكنيتين .

ولنقتد بهم ، ولندع الرجل « السيد ليبلان » والفتاة « الآنسة لينوار » .

وانقطع ماريوس لمدة ستة شهور عن الاستراحة في تلك الحدائق ، ولكنه لما ألمّ بالمكان بعد تلك البرهة اخذ طرفه صاحبيه الشيخ والفتاة في جلستهما التي يعهدها . فلما اقترب منهما أيقن ان الشيخ هو هو لم يتغير فيه شيء ، اما الفتاة فقد تبدلت ، او بالأحرى خيل اليه انه يرى مع الشيخ فتاة ثانية ، ولعلها ابنته الكبرى ..

رأى امامه والعجب آخذ منه كل مأخذ ، امرأة جميلة تنطبع على اساريرها امائر الرقة والنبل .

وظن ماريوس لأول وهلة ان هذه الشابة المترعرعة غير تلك الصبية .

ورفعت الفتاة رأسها على حين غرة فوقع طرفها على ماريوس ، ولكن طرفها لم يحتو الا على نظرة بريئة طاهرة .

وحدث يوماً ان التقى نظره بنظرها، ورأى في عينيها شيئاً جديداً لم يألفه .

وفي اليوم التالي ، في الساعة المعتادة ، اخرج ثوبه الجديد وقبعته الجديدة وحذاءه الجديد ، فلبسها جميعاً ووضع في يديه قفازيه وانطلق الى لكسمبرغ ، وطفق يتجول هنا وهناك ويتأمل فيما يحيط به ، ويقف ملياً امام تمثال منصوب

في ناحية ما ، وما عتم ان اخذ سمته الى المكان الذي اعتاد ان يرى الفتاة فيه : فما اقترب حتى ابصر بها تجالس الشيخ كعادتها ، وتجاذبـــه اطراف الحديث ، وتقبل عليه بكل حواسها ومشاعرها . واستمر يتقدم وفي خطوه شيء من الاقدام ونوع من تحدي الهاجم . ولما اصبح عن كثب منها ، مسح بيده على سترته يستوثق من نفسه وهندامه ، ونظر اليها وارتجف .

وتباطأت خطواته ومرّ بها ولكنه توقف بغتة دون ان يدري لماذا، والتفت وراءه ، ثم استدار ورجع من حيث اتى . واقترب في هذه المرة من الفتاة حتى لم يعد يفصل بينهما اكثر من ثلاث شجرات ، ولكنه عجز عن الاستمرار وشعر كأن قوة مبهمة خفية تقيد ساقيه ..

واعاد ماريوس الكرة ، ولكن وجهه استحال من اللون الأحمر الى اللون الاصفر في هذه المرة .

وغادر لكسمبرغ بعد ساعة ، واقتات في تلك الليلة قطعة خبز يابسة ، ونضا عنه ملابسه فنظفها جيداً وطواها بعناية وجلس يفكر ويناجي نفسه ..

ولم يكذب خبراً في اليوم التالي ، بـــل قصد لكسمبرغ كعادته وجلس في مكانه من الحديقة ، ولم يغادره إلا والغسق يبهت بعد احمرار ، والعتمة تهزم جيش النور الجرار ..

واعاد الكرة بعد يومين لا حباً في الاستراضة والمشي بل طمعاً في الجلوس والتحديق والتأمل من بعيد في ذات الوجه الصبيح . لقد تيمه الحب .. وانتهى كل شيء ، واحب ماريوس امرأة ، وها هي ذي حياته تدلف الى غمر المجهول الذي يميط عنــه القدر اللثام وما تأتي به الأيام !

مضى شهر لم يتخلف اثناءه ماريوس يوماً عن انتجاع رياض لكسمبرغ . وما اكثر ما صمم فيا بينه وبين نفسه ان ينقطع عن الذهاب ، وما اكثر ما كان يضرب بتصميمه عرض الحائط عندما تأزف الساعة ، فيندفع مهرولاً .

ووجد ذات مساء على المقعد الذي شغلته حبيبة قلبه منديلاً صغيراً مطرزاً يتضوع من ثناياه الأرج الفواح ، وقد ظهر في طرف منه حرفان هما « أ . و » ، فقبل المنديل ، وقبل الحرفين ، وناجى نفسه قائلاً : لا جرم ان اسمها « اورسولا » .. اجل ان اسمها « اورسولا » .. وعاد فوضع المنديل على فمه ثم على انفه ، واستنشق العبير الساطع منه ملء رئتيه وقال - واهاً لك ! سوف احتفظ بمنديلك الى الابد !

ولما انتجع فراشه في تلك الليلة صحب معه المنديل ، فوضعه على جهة القلب ، ثم قبله ، ولم يلبث ان اخفاه تحت وسادته !

هكذا اكتشف ماريوس او خيل اليه انه اكتشف اسم الفتاة .. ولكن ما اكتشفه غدا بعد ايام لا ينقع صداه ولا يشفي غليله ، فهو يريد المزيد ، وهو يتوق الى معرفة مكان إقامتها .

لقد اخطأ عندما ألقى الحذر جانباً ، فاسترعى بذلك انتباه الشيخ وأثار ريبته ؛ وقد اخطأ مرة اخرى عندما كان يغادر لكسمبرغ كلما رأى الشيخ بمفرده ، اما خطؤه الثالث فقد اصابه من جرائه الحيف .. فما هو خطؤه الثالث ؟

آلى ماريوس على نفسه وقد دنفه الوجد ان يقتفي آثار الفتاة ، وتجرأ يوماً فأقدم ، ورآها ورأى الشيخ يدخلان بيتاً حديث البناء مؤلفاً من ثلاثة ادوار .

وتقدم في مساء احد الايام الى بواب البناء وقال بجرأة غريبة : « اين يقطن الشيخ الذي مر بك منذ لحظات ؟ هل يشغل الطباق الأول من المنزل ؟ » .

فأجاب البواب : « كلا يا سيدي ، بل هو يقطن في الطباق الثالث » .

« وماذا يصنع الرجل ؟ » .

«يعيش على دخل مقرر له ، ولا يقعد عن إسداء المعروف ومساعدة الغير» .

« وما اسمه ؟ » .

فرفع البواب رأسه وتساءل مرتاباً : « وهل سيدي مـــن رجال الشحنة السرية ؟ » .

فبغت ماريوس وغادر الرجل .

وتبعهما في اليوم التالي، الا ان الشيخ ما كاد يلج البناء حتى ظهر ثانية وتلفت حوله متفحصاً فوقع طرفه على ماريوس ..

ولم يرهما فيما بعد . فاكتأب وضاقت الدنيا في عينيه .

صلنا وجعلنا في الطبقات العليـا والمتوسطة ، وآن لنا الآن ان نفتتح اعماقاً اخرى — اعماق الرهبة والفزع — فهناك وراء المجتمـــع يتوارى كهف الظلم والشر ، ولا مفر لنا من المجاهرة بان هذا الكهف يظل موجوداً ما دام الجهل يخيم على الدنيا ، ويتناول الاشخاص ، ويعمّ اطراف الكون الاربعة !

هذه الكهف هو خلية الاعماق ، وهدفه تدمير الاشياء والاحياء والقيم .

وقد هيمن على هذه الخلية من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ اربعـة لصوص ، هم : كلاكسو وغيلمير وبابيت ومونتبارناس .

هؤلاء اللصوص الاربعة تمكنوا من تضليل رجال الأمن بجميع الوسائـــل والطرق ، فهم يتخلون عـن شخصياتهم ، وهم يندمجون كفرد ثم يفترقون وينفصلون ، وهم اربعة لصوص ولكنهم لص واحد عجيب غامض ذو اربعة رؤوس !

★

ولىّ الصيف ثم الخريف ، وجاء الشتاء . ولم تطأ اقدام الشيخ والفتاة حدائق لكسمبرغ. وملّ ماريوس من البحث وأعياه الفكر وانحنى على نفسه باللائمة —

لماذا تبعتها ؟ لقد كنت سعيداً برؤيتها كل يوم ، فماذا دهاني حتى اقدمت على هذا الخطب ؟

في ذلك الوقت لم يبق في منزل « الشيخ غوربـــو » سوى ماريوس وعائلة « جوندري» التي دفع فيما مضى الايجار المستحق عليها دون أن يكترث بالتعرف على افرادها . في مساء احــــد أيام شباط الباردة خرج ماريوس من حجرته وانطلق الى المطعم الذي درج على تناول طعام العشاء فيه . وشعر فجأة وهو ينثني في منعطف الطريق بشخص يصدمه ، فالتفت وراءه فرأى فتاتين تهرعان مبتعدتين ، إحداهما طويلة دقيقة هيفاء ، والأخرى أقصر قامة وإن كانت لا تقل عنها ضموراً . وسمعهما تتبادلان الحديث ، وفهم من حديثهما أنهما نجتا من مطاردة البوليس . ولم يلبث أن شاهدهما تختفيان وراء الاشجار النامية في طوار الطريق . فوقف هنيهة متردداً ، ثم عطف يريد مواصلة السير ، فاذا بـه يلمح رزمة صغيرة ملقاة على الأرض ، فالتقطها . ورجع لديه بعد أن تحسسها ، انها تحوي بعض الاوراق .

فعاد ادراجه وجعل ينادي الفتاتين ولكن دون جدوى .

وبينا هو ينضو ملابسه في تلك الليلة استعداداً للنوم له تذكر الرزمة التي وجدها ، فأخرجها من جيبه فألفاها مفتوحة من جانبها ، وعثر في داخلها على اربعة خطابات مفتوحة أيضاً ، فحدثته نفسه أن يقرأها عنى ان يرى فيها ما ينبئه بحقيقة صاحبها ..

ولكنه لم يجد فيها ما يشفي غليله ، فقـــد وجهت الخطابات الاربعة إلى اشخاص اربعة ، وفي كل منها استجداء وتسول بطريقة تختلف وتتباين . ووقع كل خطاب رجل او امرأة ، إلا ان الخط في الخطابات الاربعة كان واحداً ، والورق من نوع واحد. فأيقن ماريوس ان آفاكاً محتالاً قد توسل بها لاستدرار الشفقة وابتزاز المال ، فهز رأسه وطوح بالخطابات واضطجع على فراشه ونام .

وفي الساعة السابعة صباحاً ، وبينا هـــو يستعد لمزاولة عمله ، طرق عليه

الباب طرقة خفيفة ، وولجت الحجرة صبية صغيرة وقفت تحدق فيه .

وحدثته نفسه ان يعرفها ، فالوجه مألوف ، والقوام ايضاً يذكره بشخص ما ، فمن هي يا ترى ؟ وأين التقاها ؟

وقال اخيراً ؟ « وماذا تريد الآنسة ؟ » .

فاجابت بصوت سكير استعبدته الخمر : « هـــاك كتاباً لك ايها السيد ماريوس » .

فتناول ماريوس الكتاب وفضه وقرأ :

« الى الجار الكريم !

سمعت بمأثرتك ، فشكرت لك صنيعك .. فلولاك ، ولولا تبرعك بقيمة الايجار لرأيتنا الآن نفترش الغبراء ونلتحف السماء .. فليبارك الله ايها الشاب ان ابنتي الكبرى سوف تخبرك عن حالتنا .. لقد طوينا على جوع لمدة يومين – انا وزوجتي وابنتي – فان لم تخدعني افكاري فلست ارتــاب ابداً في انك تشعر معنا وترثي لحالنا وتنفحنا بشيء من المساعدة .. ولست بالرجل الذي ينسى مكرمة او فضلاً » .

« جوندري »

وكان هذا الكتاب بمثابة شمعة في كهف .. فقد اتضح له ما خفي من امر الخطابات فكاتبها هــو نفسه كاتب هذا الخطاب .. فالخط واحد ، والاسلوب واحد ، والورق من صنف واحد !

وعلى هذا فالرجـــل الخفي له خمسة اسماء ، وخمسة اخاديع ، وخمسة تواقيع ! وقد اماط عنه اللثام الكتاب الاخير ، فهو جوندري بالذات ، ان كان اسمه جوندري حقيقة !

وعلم كذلك ان هذا الاب يحصل على ما يبتغيه بواسطة ابنتيه ... وهو لا

مشاحة يلعب مع القدر ، ويضع هاتين الفتاتين في كفة ميزان .. ومـــا خوفها الذي اظهرتاه البارحة سوى دليلاً ناصعاً في صحته قاتماً في مدلوله على ما انجرفت اليه الفتاتان من حياة الظلام .

وتطلع اليها ماريوس متأملاً متفرساً ، بينا راحت هي تمشي جيئة وذهاباً في في الغرفة بجرأة الشبح ودون ان تكترث بعريها .

وما عتمت ان قالت وهي ترنو الى المرآة : « أرى عندك مرآة جميلة ، واني لأغبطك عليها !

وانثنت الى الكتب المنضودة وقالت : « ولديك العديد من الكتب ! » .

وانبثق من عينيها بريق من يزهو بأمر يعرفه ، واستأنفت: « اني استطيع القراءة ، استطيعها ! » .

وتناولت احد الكتب وقرأت عنوانه وعقبت تقول : « انه عن واترلو ، لقد كان ابي هناك ، فهو جندي قديم » .

وألقت الكتاب من يدها وتناولت قلماً واردفت: « وأكتب ايضاً! وكتبت بضع كلمات على ورقة بيضاء .

ثم حملقت فيه ملياً واستطردت : « انت جميل الخلق يا سيد ماريوس » .

ودار في خلد الاثنين فكرة واحدة ، فابتسمت .. وتضرج وجهه حياءً ...

واقتربت منه فوضعت يدهـــا على كتفه ، ورمقته بنظرة تعجب وإعجاب وقالت : « ومع انك لا تحفلني ، فانا محيطة بدقائق حياتك .. لقـــد قابلتك مراراً في هذا المنزل ، ورأيتك مراراً تلم ببيت الأب مابوف زائراً ».

وتراجع ماريوس الى الوراء وهو يقول : « لدي يا آنسة رزمة من الاوراق سقطت منك في الطريق ، فأذني لي ان ارجعها اليك » .

وناولها الرزمة فصفقت بيديها جذلاً وهي تقول : « ألا شكراً لك والف شكر ، فقد اضعنا كثيراً من الوقت في البحث عنها » .

واخرج ماريوس جميع ما يملك من نقود فأعطاها إياها مستبقياً دراهم قليلة تكفيه لطعام الغداء .

وصاحت الفتاة مبتهجة : « خمسة فرنكات ! » وغادرت الغرفة .

*

قضى ماريوس خمس سنين في شظف من العيش ، ولكنه أيقن انه لم ير الشقاء الحقيقي إلا الآن ، رآه امامه متجسداً في إهاب فتاة !

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان من شاهد شقاء الرجل فقط لم يشاهد شيئاً ، وان من رأى شقاء المرأة لم ير شيئاً ، وعليه أن يبصر شقاء الطفولة .

كانت الفتاة الصغيرة بمثابة رسول من الليل . فقد كشفت له النقاب عن ناحية من نواحي الظلام .

وأنحى بعد ذهابها ، باللائمة على نفسه ، وزجر نفسه وعنفها لأنها لم تراوده على النظر في شأن جيرانه .. لقد سمعهم يتنفسون ، ولكنه لم يكترث بهم .. وقد سمعهم يجيئون ويروحون ويتكلمون ، ولكنه لم يعرهم التفاتاً .

وكان الجدار الفاصل بينه وبين جيرانه رقيقاً مثقوباً من اعلاه ، فدنا منه ماريوس ورقي الخوان ووضع عينه على الثقب ، ونظر ..

في المدن والغابات غيران وكهوف يختبىء فيها الوحوش الضارية ، ولكن لا يلوذ بهذه الاغوار في المدن سوى الوحش ، والقذر ، والطفيف .. وبعبارة اخرى — الدميم ! أما في الغابة ، فيلوذ بالكهوف ، الوحش ، والضاري ، والجليل .. وبعبارة أخرى — الرائع !

إن كهف الوحش افضل من غار الأنسان وأرقى !

وما شاهد ماريوس إلا غاراً ..

كان ماريوس معدماً ، وكانت حجرته تافهة الأثاث. ولكن مثلما كان فقره فقر نبيل ، كذلك كانت حجرته نظيفة نقية . أما الغار الذي أطل عليه ، فقد كان احقر ما وقعت عليه عيناه . كان غاراً قذراً ، كريه الرائحة كئيباً .

وكان يجلس الى مائدة متداعية ، رجل في العقد السادس من العمر .. نحيلاً ، هزيلاً ، تنمّ اماثره عن الخسة وتوحي حركته بالقحة ! فهو طائر صيد ورجل — مكر وحيلة — يكملان بعضهما البعض .

ولعله في تلك الاثناء. كما تكهن ماريوس — كان ينمق احد كتب الاستجداء التي وجد ماريوس بعضاً منها على قارعة الطريق .

كان يكتب ويثرثر ، كان يقول وهو يكتب .

« أواه ! بوسعي أن أسحق المسكونة .. ان ألتهمها .. » .

وكانت امرأة بدينة تربو على الأربعين او تناهز المئـــة ! تتحرك في الغرفة حركة دائبة. ولمح ماريوس في ركن من الغرفة فتاة هزيلة بيضاء البشرة شاحبة المحيا، تضطجع شبه عارية على فراش متآكل قذر. فأدخل في روعه انها الشقيقة الصغرى للفتاة التي ألمّت بغرفته منذ يسير ، ورجح لديه ساعـــة تأمل في تقاطيعها ، انها تبلغ الرابعة عشرة .

وانقبض صدر ماريوس لما بدا له من الشقاء المتفاقم ، وبينما هو يهم بالنزول اذ بالباب يفتح ، وتدخل منه الفتاة الكبرى ، وقد تدثرت بمعطف بال يرتديه الرجال ، وانتعلت حذاء رجل أيضاً . ولما توسطت الغرفـة صاحت بصوت الظافر : « انه قادم ! » .

فسألها ابوها متلهفاً : « ومن هو ؟ » .

قالت : « الرجل الخير » .

« هل قرأ كتابي ؟ » .

« اجل وقال انه آت » .

والتفت الأب الى امرأته وصاح : «أطفئي النار ثم نامي وتصنعي المرض!».

والتفت الى ابنته الصغرى وقال : « مزقي ثوبك ! » .

والتفت الى ابنتـــه الكبرى وقال : « حطمي كأساً وانثري الزجاج على الأرض ! » .

وطرق الباب طرقاً خفيفاً ، فوثب الاب اليـــه وفتحه على مصراعيه وهو يردد : « اهلاً بك يا سيدي » .

ودلف الى الوكر رجل كهل تتبعه صبية وسيمة .

ولم يكن ماريوس قد غادر مكانه بعد .. وداهمه شعور في تلك الآونة تعيى المرادفات والمصطلحات عن وصفه .

لقد كانت هي .. هي بالذات . « ارسولا » . وكان ابوها معها .. ابوها الاشيب .. السيد ليبلان :

وكل من بلا الحب لا يخفى عليه المعنى البهي المشرق لكلمة هي ..

●

ودنا السيد ليبلان من رب العائلة وقال : « ستجد ايها السيد العاثر الحظ في هذه اللفافة بعضاً من الملابس الجديدة والاحذية والاغطية » .

فاجابه جوندري وهو ينحني الى الارض: «لقد فاض كرمك ايها المنقذ !» .

ثم عطف على ابنته الكبرى وتابع هامساً : « وماذا قلت لك ؟ مزق وخلق

فحسب .. اما النقود ! .. اخبريني ، ما هو الاسم الذي انتحلته في كتابي لهذا الرجل ؟ » .

قالت : « فابانتو » .

وانثنى السيد ليبلان نحوه في تلك اللحظة وقال : « ارى انك جدير بالرثاء ايها السيد .. » .

وسارع جوندري يقول : « فابانتو » .

قال : « آه ، نعم .. نعم .. فابانتو ! » .

قال : « او الفنان فابانتو ! اجل الفنان الذي سجل اعظم الانتصارات ! لقد ابتسم الحظ لي ردحاً من الزمن ، ثم افـل النجم وشاع الهم والكرب .. انظر ايها الخيّر .. لا خبز لدينـــا ، ولا نار .. انظر امرأتي الحبيبة وابنتي المسكينتين .. » .

وغصّ المحتال بريقه ، ودنا من ابنته وهمس متجهماً : « ولم لا تنتحبين ايتها المقبوحة ؟ صيحي ، اصرخي ! » وقرص يدها المنتفخة المتورمة فصرخت الفتاة وطفقت تنشج بصوت عال .

ونكس طرفه بيأس، وأردف مكتئباً : « اني اجثو للدرهم، ولكن اين هذا الدرهم حتى اجثو له ؟ وهــا هو صاحب المنزل يتوعّدني بالطرد إن لم ادفع له ايجار الغرفة » .

فأخرج السيد ليبلان قطعة نقود مقدارهــا خمسة فرنكات ورمى بهــا على المائدة .

ثم خلع عنه سترته فوضعها على الكرسي وقال : « ايهــا السيد فابانتو ، لست املك الآن سوى هذا القدر من المال ، فخذه ، وخذ هذه السترة، وسوف ارجع هذا المساء لأعطيك الايجار ، فكم يبلغ ؟ » .

فقال جوندري : « سقياً لك ايها الملاك .. انه ستون فرنكاً » .

« فانتظرني اذن في الساعة السادسة » .

وتأهب الرجل ليذهب ، فوضع جوندري السترة على كاهله وتقدم الكهل والفتاة الى الخارج .

ومع ان ماريوس لزم مكانه طيلة الوقت إلا انه لم ير شيئاً ، فانتباهه كان موجهاً الى سالبة لبه .. ولم تكد الحسناء تغيب عن ناظريه ، حتى قفز من مكانه وانطلق الى الشارع ، ولكنه لم يستطع اللحاق بها وبرفيقها فقد امتطيا عربة وغابا بها في طيات الطريق ..

فرجع محزوناً مغموماً ، ولكنه لمح جوندري ينتبذ ناحية من طوار الطريق تقع تحت الدرج وهو مقبل على رجل آخر يحدثه ويومىء اليه . وكان الرجل مريب المنظر لا يرتاح اليه الطرف ، وخيل اليه ان الرجل تنطبق اوصافه على شرير من شياطين الليل دله عليه مرة صديقه كورفيراك ، وأخبره ان كنيته « بانشو » .

وصعد ماريوس الى غرفته ، فانهار على كرسيه وانكفأ بوجه على فراشه متوسداً ذراعيه ، وهو يفكر فيما مر به ، وبينما هو غارق في لجة افكاره ، إذ به ينتبه بغتة على صوت جوندري يقول : « ثقي يا امرأة بما أبثه لك ، فانا واثق مما اقول لقد تبينته فور دخوله – فالقامة ، والوجه ، والملامح ، والصوت ، تنمّ عنه جميعاً ، ولم يتغير فيه الا ثيابه .. لقد وقع في الفخ أخيراً » .

وصمت الرجل هنيهة ثم استأنف موجهاً الحديث الى ابنتيه : « اذهبا الآن ، وارجعا في الساعة الخامسة » .

وصدعت الفتاتان بالأمر ، واستطرد جوندري : غداً نأكل كما يأكل الناس ونشرب ، ونلبس ، وندفىء اجسادنا » .

فقالت المرأة زاجرة : «خفض من صوتك، فللجدران آذان واعية صاغية» :

قال : « وما الداعي للحذر ؟ جارنا العزيز ! لقد ذهب في سبيله .. وهبي انه موجود ، فهل يسمعنا هذا الابله ؟ هل يفهمنا ؟ ! » .

وقهقه ضاحكاً وعقب يقول :

« سوف يأتي في الساعة السادسة ليعطيني النقود ، ولن يعود ! اما الآن فانا منطلق لأنجز ما بدأت ، ولأقابل بعض الرجال إتماما لما اعددت ! ».

في الواحدة تسلل ماريوس من غرفته بهدوء ، وهو موطن النفس على إنقاذ السيد ليبلان وابنته واخذ سمته الى دار الشرطة ، فاطلع الضابط المسؤول على قصته ، واعاد على مسمعه كلمات جوندري ، ثم ذكر له اسم المنزل ورقمه. فما كان من الرجل إلا ان انبرى يقول :

« هذا المنزل بؤرة الفساد ، وحمأة الأثم .. ما أقام فيه الا كل آفك محتال ، يسعى وراء الجريمة ، ويمتهن اللصوصية .. إذهب الآن وخذ هذه الغدارة معك، وارقب الحوادث ، وعندما تتحقق من وقوع الشرّ أطلق رصاصة ، تراني بعدها مهرعاً الى نجدتك اذهب الآن ، واتصل بي ان جرى مـــا لم يكن في الحسبان » .

٨

رجع ماريوس الى المنزل وتسلل الى مخدعه ولم يشعر بشيء من الخوف، الا انه لم يتسن له التفكير فيا هو آت دون اضطراب – فقد تراءى له ان هذا اليوم الحافل بالمفاجآت هو حلم عنيف لن يلبث ان يستفيق من اضغاثه ليسخر من اوهامه وخزعبلاته .. غير انه ما كاد يتحسس جنبه حتى أيقن انه في صحوة تامة، وانه لا يحلم، فالغدارة مشدودة الى وسطه.. وما وجود الغدارة الا دليلاً على ما هو مقدم عليه .

وانقطع صيّب السماء، وكفّ الثلج عن الهطول، واطل القمر من خلال السحب المتلبدة في الافق. وعلى حين غرة علت الاصوات في غرفة جيرانهم، ومزق الفضاء صوت جوندري الجهوري يأمر ابنتيه ان تنزلا للترقب .

وبأسرع من ومضة برق صعد فوق الخوان ووضع عينه على ثقب الحائط ، فرأى النار تتلظى، وجوندري وامرأته يتخافتان . كما رأى على المائدة آلات حديدية لم يرها من قبل – آلات لتحطيم الاقفال والابواب ، وشدخ الرؤوس ، وتخرم الانفاس ! ورأى ايضاً سكيناً حادّة .

ودقت الساعة ست دقات ، وتبع ذلك طرق خفيف على الباب ، دخل على اثره السيد ليبلان تحوط به هالة من الهيبة والجلال .

وقال وهو يضع على المائدة اربع قطع ذهبية : « هاك النقود يا صاح ، فادفع الايجار ، واستعن بالباقي » .

فقال جوندري : « سقياً لك ايها الجواد المحسن ! » .

وجلس وامسك ماريوس بالمسدس ، ووضع اصبعه على الزناد .

وحانت من ليبلان التفاتة الى الفراش الخالي ، وقال متسائلاً : « واين الفتاة المريضة ؟ » .

الا انه لم ينتظر الجواب بل استدار نحو ركن مظلم من الغرفة حيث احسّ بحركة خافتة مريبة ، وتابع يقول بلهجة المستفهم الحذر : « ومن هذا الرجل؟ » .

ونظر ماريوس الى حيث نظر ليبلان ، فشاهد رجلاً موحل الثياب ملطخ السحنة ، وكأنه فحمة !

وقال جوندري متلعثماً : « آه ! انه جار ، والجار عزيز ! » .

وهزّ ليبلان رأسه ، وقد بدت على تقاطيعه علامات عدم الاطمئنان .

وقال جوندري : « لديّ ايها السيد الأمثل صورة ثمينة اود ان اتخلص منها بالبيع » .

وصرّ الباب ثانية ، ودخل رجل ثان اتخذ له مجلساً على الفراش ، وكانت ذراعاه عاريتين ووجهه مغطىّ بطبقة من الطلاء !

وتابع جوندري حديثه قائلاً : « تجاهل وجودهما يا سيدي . كنت اخبرك عن الصورة ، فانظر ... » .

وهرول الى ناحية من الغرفة ، وما عتم ان رجع بشي يشبه الصورة ..

ودخل رجلان اخران وقد عرت سواعدهما ايضاً وحفيت اقدامهما. ولاحظ جوندري ان عيني ليبلان سمّرتا في هؤلاء الرجـــال ، فابتدره قائلاً : « انهم اصدقاء ، فلا تحفلم ايها الخيّر ، بل اشتر صورتي .. ولن اقاضيك ثمناً فاحشاً ، فكم تظنها تسوى ؟ » .

فتردد ليبلان هنيهة ثم اجاب : « لا اخال ثمنها يزيد عن ثلاثة فرنكات » .

قال : « قد لا تقنعني آلاف الفرنكات .. هل فهمت ؟ » .

فانتفض ليبلان واقفاً ، وواجه الرجال معطياً ظهره للحائط .

واستطرد جوندري : « فاذا ابيت شراء الصورة ، فلن يبقى لي محيص عن القذف بنفسي في النهر ! » .

وحدجه ليبلان بنظرة ثاقبة ترمي بالشرر .

وبرقت عينا الآفك فجأة ، وارتفع صوته : « هـــل تعرفني ؟ ألم تعرف من أنا ؟ » .

في تلك الدقيقة التي تكشف فيها النوايا ، انفتح الباب على مصراعيه بعنف، وولج الغرفة رجال ثلاثة متبرقعون بأقنعة من ورق ، وكل منهم ممسك بقضيب من الحديد ..

وكأن جوندري كان يتوقع قدومهم ، فانتحى بأحدهم ركناً من الغرفـــة وجعل يهامسه .

قال جوندري : « هل اعددتم كل شيء ؟ » .

فأجاب الرجل : « نعم » .

« واين مونتبارناس ؟ » .

« تركت اللعين يثرثر مع ابنتك الكبرى ! » .

« وهل اتيتم بعربة صغيرة ؟ » .

« اجل اتينا » .

وكان السيد ليبلان في تلك الاثناء يجيل طرفه الحائر في انحاء الغرفة ، وفي الرجال ، وقد شحب لونه قليلاً .

وكانت المائدة تفصل بينه وبين الآخرين . وتراءى لماريوس في تلك الفينة

ان اسارير الشيخ الصامت المهيب ، اضحت تنطق بالقوة ، وتفصح عن البطش .

وتنبه على صوت جوندري يخاطب ليبلان بقوله :

« ألم يؤن لك ان تعرفني ؟ ألم تعرف من انا ؟ » .

فحدق ليبلان في وجهه وأجاب :

« كلا ، انا لا اعرفك » .

ودنا جوندري من المائدة ومال عليها ، وقرب وجهه من ليبلان واستتلى :

« ان اسمي ليس فاباتتو .. انني لست جوندري .. بل انا صاحب النزل في مونتفرمي ! هل تفهمني ؟ انا تيناردي . »

فطرفت عينا ليبلان وتصاعد الدم الى وجهه ، ولكنه اجاب محدثه برفق وحلم : « وهذا لا يزيدني بك معرفة » .

الا ان ماريوس لم يسمع الجواب . فقد شحب وجهه ، وغامت عيناه . فعندما قال جوندري : « أنا تيناردي .. اقشعر جلد ماريوس ، وتراخت نبضة فسقط المسدس منها .

فيا للقدر ! امره والده من اعماق القبر ان يبذل وسعه لمساعدة تيناردي .. أمضى ماريوس اربع سنين وهو يفكر بتيناردي ، ويجهد نفسه لمعرفة مكانه .. في الدقيقة التي اوشك ان يستدعي فيها رجال الامن للقبض على مجرم متلبس ، رتفع صوت القدر يقول : « هذا هو تيناردي ! » .

فماذا يفعل ؟ هل ينقذ ليبلان فيخفر عهد ابيه ؟ ام يصمت فيودي بالرجل طيب ؟ ! في غضون ذلك ، وفي تلك الدقائق الهائلة التي كان ماريوس اثناءها موزعاً بين عاملين وعاطفتين ، كان تيناردي يغدو ويروح قريباً من المائدة .

ثم انه واجه ليبلان ثانية وصرخ : « لقد وجدتك اخيراً .. وجدتك ايها

المنقذ ! وانت لا تعرفني .. لا تعرفني .. فلأذكرك يا مقدم الهدايا للاطفال ـ فلاذكرك بليلة قضيتها في نزلي منذ ثماني سنوات .. وقد اشتملت بمعطف اصفر اللون .. وحملت بيدك حزمة ثياب .. وظهرت بمظهر الفقير المعدم ، بينما انت تملك الملايين ! » .

وصمت تيناردي وأجال طرفه في رجاله وامرأته وتابع يقول :

« انا لص .. لص .. اعلم ذلك . وأنتم الاغنياء تنعتوننا بهذه الصفة .. ولمَ لا ؟ لمَ لا أسرق ؟ ألست إنساناً وجد ليأكل ويشرب ؟ ألست مثلك إنساناً ؟ . إنساناً ؟ . انت تدعوني لصاً ، فليكن هذا .. انني لص ، وأبغي التهامك ! واعلم ايها المليونير اني جندي شجاع ، خضت المعارك ، وانقذت في واترلـــو ضابطاً عظيماً . يدعى بونتمرسي .. ولهذا ، ولاني رجل ساهم بقسط وافر في الدفاع عن الوطن والذود عـــن حياضه ، فيحق لي ان انعم بحياتي كما تنعم انت .. » .

ورأى ماريوس لحداً يوارب قليلاً ويخرج من طياته خيال ، وخفق قلبه بشدة ، وانفجرت في اذنيه قنابل واترلو ، وخيل اليه ان هذا الخيال جريح تنزف الدماء من جسده الهيولي وانه يحدق فيه ويحدجه بنظرة عتب وتعنيف !

وتنفس تيناردي الصعداء ، وحـــدد عينين دمويتين تبعثان بالشرر في وجه السيد ليبلان ، وقال بصوت غليظ فظ : « ومـــاذا تقول قبل ان نبدأ رقصة الموت ؟ ! » .

فلم يحر الشيخ جواباً ، واخـــذ يتتبع حركات تيناردي الذي كان يغدو ويروح هائجاً ثائراً ، وقد اعماه الغضب واطار صوابه الحقد .

وانتهز ليبلان فرصة انشغال تيناردي عنه ، فركل الكرسي بقدمه ، وقذف المائدة بيده ، وفي وثبة واحدة اعتلى النافذة الموصدة دائماً والمشرفة على الطريق .

ولكن الوقت لم يتسع له لفتحها والوثوب منها الى الطريق ، فقد احاط به

ستة رجال اقوياء في مثل لمح البصر ، وفي مثل لمح البصر لفوا سواعدهم المفتولة حوله وجذبوه بقوة وخشونة الى الداخل .. غير انه لم يستسلم بل ضغط على عنقي اثنين منهم ، حتى ألصق صدريهما بالأرض ، وجثم فوقهما ، كما جثم فوقه الآخرون وطفقوا يعصرونه عصراً مروعاً ويكيلون له اللكمات ، بينما علقت امرأة تيناردي تشدّ شعره وكأنها تود ان تجتثه !

ومع ذلك استمر الشيخ يناضل نضال الجبابرة ، ويدافع عن نفسه دفاع المستميت .

هولاء هم رجال الاعماق حيث الهلع والفزع ... هؤلاء هم رواد كهف الظلم والشر .. هؤلاء هم نزلاء خلية الكراهية والحقـد .. وكان منهم في الغرفة في تلك الليلة كلاكسو وغيلمير وبابيت ! وكان الآخـرون لا يقلـون عنهم شراً وإجراماً .

ونشب صراع هائل ، وكال ليبلان الضربات الجبارة لاعدائه ، إلا انه غلب على امره اخيراً ، وتسنى للصوص ان يشلوا حركته ويشدوا وثاقه الى السرير .

ثم جلس تيناردي مواجهاً له وقال بهدوء وخبث :

« ماذا عاقك عن الاستنجاد ؟ ماذا جنبك احداث جلبة واصوات ؟ وانا اذ اهنئتك على ثباتك وقوة جنانك انبئك بما استنتجت من نزوعك الى الصمت.. فالرجل عندمـــا يصرخ لا يلبي نداءه سوى البوليس ، وبعدهم القضاة للنظر فيما اصاب الانسان من حيف وحاق به من جور .. لأنك تتفادى تدخـل رجال الامن بالقدر الذي نتفادى ذلك نحن .. فما بالنا إذن لا نتفق على امر ؟ » .

كان تيناردي يتكلم بذلاقة لا نظر لها ، كان هذ اللص السفاح يتكلم بلسان قضى السنين في الدرس والتحصيل .

ولما فطن ماريوس الى ما غاب عنه ، شعر بشيء من الخيبة .. فصمت ليبلان

مريب ، وصدوفه عن الاستغاثة له مدلول مفعم بالشك .. وتكاثفت سحابة الغموض في سماء تفكير الشاب .. فاين هو ؟ وماذا يرى ؟ وماذا يسمع ؟ ومن هو ليبلان هذا ؟ لقد عرفه غامضاً متستراً ، وهـــا هوذا لا يزال مسرفاً في غموضه وتستره !

هنا روح لا يعرف الخوف مسلكاً اليها .. هنا جأش ثابت قلما وجد مثله بين الملأ .. هنا رجل يبذّ الرجال ، فمن هو من الرجال ؟

ونهض تينناردي من مكانه ودنا من الموقد فتناول الازميل الحديدي الذي كان طرفه يؤج كأنه جمرة ، ولوح به في الفضاء ثم أعاده الى مكانه وعاد هو الى مكانه .

واستطرد تينناردي : أجل ، دعنا نصل الى نتيجة سلمية ، لقد فقدت وعيي وتخليت عن حلمي ووقاري لأني فقير لا املك شروى نقير .

وعليك الآن ان تكتب ما املي ، لا تزعم انك جاهل لم تتعلم الكتابة والقراءة ! » .

واستدار الى احد الرجال وامره يطلق يد الاسير . ولما تمّ ذلك ، غمس تينناردي القلم في دواة الحبر وناوله اليه وهو يقول : « حاذر يا سيدي ، ولا يغرنّ عن بالك انك ما فتئت في قبضتنا ، وأن حياتك مرهونـة برضانا ، وانك ستبقى أسير القيود الى ان يرجـــع الرسول الذي سيحمل رسالتك ، فاكتب إذن .. » .

« ماذا اكتب ؟ » .

« اكتب .. ابنتي العزيزة : تعالي دون ابطاء ، فانا في حاجة قصوى اليك ، ان الشخص الذي يناولك هذا الخطاب أمين مخلص وهو منوط باحضارك ، فلا تترددي في القدوم » .

ولما انتهى تيناردي من الاملاء وتوقف السجين عن الكتابة ، تابع الاول يقول : « وقع الخطاب الآن .. ماذا بك ؟ » .

ووقع الشيخ — إيربان فابر وتأمل تيناردي في منديل الرجل ، واقتنع .. فالأحرف الاولى ترمز الى الاسم .. وسرعان ما اختطف الرقعة من المائدة ، فطواها ثم أمر احد اللصوص ان يذهب بها الى العنوان الذي ذكره السجين وكتبه على المظروف .

ورجع الرسول بعد ساعة ، فما كاد يدلف الى الغرفة حتى صاح وهو يحرق على الارّم : « ويحه من محتال .. ان الاسم مغلوط والعنوان غير صحيح .

وتنفس ماريوس ملء رئتيه ، فقد نجت حبيبته ، ولم يشأ أبوهـا او ولي امرها ان يرشد اللصوص اليها ، فسقياً له .

ودنا تيناردي من أسيره وقال بصوت كأنـه فحيح الثعبان : « وهكذا تجاسرت على خدعي والسخرية مني أيها الوقاح ؟ فما حداك الى ما لا طائـل لك تحته ؟ » .

فقال الشيخ بدعة واطمئنان : « الرغبة في كسب الوقت » .

وفي نفس الدقيقة انتفض انتفاضة قوية تقطعت من شدتها الحبال ، وانقض على الموقد فاختطف الازميل الملتهب من وسطه ثم واجه اعداءه قائلاً : « إنني ارثي لكم ، فحياتي لا تستأهل كل هذا الصراع ، فانظروا .. انظروا لتتأكدوا .. » .

ومد يده وغرس فيها الازميـل المستعر وسمعوا كشيش الجلـد المحترق ، وفاحت في الوكر رائحة اشتم اكثرهم رائحة مثلها في غرف التعذيب .

وقال بعد دقيقة : لا تخشوا بأسي .. لا تخافوني .. فأنا لا اخشاكم ولا اخافكم ! » .

ثم رفع الازميل ورمى به من النافذة .

واستتلى السجين : « إفعلوا بي ما تشاءون » .

وكان اعزل من كل سلاح ..

« اقبضوا عليّ » .

وكان واقفاً في استسلام ..

« قيدوني » .

ودنا منه لصان ، فألقيا ايديهما على كتفيه ، وجاء ثالث مقنع فرفع يده بقطعة من الحديد ضخمة ليحطم بها جمجمته .

وحاق بماريوس العذاب ، وتوترت اعصاب يده القابضة على المسدس ، وحانت منه التفاتة ، فرأى تحت قدميه على المائدة التي علاها ، قطعة من الورق كتبت عليها ابنة تيناردي — البوليس يحيط بنا — عندما زارته في الصباح وعبثت بالقلم وفاخرت بأنها تكتب وتقرأ .

وومض في ذهنه خاطر ، فأخذ الورقة وطواها ، ثم رمى بها الى وسط الوكر .

وصاحت امرأة تيناردي : « ما هذا ! »

وانقضت على الورقة فالتقطتها . ولكن زوجها اختطفها من يدها وقال : « وكيف جاءت هذه الورقة الى هنا ؟ » .

قالت : « وهل هناك غير النافذة تقذف منها ؟ » .

وفضها الرجل وصاح : «انها مكتوبة بخط إيبونين ابنتي .. فلأقرأ ما فيها» . وما كاد يلقي عليها نظرة سريعة حتى أردف وهو يرتعش : « اسرعوا ويلكم ! اين السلم ؟ عجلي يا امرأة ! » .

وانبعث صوت من الباب يقول : « انني هنا » .

والتفتوا جميعاً ، واصطكت ركبهم ..

لقد رأوا جافير ! رأوه يمسك قبعته بيده ويبتسم !

كان جافير عندما ارخى الليل سدوله قد عين لرجاله مراكزهم ، وكمن وراء شجرة من اشجار الطريق . واستهل عمله في ذلك المساء بالقاء القبض على ازيلما ابنة تيناردي ، ولكنه لم يجد شقيقتها ، فقد اختفت ساعة ألمّ بالناحية هو ورجاله .

ثم طفق ينتظر الاشارة المتفق عليها مع ماريوس . ورأى في غضون ذلك العربة الصغيرة التي غادرت المنزل ثم رجعت اليه . ونفد صبره مع مرور الدقائق ،

فدهم الأشقياء قبل ان ينزلوا ضربتهم . وتدافع اللصوص بخوف وهلع يبغون اسلحتهم التي ألقوها جانباً ، وفي اسرع من ومضة برق وقف كل منهم موقف الدفاع وقد امسكوا جميعاً بسلاحهم .

وألقى جافير قبعته على رأسه وخطا خطوتين الى الأمام وهـــو مشبك الذراعين يضع عصاه تحت ابطه وسيفه في غمده .

وانتضى أحدهم مسدسه ، فقدمه الى تيناردي . ورفـع الاخير يده وصوب المسدس ..

وقال جافير : «لا تطلق النار يا هذا ، فستخطىء الهدف وتصيب القدر !» .

وضغط تيناردي على الزناد ، واخطأت القذيفة جافير وأصابت القدر !

وقال المفتش متهكماً : « ألم انذرك ؟ لقد أضعت الطلقة سدى ! » .

وصاح احد الاشقياء وهو يطوّح بسلاحه : « تباً لك يا جافير ! أنت ملك الشياطين ! » .

ودخل رجال جافير في تلك اللحظة فاقبلوا على الاشقياء يكبلونهم . ولما تمّ لرجل الامن ما اراد ، امر جافير الاشقياء ان يقفوا صفاً واحداً . وما عتم ان مشى امامهم وكأنه يستعرض حرساً .. وانشأ يقول كلما انتقل من رجـل الى رجل يليه :

« غيلمير .. بابيت .. كلا كسو .. » .

وابتسم ابتسامة النصر وتابع :

« بيرنيل .. بروجو .. دي ميلار .. » .

وأشاح عن الآخرين وامر رجاله ان يأتوا بالاسير .

فأجال الرجال عيونهم في المكان .

وقال جافير مستفهماً : « اين هو ؟ واردف مزمجراً :

« يا للشيطان ! لقد بذّ الجميع وفر من النافذة . وإخاله كان أحق منهم بمجابهة القضاء ! » .

مشى الصبي الرّث الثياب في اليوم التالي مبتعداً عن جسر اوسترلتز ، متجها الى البيت الذي كان منذ ليلة ويوم مسرحاً للاحداث .

وفي أحد المنعطفات اصطدم بامرأة عجوز محدودبة ، فلم يقل شيئاً . ولما ابتعد عنها صاح بملء َفيه : « خلتك كلباً – كلباً ضخماً ! » وتلفظ بكلمة ضخم بنبرة ضخمة !

واستدارت المرأة مستشيطة وصاحت : « قبحك الله يا طير الليل » .

وقرقر الصبي ضاحكاً ، ومضى في سبيله . وانتهى به السرى الى المنزل رقم ٥٠ – ٥٢ وطفق يقرع الباب بجمع قبضته . وصاحت امرأة من بعيد: « اكفف يا هذا ، اكفف ! » واقترب خيالها ، فنظر اليها الصبي ونظرت اليه ، فعرفته .. عرفت فيه الغلام الذي اصطدم بها ثم تهكم عليها ، فقالت وهي تصرف باسنانها : « عليك اللعنة يا ابن الشياطين ! » .

واجاب الصبي : « ارجعت ثانية ؟ اني قادم لأرى ذويّ ! » .

فقهقهت المرأة قهقهة الحقـد والتشفي وقالت : « ذووك ! إذهب ، أغرب

عن وجهي ، فليس في الدار احد منهم ! لقد سجنوا جميعاً ! » .

•

للثورات خصائصها التي لا تطمسها الكبوات ، وعلى سبيل المثال ثورة عام ١٨٣٠ ، فقد كانت تلك الثورة محظوظة فيما اعقبت من نتائج ، فقد أرست اساس النظام ، وكان الملك الذي نودي بـه نادر المثال ، كان افضل من طبقة النبلاء بمراحل كثيرة .. فلويس فيليب كان رجلا مداوماً .. وأولى الامـور بالنجاح ، المواظبة والالحاح .

كانت مهمة حكومة ١٨٣٠ من أشق المهمات ، فما كادت تتسلم زمام الأمور حتى أحست من كل جانب بغليان خطير ، وبحركات عديدة موجهة ضد نظام تموز الحديث .

وتفاقم العداء مع مرور الأيام، وانتقلت من طور الهمس، إلى طور اللغط ، الى طور المجاهرة .

وتعثر نظام ١٨٣٠ والتهب الجو الداخلي، وتأزمت الاحوال في اوروبا كافة.

وأظلم الافق ، وجعل شبح هائل مريـع يقترب من الأرض قليلاً قليلاً وكأنه مذنب يبغي الاطباق على البسيطة !

وتعاقب عشرون شهراً ، وأقبلت سنة ١٨٣٢ بوجه كالح مكفهر .. فالأمة مضطربة حيرى . وفي اواخـر نيسان استحال الاختمار الى غليان ، ولاحت بوادر التمرد والعصيان ، ونظرت فرنسا الى باريس ، ورنت باريس الى ناحية « سان انطوان » .

وصدرت التعليمات الخفية بطرق غامضة ، وكانت متنوعة ، منها ما يمتّ الى النظام ، ومنها ما يحثّ على التأهب ، ومنها ما ينير السبيل لمـن يصنع السلاح والمفرقعات .

وحمل المواطنون السلاح ، ولم يحفلوا الرقبـاء والارصاد . واخفوا الثقيل منها والكثير ، في امكنة لا تثير الظنون .

وتسربت الفتيبة الى وحدات الجيش ، وانضم الجنود سراً الى صفوف الثائرين ، ودارت ساعة الزمان ، واقتربت اللحظة الحاسمة .

وتحرك « انجولرا » ولكن بحذر . وتحرك معه اصدقاؤه ، فجعلوا يجتمعون خلسة في حانة « موسين » ..

وقد قال انجولرا في سياق احاديثه :

« أجدر بنا ان نعرف مركزنا على حقيقته .. فان رغبنا في جمع الرجال والمقاتلين ، فعلينا ان نصنعهم صنعاً ! وعلى الثوريين ان يكونوا دائماً متأهبين للجهاد .

وافترق « اصدقاء السوقـــة » وذهب كل منهم الى المكان المعين .. ذهبوا ليشعلوا النيران ويسبقوا عجلة الزمان .

٩

شاهد ماريوس النتيجة العجيبة للمكيدة التي حاك خيوطها جاره تيناردي. ولكن ما كاد جافير يغادر المنزل مع رجاله والاشقياء المصفدين بالحديد ، حتى غادر هو الآخر حجرته . ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساءً .

وقصد لتوه غرفة كورفيراك ، وقال له قبـل ان يطرح عليه تحية المساء : « انني قادم لأنام هنا » .

ولم ينبس كورفيراك بحرف ، بل رفع فراشاً عـــن سريره والقاه الارض وقال : « هنا تنام ! » .

ومضى شهر واعقبه آخر وماريوس مقيم مع صديقه كورفيراك . وقـــد تناهى له من احد المحامين ان تيناردي وضع في زنزانة ضيقة منعزلة ، فطفق يرسل له في يوم الاثنين من كل اسبوع خمسة فرنكات . وكان صفر اليدين ، الا ان ذلك لم يمنعه من الاقتراض من صديقه .

وقد تساءل هذا الصديق : « لمن يا ترى يرسل هذه النقود ؟ » .

وتساءل تيناردي : « من هو فاعل الخير الذي يجود عليه بهذا المال ؟ » .

وأظلمت ايام ماريوس ، وانتابه حزن شديد . لقد رأى حبيبته بعد طول احتجاب ، ولكنها اختفت كما تبدّت ، ولم يكن ظهورها المفاجيء ، الا ليزيد من لوعته ووجده

كما ان حيرته تضاعفت ، فالاسم ليس ارسولا كما ظن سابقاً ، والشيخ الخفي ، زاد غموضه غموضاً ، فمن هو من الرجال حتى يختفي من البوليس ؟ ولمَ يختفي ؟

لم يزده جافير ما صادفه من نجاح ، فقد فشل في جعل السجين سجينا ! فالضحية التي تفر هاربة هي أخطر شأناً من الجاني ، ولا جرم ان هذا الشخص المجهول الذي وقع في أحبولة الاشقياء هو صيد ثمين للاشقياء ، ولا تقل قيمته للسلطات !

وكذلك فر مونتبارناس ، ومونتبارناس عدو الامن ، وجافير يتحرق شوقاً الى سحقه وانقاذ الناس من شره .

فقد انهمك الشقي بالحديث مع إيبونين ابنة تيناردي ، ثم أغراها بالذهاب معه إلى مكان ما ، وبذلك نجا مما وقع فيه الزملاء ! اما ايبونين فلم تلبث طويلاً حتى وقعت في قبضة جافير لتشرك شقيقتها أزيلما في سجنها .

وكان فرار احد الاشقياء وهو في طريقه الى السجن ثالثة الاثافي بالنسبة لجافير . وكان هذا الشقي يدعى كلاكسو ، وقد ورد اسمه آنفاً .. ولم يدر احد كيف تمكن من الافلات .

ومثل الاشقياء امام القضاء ، ورأى رجال الامن كحيلة لا يعرفها سواهم ان يستثنوا من السجن الانفرادي الشقي بروجو . فوضعوه مع المسجونين العاديين في سجن اخر ، وراقبوه مراقبة دقيقة .

وكان أبوه نزيل هذا السجن سنة ١٨١١ ، وقد حفر اسمه على احد الابواب لما اشتهر به من الشراسة والبطش . اما ابنه نزيل السجن الحالي ، فقد كان هو الآخر يتصف بالدهاء والمكر وأنعدام الرأفة .

واللصوص الممارسون لهم طرقهم ووسائلهم لمواصلة نشاطهم حتى وهم في غيابة السجون .. ووجودهم في السجن لجريمة اقترفوها لا يمنعهم من متابعة

جهودهم لارتكاب جريمة ثانيـة .. فهم فنانون لا ينتهون من رسم صورة الا ليشرعوا في رسم صورة اخرى !

والشقي بروجو ممثل داهية ، تظاهر إبان إقامته في السجن بالبله وجعـل يشخص بنظره كما يفعل فاقـد الحجى ، او يدع أسنانه تصطك كأنه مصاب برعدة او مبتلى بلوثة !

ولكن اكتشف في اواخر شهر شباط سنة ١٨٣٢ أن الشقي الناعس الملتاث ارسل بواسطة بعض الناس وباسماء ثلاثة من زملائه، ثلاثة خطابات مختلفة كلفته مبلغاً كبيراً . وقد وجهت الخطابات الى ثلاثة اشخاص .

وبعد ذلك بايام شاهده الحارس يكتب شيئاً ، فلما حاول معرفة ما كان يكتب استعصى عليه ذلك ، فقد اختفت الورقة من يده بصورة عجيبة .

في اليوم التالي سقطت في باحة السجن الذي حشر فيه سائر الاشقياء مـن زملاء بروجو لفافة تحتوي على رسالة . ومع ان الشخص المرسلة اليه كان موضوعاً في زنزانة ، الا ان الرسالة وصلته . وكان هذا الشخص هو « بابيت » . وكان الشخص المرسل هو بروجو . وكانت الرسالة هي الرقعة التي شاهده الحارس يكتبها ولم يعثر عليها .

وتمكن بابيت بالرغم من العيون المبثوثة في كل مكان من ايصال الورقة الى فتاة سجينة . وهذه بدورها بعثت بها الى امرأة يطلق عليها اسم « ماغنون » ، كانت موضوعة تحت رقابة رجال الامن ، وكانت تغشى سجن النساء ، وتقابل إيبونين ابنة تيناردي .

وحدث أن قصرت الحجج عـن ادانة إيبونين وشقيقتها أزيلما ، فاطلق سراحهما . وما كادتا تنطلقـان من السجن حتى التقت بهما ماغنـون وسلمت الرقعة لأيبونين .

وما كذبت ايبونين خبراً بل توجهت الى المكان المذكور في الرقعة واستقصت

كل شيء عنه ، ثم اعطت ماغنون قطعة من البسكويت ، سلمتها هذه بدورها الى محظية بابيت ..

وقطعة البسكويت في عرف المسجونين ، هي رمز يعبر عن عدم القدرة على صنع اي شيء !

ووصلت القطعة الى بروجو ، وعلم بابيت بالجواب .. ومات جنين الجريمة قبل ان يرى النور !

أو أجهض الجنين.. وكان لهذا الاجهاض نتائج لم تدخل في حساب بروجو، وسوف نأتي على ذكرها ..

احتجب ماريوس عن الخلق وعاش في منأى عن الجميع ، وبينما كان في احد الأيام يستظل بدردارة ضخمة في « حقل القبّرة » ويفكر بمحبوبتـــه ، ويكاد يذوب وجداً وشوقاً. وتراءى له انه يسمع ركزاً خفيفاً فأنصت وتلفت فأبصر ايبونين تسترق الخطى نحوه متعثرة متهيبة . وكانت رغم قذارتها وتمزق طمرها تبدو وسيمة قسيمة .

ووقفت الفتاة تلقاءه، وما عتمت ان قالت : « أتعطيني ما اريد لو اطلعتك على العنوان ؟ » .

فشحب وجهه وقال مستفهماً : « عنوان مَن من الناس ؟ » .

« عنوان من يهواه قلبك ! » .

وقفز ماريوس من مكانه .. وتنفست هي الصعداء من الكرب والاعياء .

قال ماريوس : « اواه ! اطلعيني على العنوان اعطيك ما تشتهين ».

« فهلم معي إذن » .

وسارت امامه ، وجعلت تناجي نفسها وتقول : « ويحي من بائسة ! انه مسرور .. لقد سر أعظم السرور .. انه يحبها ! »

واستدارت بغتة نحوه وقالت : « لقد وعدتني .. » .

وبحث ماريوس في جيبه ، وأخرج قطعة من النقود أسقطها في يد ايبونين .

فأرخت الفتاة البائسة يدها ، وسقطت القطعة الى الأرض ، ثم رنت إليه بنظرة حزينة كسيفة وقالت وهي تنشج :

« أنا لست في حاجة الى نقودك ! » .

وزفرت زفرة محرقة واستتلت :

« أنا في حاجة الى شيء آخر ! » .

*

في ناحية «سان جرمين» قام بيت صغير مهجور ، يقع في شارع غير مطروق. وكان للبيت بابان ، باب ظاهر للعيان ، وباب خفي يقع بين جدارين ولا يتبينه انسان .

ولكن لاحظ المارة في الربع الاخير من سنة ١٨٢٩ ان المغاليق فتحت على مصاريعها ، والنوافذ زينت بالستائر ، مما اثبت لهم ان الدار المهجورة قد سكنت ، وأن من جملة ساكنيها امرأة تعنى بها .

ففي شهر تشرين الاول من تلك السنة ، قدم رجل مكتهل الى تلك الناحية واكترى الدار المهجورة ورممها واصلح ابوابها ، وحرص على اعادة ما تهدم من جدران الممرّ السرّي .

ثم احتلها مع فتاة صغيرة وخادمة متقدمة في السن دون ان يسترعي انتباه احد او يثير فضول الذين يعيشون على مقربة منها .

وكان المستأجر الجديد هو جان فالجان ، والفتاة الصغيرة هي كوزيت ، اما

الخادمة فهي عانس تدعى « توسي » ، كان جان فالجان قد انقذها من المستشفى ومن الفاقة ايضاً !

واستأجر جان فالجان الدار متستراً باسم « فوشلفين » ، وأصبح يعرف بالسيد فوشلفين . ولا ريب ان القارىء قـد تعرف على جان فالجان قبل ان يتعرف عليه تيناردي ، فجان فالجان هو الاب مادلين ، وهو فوشلفين ، وهـو كذلك السيد ليبلان ..

فماذا دهاه حتى غادر دير « راهبات البيكبس » ؟ ماذا اضطره الى مبارحة ذلك المكان الآمن الذي تقصر يد جافير عن الوصول اليه ؟ فهل جدّ شيء ؟ كلا لم يحدث شيء ولكنه وطن النفس على امر ، وآلى ان يغادر الدير ، ولو كان في مغادرته له ما يعرض حريته للخطر !

لقد قضى خمس سنين في الدير ، حصلت كوزيت اثناءها على كفايتها من العلوم ، فليخرج بها الى الدنيا الفسيحة ، لتتلقي من الحياة دروس الحياة .

وانتظر الفرصة المؤاتية . وجاءته هذه الفرصة بموت « فوشلفين » ، وانتحل الاعذار وقدم للدير مبلغاً من المال مقداره خمسة آلاف فرنك ، وغادر المكان مع كوزيت وهو يحرص ان يحمل بنفسه الصندوق الصغير الذي لا يطلع احداً على محتوياته ، والذي طالما سولت لكوزيت نفسها ان تعرف ما فيه .

واكترى ذلك البيت المهجور ، وانزوى فيه ، وفي نفس الاوان استأجر منزلين آخرين في موقعين مختلفين ،حتى يبعد عن المظنة ،فيغير مكان إقامته متى شاء.

وطفق يجوس الارباض مع كوزيت في كل يوم او يقصد حديقة لكسمبرغ كما قدمنا

وكان ايضاً في هذه العزلـة قلب مهيأ للحب ، ولم يكـن للحب إلا ان يتسلل ، فثمة روح نبيلة تنضج رقة وانسانية وإيماناً وأملاً ، تنتظر ...

أحبت كوزيت اباها – أي جان فالجان – بجامع قلبها. وتفانت في حبه. ونظرت يوماً الى وجهها في المرآة وهتفت: « ماذا ! ».

لقد خيل اليها انها جميلة، فاضطربت، وجاشت المشاعر في قلبها.

وتناهى الى سمعها بعد ايام وهي تقطع الشارع، كلمات يهمس بها رجل الى آخر، وكلهـا اعجاب وإطراء.. فتاهت نفسها. وفي مساء ذلك اليوم بالذات أرهفت أذنيها فسمعت الخادمة تقول لجان فالجان: « تبارك الله يا سيدي فقد اجاد سبك كوزيت وابدع التكوين ! ».

ما كادت تعي هذه الكلمات حتى هرعت الى غرفتها ونظرت ملياً الى المرآة وهتفت بصوت المشدوه: « عجباً ! أأنا بهذا القدر جميلة ؟ ! ».

واضطربت نفس جان فالجان، هل هذه بداية نهايته ؟ أيفقد كوزيت ؟ ايفقد الروح التي حببت اليه الحياة ؟

في ذلك الزمـان، او في تلك الفترة التقى ماريوس بها ثانية في حدائق لكسمبرغ بعد مرور ستة شهور على التقائها لأول مرة ... وكان الفرق عظيماً بين كوزيت الاولى وكوزيت الثانية.

وتكلمت العيون، وتبادلت النظرات حديث القلوب، وجبن ماريوس، واقدمت كوزيت.. وقبع ماريوس في مكانـه ورغبت كوزيت الى ابيها ان يمشيا معاً، ولما دنت من مكانه في ذلك اليوم ايقنت انه يهواها، وايقن هو ان مالكة فؤاده تبادله الحب.

وانتظرت على مضض حلول الساعة التي تخرج مع ابيها الى الحدائق، وكان الطرب يطغى على مشاعرها كلما لمحته من بعيد.

واحسّ جان فالجان بوجود الشاب، وشعر ان شيئاً يتمخض عنه الزمان ولما استمر وجده في احد الايام قال لها وهو يومض بطرفه: «ما ابله هذا الشاب»!

ولو سمعت هذه الملاحظة العابرة منذ عام لأجابت عليها دون تحفظ : كلا؟ بل هو عاقل كما يبدو وجميل ! » .

ولو سمعتها بعد عشر سنوات لقالت : «انه ابله يا ابي واكثر مما ظننت !» .

ولكنها قالت في ذلك اليوم : « من هذا الشاب ؟ » .

وكأنها ما رأته الا يومها ، وكأنها ما التفتت اليه او شعرت بوجوده !

وسخر جان فالجان من اوهامه ، وحدث نفسه قائلا : « انا الابله حتى اشك وارتاب ! » .

فيا لسذاجة الشيخوخة ! ويا لمكر الشباب !

وارتكب ماريوس خطأه ، وتبع الشيخ والفتاة الى البيتين الآخرين اللذين استأجرهما جان فالجان للتمويه . ودرى الشيخ بما جرى واخبره البواب بما طرحه عليه ماريوس من الاسئلة فهجر ذلك البيت ، وانقطع عن الذهاب الى لكسمبرغ .

وقلق جان فالجان لما طرأ على كوزيت من نحول ، وما شاب وجهها من شحوب ، فلما سألها قائلا : « ماذا بك يا حبيبتي ؟ » .

اجابت كوزيت والدمعة تكاد تطفر من عينيها : « لا شيء ! » وبعد فترة صمت قصيرة ، قالت بدورها : «وانت يا ابي ، اثمة ما يؤلمك ويقض مضجعك؟» .

فأجاب : « كلا .. كلا .. » .

هذان الكائنان اللذان احب بعضها البعض ، وكلفا ببعضهما البعض ، طفقا الآن يتألمان كل بسبب الآخر .

في تلك الايام التي تلبدت فيها سماؤه بالغيوم زار هو غار « جوندري » . وبعد تلك الزيارة بيوم واحد هال كوزيت مـــا اصاب ابيها ، فقد رأت يده اليسرى ملتهبة بجرح عميق كأن النار اندلعت فيها . فاقبلت عليـــه في لهفة واشفاق ، وضمدت جرحه بعد تنظيفه وغسله .

وطفقت في كل صباح ومساء تعيد الكرة بنفس رضية ورغبة صادقة وحنان شخص يتفانى في إظهار حبه وإخلاصه ، حتى ان جان فالجان شعر بعودة الروح ، وبرجوع تلك السعادة المولية ، وبسطوع تلك الشمس الغاربة . وتلاشت مخاوفه دفعة واحدة ، وعزب همه ، وارفض غمه .. وجعل ينظر الى كوزيت نظرته الابوية ولسان حاله يقول :

« واهاً للجرح الذي جلب الهناء! ومرحباً بالالم ان صاحبه الولاء والفداء! » .

وتفرغت كوزيت للعناية بأبيها خلال مرضه ، فلزمته طوال النهار ، وقرأت له وجاذبته شجوناً من الحديث ، حتى شعر جان فالجان انه خلق خلقاً جديداً .. فأينعت سعادته وأزهرت ، وتراءى له ان ظنونه لا اساس لها من الصحة .

واندمل جرح جان فالجان فاستأنف جولاته المسائية .

وباريس بلد المفاجآت ، وكل امرىء يطوف في شوارعها ودروبها معرّض لمثل هذه المفاجآت ، لا سيما رجل مثل جان فالجان خلق مع المفاجآت ، وعاش مغامراً ، وركب متن المخاطر والاهوال في كل مرحلة من مراحل حياته !

●

تذكر « غافروش » الصغير انه لم يطعم شيئاً في احدى الامسيات ، وتذكر ايضاً انه لم يأكل في الليلة السابقة ، وشعر بشيء غير قليل من الوهن ، وعزم على البحث عن لقمة يسدّ بها رمقه . فخرج يرود الامكنة المهجورة .. ففي مثل هذه الامكنة كان الحظ الحسن يصادفه دوماً ..

وانتهى به التسكع الى ضاحية صغيرة تكهن بأنها قرية اوسترلتز . ورأى حديقة قديمة يجلس فيها شيخ وامرأة عجوز ، ورأى ايضاً شجرة تفاح مثمرة فسال لعابه ، وخيل اليه الجوع ان حياته تكمن في تفاحة ! والشيء الذي دمّر حياة آدم قد ينقذ غافروش !

فاتجه نحوها ، وتأمل في السياج ، وتأمل الشجرة .

وسمع المرأة العجوز تخاطب الشيخ قائلة : « ايها السيد مابوف ! » . ان صاحب الدار متذمر ، وكذلك البقال وبائع اللحم والخباز ..

فأجابها الشيخ . « ومن أين لي النقود ؟ » .

وغادرته المرأة . وفكر غافروش فيما تناهى الى سمعه . واسترعى انتباهه شبحان قادمان من بعيد، احدهما يمشي مشية المسنّ ، والآخر يمشي بخفة الشباب وخيلائهم .

ولما اصبحا على مقربة منـــه ، رأى رجلاً كهلاً محني الظهر ، يتقدم ببطء وعناء ، ورأى على بعد خطوات منه شاباً ما كاد يتعرف عليه ، حتى قفز قلبه بين ضلوعه .. فقد تبين فيه المجرم مونتبارناس ، وادرك ان نهاية الشيخ العاثر الحظ قد اضحت وشيكة .. فهل يهرع لمساعدته ؟ وكيف يتسنى للضعف ان يؤازر الضعف ؟

ووثب الشقي على حين غرة ، وندت مـــن صدر غافروش صيحة رعب . وأغمض عينيه ، ثم فتحهما : ورأى رجلاً يجثم على صدر الآخر ، ولكنه لم يبصر ما توقعه ، بل ابصر الشقي يئن تحت ثقل الشيخ .

ولما بطلت حركة الشقي ، انتصب الشيخ واقفاً وامره ان ينهض ، ثم قال له وهو لا يزال قابضاً بيد من حديد على كتفه :

« كم تبلغ من العمر يا هذا ؟ » .

« تسعة عشر عاماً » .

« ولِمَ لا تعمل ؟ » .

« لأني اكره العمل » .

« وما هي مهنتك التي كنت تمتاش منها ؟ » .

« قطع الطريق على الناس وسرقة ما في جيوبهم ! » .

وخيم صمت على الاثنين ، حاول مونتبارناس اثناءه ان يتحرر من قبضة الرجـل .

وما لبث هذا الرجل ان قال : « ارفق بنفسك يا بني ، وارتدع قبل فوات الاوان . إعمل عملاً ، اكتسب رزقاً شريفاً ، رض نفسك على الخير .. إذهب الآن ، وفكر بما قلته لك .. وأود ان اسألك قبل ذهابك عما طمعت فيه ، هل اردت الاستيلاء على محفظتي ؟ هاك هي إذن ، خذها وامض بسلام ! » .

فمن كان هذا الشيخ ، الهرقلي القوة النبيل المشاعر ، الذي يقابـل الاساءة بالمعروف ؟ انه جان فالجان ، كلنا يعرف .

أما مونتبارناس فقـــد وضع المحفظة في جيب سرواله الخلفي ، وجمد في مكانه مشدوهاً يتبع شبح جان فالجان المبتعد بنظره ، ويكاد لا يصدق سمعه وبصره ..

واسترق غافروش الخطو حتى لصق به ، ثم مد يده بخفة النشال ودرايته ، فسلّ المحفظة ، ورجع بسكون الى مكمنه ..

ثم إنه رمى بالمحفظة الى الحديقة ، فسقطت تحت قدمي الأب مابوف ، فانحنى الشيخ والتقطها . وهتفت الأم بلوتارخ وهي ترفـع رأسها الى السماء : « انها هبة السماء جادت علينا بها العناية الربانية ..

قبل ذلك بشهور خمسة ، وعندما كانت كوزيت تعاني الأمرين من وحدتها وتبعد شيئاً فشيئاً عن أبيها « جان فالجان » بمشاعرها وأحاسيسها .. في ذلك الوقت كان ماريوس ينحدر بسرعة الى الهوة وكان يقول وصدره يكاد من الجوى ينشق : « أواه لو قيض لي ان أراها مرة قبل موتي ! » .

وفي ذلك الوقت بالذات مرّ بجانب البيت ضابط وسيم انيق عرفـه القراء باسم تيودول وعرفوا فيه قريباً لماريوس .

ورأته كوزيت ، وجذبها إليه جاذب العزلة ، وجعلت تخرج الى حديقة البيت المهملة كل يوم في نفس الساعة التي رأته فيها ، لتملي طرفها بمرآه مرة ثانية .. ولاحظ أصدقاء الشاب المليح ما كان يبدو على الفتاة كلما مر زميلهم ، فقالوا له :

« ويحك يا تيودول ؟ أما ترى الحسن يدعوك ؟ » .

فأجاب ساخراً : « وهل لدي من الوقت ما يتيح لي تلبية نداء كل ذات عينين جميلتين تنظران ، وتمضان ، وتدعوان ؟ ! » .

لو رآها ماريوس تحدج غيره ، لما قال شيئا بل لقضي نحبه أسى ولوعة !

١٠

كان من عادة جان فالجان في أوقات متباعدة أن يذهب في رحلة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام الى مكان مجهول . ففي نيسان من ذلك العام سافر كعادته بعد أن ودع كوزيت وأوصى الخادمـــة بها خيراً . ولم يكن يجنح الى السفر إلا كلما أعوزه المال .

ففي ذلك المساء – في مساء اليوم الذي انطلق جان فالجان الى مكانـــه المجهول – جلست كوزيت الى البيان ، وطفقت أناملها الرقيقة تداعب اصابع العاج في اجمل أغنية عرفتها البلاد وتعلقت بها قلوب العباد ، وهي أغنية – الصياد والغابة – عندما سمعت حركة في الحديقة ..

وكانت الساعة تقارب العاشرة مساء . كان أبوها غائباً ، وخادمتها نائمة . فمن يا ترى أمّ المكان ؟ من ؟ وعهدهـــا بالناس يبتعدون قدر الامكان ولا يأتـــون ؟ !

وهرولت الى الشرفة ، وأجالت الطرف في الظلام الدامس ، فخيل اليها انها ترى خيالاً ، وأن الخيال الذي تراه يضع على رأسه قبعة مستديرة !

وبينما كانت في مساء اليوم التالي تتهادى في الحديقة اذ بها تسمع ركزاً مماثلاً ، فتضطرب شديداً ، وتدور على عقبيها خائفة مذعورة .

وأشرق القمر في تلك الفينة ، ورأت بجانب ظلها الممدود على العشب ظلاً هائلاً لرجل يضع على رأسه قبعة مستديرة !

ووقع حادث آخر بعد ايام ..

ففي الحديقة ، وفي مكان قريب من المدخل السرّي ، كان يستوي مقعد حجري يستطيع المارّ ان يلمسه من خلال السياج .

وقد اقتعدته كوزيت في احدى أمسيات نيسان البليلة النسيم ، واخذت ترود عالم الفكر ، وتشعر بتغلغل الانقباض والأسى إلى قلبها .

ونهضت كوزيت من مكانها وسارت ببطء في الحديقة ثم آبت راجعة . وما كادت تعاود الجلوس حتى لحظت حجراً كبير الحجم موضوعاً بقربها. فاستغربت الأمر ، وعجبت كيف لم تره من قبل . ولكنها أيقنت انها لم تره لأنه لم يكن موجوداً في مكانه منذ دقائق .. فمن جاء به ؟ ومن وضعه ؟

وفي الصباح فتحت عينيها المتكسرتين على خيوط من ذهب تتدفق غزيرة دافئة من النافذة ، فتثاءبت ، وتذكرت، وما هي إلا دقيقة حتى كانت تنصلت الى الحديقة وتدنو من الحجر فترفعه بجهد من مكانه .

وندت من صدرها آهة عجب ودهشة ، فقــد رأت تحته ظرفاً صغيراً . فالتقطته وفضته ونظرت في محتوياته ..

وبحثت في الصفحات علّها تعثر على اسم ، وقلبت الورقات بين يديها .. لمن هذا الخطاب ؟ ومن ارسله ؟ انه ولا غرو لها ، وقد وضعه كاتبه في المكان الذي كانت تجلس فيه .. ولو لم يكن لها لكتب مرسله اسم غيرها ..

وترددت حيرى قلقة .. هل تقرأ ؟ هــل تتلو الخطاب العجيب ؟ وغلبها الفضول على امرها فنشرت الورقات ، فاذا فيها مكتوب :

★

الحب هو تحية الملائكة للنجوم

....

ما اشد حزن الروح ساعة يحزنها الحب

....

ما اكثر ما ينقلب المحبوب الى معبود

....

افترارة ثغر عن بسمة خاطفة تكفي

لحمل الروح إلى قصور الاحلام

....

الحب والروح عنصر واحد . والحب كالروح

شعلة مقدسة ... هو كالروح

لا يفسد ، ولا يتجزأ ، ولا يتلاشى ..

انه ذؤابة شرارة في داخلنا ، ذؤابة متقدة

لا تخمد ولا تنطفىء .. إنه ذؤابة نشعر

بها في نخاع العظم ، ونراها تشع في

عنان السماء

....

الله كمال السماء ، والحب كمال الانسان !

....

لكل منا كائن نستنشق عبير الحياة من ثناياه ،

فاذا زال من حياتنا انقطع الهواء الذي نتنفس ..

فتكتم انفاسنا ، ويحتقن الدم في وجوهنا ، ونموت !

والموت بسبب الافتقار الى الحب امر مروّع — انه

اختناق الروح !

عندما يصهر الحب شخصين في بوتقة

الاندماج المقدس ، فان سرّ الحياة يتكشف لهما ،

ويصبحان جناحي روح واحدة فردة !

....

اذا اضفتْ عليك امرأة فيضاً من نورها ،

اضاعتك .. واصبحت عاشقاً متيماً ..

وعليك عندئذٍ ان تفعل شيئاً واحداً ،

ان تفكر فيها ليل نهار ، حتى تضطر هي

الى التفكير فيك !

....

ما يبدؤه الحب لا ينهيه الا الله

....

اذا كنت حجراً ، فكن ممغنطاً جذاباً

اذا كنت نباتاً ، فكن ذا حساسية

اذا كنت رجلاً ، فكن حباً

....

اما زالت « هي » تأتي الى لكسمبرغ ؟

كلا يا سيدي ، أما زالت تقطن هذا المنزل ؟

كلا يا سيدي ، فقد بارحته الى ناحية مجهولة !

ألا ما اشق الجهل – جهل امرىء بعنوان روحه !

....

انت الذي تتألم لأنك تحب : كن

مسرفاً في هواك .. فان مت

بسبب الحب ، حييت به ،

فهو الخلود ، هو السرّمد !

الويل للذي يحب الأجساد والأشكال والمظاهر

فقط .. فالموت يسلبه من جميع هذا !

حاول ان تحب الروح ، فسوف تجدها ثانية !

●

بهتت كوزيت ، وغمر روحها فيض زاخر من نور عجيب لم تر مثله قط أو تشعر بما يدانيه أو يضاهيه .. ففي كل سطر معنى ، وفي كل كلمة مغزى ..

إن هذه الكلمات هي قطرات روح معذبة ! إن كاتبها كتبها وجسده في القبر واصبعه في السماء !

فمن كتبها ؟ هل هناك سواه ؟ هو ! ..

ومر بعد أن أعادت تلاوتها للمرة الثالثة ، الضابط تيودول ، فرفعت إليه وجهها ، وحدجته بنظرها ، ما رأته من دمامة جماله ! إنه قبيح ! أليس كذلك ؟ إنه أقبح الرجال ! أليس كذلك ؟ وكل رجل آخر غدا في نظرها قبيحاً دميماً بعد اطلاعها على تلك الصفحات العزيزة !

لقد تفتحت لها العيون – عيون الجنة – فأشرق محياها بنور سماوي ، وحلقت بفكرها وخيالها في أفق بعيد ...

وناجت نفسها الثملة قائلة : « أجل .. أجل .. » إنه هنا ، ولا جرم أن الملائكة جاءت به إليّ » .

وجاء المساء وكوزيت ملازمة حجرتها ، تفكر ولا تشاء ان ينتزعها احد من حلمها العذب الذي حلقت فيه على حين غرة .

وفجأة داخلها شعور خفي يداخل المرء عادة عندما يقترب شخص منه ، وان كان لا يبصره .

فثلت رأسها وانتصبت .

وكان هو ...

كان حاسر الرأس ، وبدا لها شاحباً نحيلاً. وقد ظلل الفسق جبهته المريضة الرائعة ، وغمر عينيه بظلمة يتخللها خيط من ضوء باهت كليل . وكمن وراء روائه الذي لا تضاهيه طلاوة ، شيء من الموت وشيء من الليل ، وأضاء وجهه بنور اليوم المحتضر وبفكرة الروح الراحلة !

وأحست بالدوار ، ولكنها لم تسقط . ونكصت ببطء الى الوراء لانها شعرت ان جاذبا طفق يجذبها الى الامام .

خيل اليها ان نظراته تكاد تلتهم وجهها .

وأنصتت لصوته الهادىء النبرة يقول : « أغفري لي قدومي فقلبي يتفجر ! لم استطع مداومة الحياة التي عشتها طوال الشهور المنصرمة ، فجئت .. هل قرأت ما كتبت ؟ هل تعرفين من أن ؟ هل تتذكرين نظراتك التي وجهتها إلي في لكسمبرغ ؟ هل تتذكرين اليوم الذي مررت فيه امامي ؟ لقد كان ذلك في الثاني من تموز ، أي منذ عام .. » .

وصمت قليلاً ورنا اليها ، ثم تابع يقول :

« وتبعتك .. تعقبت خطواتك .. واختفيتِ .. ولم أعد أراك .. واهتديت إلى مقامك الجديد فشرعت أحج اليه في الليل .. فهل خفت ، هل تولاك جزع وهلع ؟ .. أنت ملاكي .. فدعيني آتي ، دعيني آتي .. » .

وهتفت من الأعماق : « أماه .. أواه ! .. » .

وتداعت وتهاوت وكأنها تسلم الروح !

وتداركها .. وسقطت .. واحتواها بين ذراعيـــه .. وشعر أن رأسه استحال الى جمرة ، وأن الدخان ينبعث منه فيملأ الفضاء ..

وفتحت الحورية عينيها ، ورنت اليـــه بطرف مخضلّ ، ثم تناولت يده فوضعتها على مكان القلب .. ولامست راحته نبضاته ، فابتدرها قائلاً : « فانت تبادلينني الحب اذن ؟ » .

فأجابت بصوت خفيض كأنه نفس لا يكاد يسمع : « اصمت أنت تعرف ذلك ! » .

وأخفت وجهها المخضب بحمرة الحياء والخفر في صدر الشاب . فتاه الفتى عجباً ، وثملت نفسه برحيق الحب ، وأحس بالسعادة التي حرم منها ، وأحس بأنه ظفر بالمنى !

وترنح في مكانه ثم تهالك على المقعد الحجري. وجلست هي الى جانبه .

وصمتا ! وتلألأت نجـــوم السماء .. فكيف تلاقت الشفاه ؟ ! كيف يغرد العصفور ؟ كيف يسقسق العندليب ؟ كيف يذوب الثلج ؟ كيف تتفتح براعم الورد ؟ كيف يزهر شهر الربيع ؟ كيف يكتسب الفجر بياضه من وراء الاشجار على ذراري التلال المرتعشة !

قبلة واحدة فحسب !

وخفق القلبان ، وارتعش الجسدان ، وتلاقي النظران الوامضان ،

واشتبكت يده مع يدها ، وضغط على يدها وضغطت على يده ..

ومست ركبته ركبتهـــا مساً خفيفاً ، فاهتز قلباهما ، ورجف جسداهما ، وكأن تياراً سرى في هذين الجسدين .

لقد تفتح القلبان على مصراعيهما ، حتى أصبح الفتى بعد ساعة هو الذي يضم بين ضلوعـــه روح الفتاة ، وأصبحت الفتاة هي التي تضم بين ضلوعها روح الفتى ..

لقد تغلغل كل منهما في حنايا الآخر .. في سويدئه .. في أعماق رُوعة ..

ولما انتهيا .. لما سكبا ما تجمع .. لمـــا أراقا ما استقر في المهجة .. ألقت كوزيت رأسها على كتفه وسألته :

« ما اسمك ؟ » .

قال : « اسمي ماريوس .. وما اسمك ؟ » .

« كوزيت » .

★

من هي ماغنون التي ورد ذكرها في صفحات سابقة ؟ إنها المرأة التي انجبت سفاحاً طفلين، كان ابوهما الشيخ جيلينورمان ، جد ماريوس . وقد ذكرنا انه عين لهما مبلغاً تتقاضاه امهما من وكيله في نهاية كل شهر .

وتيناردي ! من لا يعرف تيناردي ؟

وزوجه ! من لا يعرفها ايضاً ؟

لقد ولـــد للزوجين المتفقين على المنكر ، المتآمرين على المجتمع ، ولدان ذكران إبان إقامتهما في « مونتفرمي » .

ونزح الزوجان الى باريس ، وعاشا في ذلك المنزل المشبوه .

واتفق أن اجتاح البلد وباء فتاك هو داء الخانوق الوبيل ، كان من ضحاياه

طفلا ماغنون . فلهفت نفس الأم ، لا لضياع فلذتيها بـل لضياع الجعل الذي تتقاضاه !

واجتمعت المرأتان بمحض الصدفة ، وما أسرع مـا أبرمتا صفقة ، وأنجزتا تجارة .. فأخذت ماغنون طفلي تيناردي مقابل اتاوة تؤديها في نهاية كل شهر مقدارها عشرة فرنكات !

وهكذا استقامت الأمور للسفاحين - تلك المتنمرة تخلصت مـن ولديها ونفقتها ، وغنمت من وراء ذلك عشرة فرنكات في الشهر الواحد ؛ وهـذه المتهالكة على العروض ، ذات الماضي المذموم والحاضر المشبوه ، ضمنت نقود الشيخ جيلينورمان .

وتعاقبت بضع سنين ، وقبض جافير على تيناردي ورفاقه . وكان هـــذا نذيراً بأفول نجم ماغنون. فقد ورطت نفسها التي تمالئها على الشرّ في ما لا تحمد عقباه ، فأعطت إيبونين الرقعة كما تقدم وكانت موضوعة تحت المراقبة ، فهي من الأشخاص المعروفين لدى البوليس ..

وما كادت تمضي أيام حتى دهمها رجال الأمن فألقوا عليها القبض ، وكان الصبيان يلعبان في ساحة قريبة . فلما رجعا ، ألفيا الباب موصداً ، فاحتارا في أمرهما واستخرطا في البكاء .

وجاءهما جار له بماغنون معرفة، فأعطاهما ورقة كتب فيها اسم: « السيد بارج » وأوصاهما أن يطيعا « أمهما » فيذهبا الى الرجـــل بعد أن يهتديا إلى مسكنه بالسؤال ..

فانصاع الغلامان ومضيا في سبيلهما يسألان ويستفسران .

وعصفت الريح بغتة ، فأفلتت الورقة من يد الغلام الممسك بها.. ولم يستطع أن يعثر عليها .

وتاها .. وهاما على وجهيهمـــا ، وأسلما نفسيهما للصدف تأخذهما الى حيث تشاء .

•

كثيراً ما يواكب الربيع في باريس ، ريح شمالية تهرأ الأجساد وتجمد الأطراف .

وفي سنة ۱۸۳۲ — في ربيع تلك السنة تفشى أعظم وباء عرفـــه العصر ، وهبت على البلاد أعاصير لاذعــة نافحة .. إلا أن باب الأحداث الذي فتح في تلك السنة ليستقبل ضحايــــا الكوليرا ، كان اعرض واكثر اتساعاً من باب البرد القارس .

ففي احدى تلك الأمسيات التي كانت العاصفة في أوج شدتها ، تزأر وتزمجر وتنوح احياناً ، وقف غافروش الصغير وهو يضحك هازئاً من ارتعاشة جسده الصغير ، تلقاء دكان حلاق يصنع الشعر المستعار ، وقد احاط عنقه بشال نسائي حصل عليه بطريقة ما .

وكان يتظاهر بأنه يتأمل الواجهة ، ولكنه كان في الحقيقة يفكر بالطريقة التي يستطيع ان يختلس بها قطعة مـــن الصابون ليبيعها بدرهم ويشتري طعاماً لافطاره !

وانهمك الحلاق في عمله ، وجعـــل بين الوقت والآخر يحدج غافروش بنظرة شك .

وبينا الفتى في وقفته تلك ، دلف الى الدكان طفلان احدهما يناهز السابعة ، والآخر لا يجاوز الخامسة ، وطلبا من الحلاق شيئاً ، ولعلهما طلبا طعاماً او نقوداً !

واستدار الحلاق نحوهما. زاجراً فخرج الطفلان بخطواتهما المتعثرة وهما ينتحبان .

وهطلت شآبيب السماء ، فأغرقت الطفلين. وأتبعهما غافروش بنظره فارتاع لما اصابهما ، واندفع وراءهما فوضع يداً على رأس كل منهما وقال ! « الى اين انتما ذاهبان ايها الصغيران ؟ » .

فأجابه الأكبر : « لا يوجد لنا مكان ننام فيه » .

قال : « هذا امر يسير ، فاتبعاني » .

وتبعه الطفلان ، ومشى هو قدماً في طريق الباستيل . وصادفته متسولة صغيرة تصطك ركبتاها العاريتان من البرد ، وينكمش لحم عنقها المكشوف . فخلع عنه شاله وناولها اياه وهو يقول : « لا حاجة لي به ، فخذيه ، أدفئي بضيمك يا فتاتي ! » .

وأرغت العاصفة في تلك اللحظة وأزبدت ، فارتجف الفتى ، وسرت في بدنه قشعريرة مثلوجة .. الا انه تضاحك هازئاً ...

فهل شاءت هذه الغيوم الخبيثة ان تقابل الاحسان بالضرر ؟ هل أغضبتها تضحية غافروش بشاله ، فعزمت على التنكيل به ؟ !

وتوقف لدى بائع خبز . وضم اليه الطفلين بعطف وحب ، ثم بحث في جيبه وأخرج درهماً وطلب خبزاً .

ولكن البائع ، وقد رأى أمامه اطفالاً ، أعطاه خبزاً اسود اللون يابساً ..

فصاح غافروش وهو يعيده : « اليك الخبز ... أتغش أطفالاً ؟ أعطني خبزاً أبيض ، واقطع الرغيف الى اقسام ثلاثة » .

ولما فعل الرجل ذلك ، تناول غافروش القطع الثلاثة فأعطى اكبر الصبيين أكبرها ، واعطى الصغير القطعة التي تليها ، واستبقى لنفسه أصغرها .

وأقبل الصغيران على طعامهما منهومين متلهفين ، فقد مضى عليهمـا النهار

دون ان يتبلغا بلقمة وقضيا ساعـات وساعات ، وهما يهيان في الطرقات ، ويلتهمان الأطعمة بالنظر والشم فحسب ، ولا ينالهما منها شيء !

وانبعث صوت من احد المنعطفات يقول : « غافروش ! أهذا أنت ؟ » .

وتلفت الصبي ، فرأى مونتبارناس ، فحياه بصوت مرتفع

الا ان اللص عجل يقول : « أصمت .. أصمت .. » .

ثم سبقه الى ناحية مظلمة وقال همساً : « أتعرف الى أين انا ذاهب ؟ »

« إلى المشنقة ! » .

« بل لمقابلة (بابيت) »

« ولكنه يرسف بالقيود والأغلال ! ».

« لقد فرّ من السجن .. » وجعـل مونتبارناس يشرح له باقتضاب كيفية هربه . ثم عطف على الحادثة التي وقعت له منذ أيام ، فرواها لغافروش ، وأعرب له عن دهشته لاختفاء المحفظة من جيبه !

ولما أنهى حديثه سأله قائلا : « وأين تمضي يا غافروش بهذين الصغيرين ؟ » .

« الى منزلي » .

« منزلك ؟ » .

« أجل ، منزلي ! » .

« وأين هو ؟ » .

« في جوف الفيل !

« وكيف تصل اليه ؟ كيف تدخل ؟ » .

« بطريقة ما ! » .

« فهناك اذن ثغرة ؟ » .

« أصبت ، ولكن اكتم الامر ، فالبوليس يجهل ذلك ! » .

وافترقا ، فذهب مونتبارناس في سبيله ، وواصل غافروش ورفيقاه تقدمهم نحو الباستيل .

وكان في الركن الشمالي من بناء الباستيل تمثال قديم لهيكل فيل عظيم ، احتل في الماضي مكانه في أذهان الناس لما رمز اليه ، ثم أنسي أمره فلم يعد يحفله احد او حتى يراه ، ولو مر على مقربة من مكانه .

الى هذا «الفيل» القديم الذي يرتفع أربعين قدماً تقدم غافروش والطفلان . وكان كل طفل يلجأ اليه ليلاً لينام ، او يلجأ الى غيره من النصب الاثرية يعاقب ويسجن !

وتسلل غافروش من ثغرة في السياج الى الساحة التي تشتمل على النصب ، وساعد الصغيرين على الدخول .

ورفع من جانب السياج سلماً خشبياً ألقاه على احدى قوائم الفيل الخلفية ، وما عتم ان تسلقه وساعد الطفلين على الصعود . ثم دخل وهو يجرهما وراءه ، في ثغرة مظلمة مخيفة تقع في مكان الامعاء .

ورأى الطفلان نفسيهما في غرفة ضيقة مستطيلة . وسمعا دليلهما يطلب اليهما ان يجلسا ، ثم ان يزحفا الى الداخل ، حيث وضع الغلام فراشاً من قش يابس وبعض الاغطية ...

تلك كانت غرفة غافروش.. تلك كانت ملاذ الشريدمن العواصف والامطار والصقيع .. وفيها نام الاطفال الثلاثة .

وفي الساعة التي اخذ الفجر يبلج فيها ، ارتفع صوت ينادي على غافروش، فعرف غافروش المنادي ، فسارع الى الهبوط ليجد مونتبارناس في انتظاره .

وابتدره الشاب قائلا : « اسرع يا غافروش فنحن في حاجة اليك » .

واندفع الاثنان في اتجاه شارع « سان انطوان » فاجتازا بائعي الخضام والفواكه الراقدين تحت عرباتهم وعجلاتهم ، فلم ينتبه اليهم احد منهم ، فنور الضحى للمتعَب أعمق من نوم المساء !

★

ماذا حدث في السجن ؟

إتفق بابيت وبروجو وغيلمير وتيناردي – بالرغم من انعزال الاخير ، على الهرب ، وكان ذلك بعد ارجاع بروجو إلى السجن العام الذي زج فيه الآخرون . وكان تيناردي في غرفة تعلو الغرفة التي احتلها زملاؤه . أما السجن فقد احاط به سور مرتفع ضخم .

ففي الليلة التي فر فيها بابيت ، علم بروجو وغيلمير أن زميلهما الهارب ينتظرهما في الشارع برفقة مونتبارناس . فقاما الى المدخنة يثقبانها بمهارة ، وكان يفصلهما عن الأرض مسافة تقدر بستين قدماً ، فربطا بالثغرة التي احدثاها حبلاً نسجه بروجو خفية ، واستعانا به على النفاذ الى سطح الحمامات ، ومن ثم الى الفناء حيث عبرا فيه واقتحما غرفة البواب . وولجا غرفة اخرى ، عالجا بابها الحديدي حتى فتحاه . وبوثبة واحدة ألفيا نفسيهما في الطريق العام ، مع بابيت ومونتبارناس .

ولكن الحبل الذي استعانا به قطع قسم صغير منه وبقي متصلاً بالمدخنة .

في تلك الليلة بالذات انذر تيناردي بطريقة خفية ، فظل ساهراً يترقب ويتربص . وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لمح شبحين يمران على السطح فأيقن أنهما صديقاه وزميلاه بروجو وغيلمير .

وكان تيناردي معروفاً لدى سلطات السجن بأنه قاتل سفاح ، لهذا فرضت عليه رقابة دقيقة ، وأمر الجندي المكلف بالحراسة أن يكون مسلحاً ببندقية محشوة . وكان مقيد الرجلين بسلسلة ثقيلة من الحديد . إلا انه طلب الأذن من السلطات ان تسمح له بالاحتفاظ بقضيب من الحديد ليعلق به الخبز على الحائط زاعماً انه بهذا يدرأ عن خبزه الجرذان الجائعة !

في الساعة الرابعة وجد الجندي منطرحاً على الأرض كالميت والقيود ملقاة بجانبه ، والسقف مثقوب ، وتينادري غير موجود . كما وجدت زجاجة فيها آثار خمر ممزوجة بمخدر ، كان المجرم الهارب قد أغرى الجندي على احتسائها .

وفي الساعة الثالثة اعتلى تينادري بناء شاهقاً مجاوراً للسجن . وربط الحبل الذي احضره معه بافريز السطح وتعلق به .ونزل ببطء ، ولكنه لم يصل الى الشارع ، فنظر الى اسفل ، فهاله المنظر . وبقي متعلقاً بالحبل ، واضعاً قدميه على طنف حجري رقيق .

ودقت الساعة اربع مرات ، وارتعش تينادري – فبعد ساعة يمزق الفضاء ذلك الصوت المروع الذي يعقب فرار سجين ، وصح ما توقعه ، وعمت الحركة ارجاء السجن ، ودوت قعقعة السلاح ، وشعت الأنوار .

ورأى فجأة في الشارع تحته رجلاً يقف في جوار الحائط ثم ينضم اليه رجل ثان ، ثم ثالث ، ثم رابع . وشرع الرجال يتداولون ، وقرّ رأيهم في النهاية ان يغادروا المكان قبل ان يراهم الجنود ..

وسمعهم تينادري ينمون عليه عجزه وقلة حيلته ، فلهفت نفسه . الا ان خاطراً مفاجئاً دار بخلده فأطلق يداً من يديه وسحب بها شيئاً من جيبه فرماه. فأجفل الرجال ، ورفعوا ابصارهم ، فرأوه . وقال احدهم: « سنرمي اليك بحبل فاربطه وانزل » .

فأجاب تينادري : « وكيف افعل ذلك وانا مشلول الحركة ؟ » .

قال الرجل : « أبذل وسعك ، فما لنا حيلة للوصول اليك » .

قال : « اني متجمد الاطراف من وطئة البرد » .

وساد الصمت ، وسمعهم تينياردي يتجادلون ، وسمع مونتبارناس يقول : « لا مندوحة لأحدنا من تسلق الجدار » .

وسمع بابيت يجيب : « وكيف يتسنى لنا الصعود الى الطباق الثالث ؟ » .

وقال بروجو : « لن يتسلق الحائط إلا غلام » .

فهز مونتبارناس رأسه وقال : « انا ذاهب ، فانتظروني » .

واندفع في طريق الباستيل بسرعة خاطفة ..

ومرت ثماني دقائق ، كانت بمثابة ثمانيـــة آلاف سنة لتيناردي ! ورجع مونتبارناس اخيراً يرافقه الغلام غافروش .

وما كادا يقتربان من الرجال الثلاثة حتى قال غيلمير موجهاً الخطاب الى الصبي : « هل انت رجل ؟ » .

فهز غافروش منكبه وقال : « ان صبياً مثلي هو رجـل ورجالاً مثلكم هم صبيان ! » .

فقال بابيت : « انك حاضر البديهة ذلق اللسان يا غافروش ! » .

وقال الغلام : « وماذا ترومون مني ؟ » .

فأجابه مونتبارناس : « ان تتسلق الحائط ! » .

« واين الحبل ؟ » .

« هاك هو » .

ورفعه غيلمير ، وتمسك الصبي بالحجارة الناتئة ، وجعـــل يشد الحبل الى

الحائط . وألقى نظرة الى اعلى فتبين اباه ، فخفق قلبه ، ومـــا هي الا دقيقة حتى كان يعتلي السطح ويناول اباه الحبل

وهبط تيناردي ، وكانت اول عبارة فاه بها هي :

« والآن ، من نأكل ؟ » .

ولا يغرب عن البال معنى هذه العبارة المفزعة التي تجهر بالرغبة في القتل والسرقة .

وقال بابيت رداً على سؤاله : « لقد ذهبت إيبونين لمراقبة بيت بعيد عـن النواحي الآهلة ... » .

فقاطعه غيلمير قائلاً ، ولكنها بعثت بمـــا ينبيء عن تفاهة الصيد في ذلك البيت » .

وقال تيناردي : » ان إيبونين مأفونة ناقصة العقل ، وقد تكون مخطئة في حدسها » .

وقال بروجو : « أجل .. أجل .. » .

وكان غافروش قد نزل هو الآخر ، ووقف عن كثب يسمع ، وما لبث ان مضى في سبيله .

ولما غاب عـن الابصار ، انتحى بابيت بتيناردي جانباً وقال : « اتعرف الفتى الذي انقذك ؟ » .

« كلا ! » .

« انه ابنك على ما يخيل اليّ » .

فقال ، تيناردي دون اكتراث : « هل تظن ذلك ؟ اني لا أعرفه كثيراً ، فعهدي به بعيد ! » .

ذرنا نرأف بالطريد ، ذرنا نشفق على الطريد الذي هو منا ونحن منه ، بل الذي هو نحن بالذات ! فمن انا الذي اخاطبك ؟ من انت الذي تنصت الي ؟ ومن اين جئنا ؟ وهل نحن على يقين من أننا لم نرتكب وزراً قبل ان نكون؟.. ان الدنيا شبيهة بالسجن .. ومن يعلم ، من ؟ ان الانسان ليس سجين العدالة الالهية ؟ .

انظر بتمعن الى الحياة ، انها وجدت بكيفية تجعلنا جميعاً نشعر بالعقاب في كل مكان .

هل أنت رجل محظوظ ؟ .. انت حزين ، انت متحسر ! بالأمس كنت ترتعد خوفاً على حياة مريض ، واليوم ها انت ذا ترتجف خوفاً على نفسك . غداً يثير المال بلبالك ، وبعد غد تمضك قرية مرجف ، وفي اليوم الذي يليه مصيبة صديق ، ثم الطقس ، ثم شيء خسرت ، ثم متعة أنبك عليها ضميرك ، ثم مسئلة وطنية .. هذا باستثناء عناء القلب ومشاق الفؤاد ..

فكلما تبعثرت غمامة ، تجمعت اخرى .. مع العلم انك من اولئك المحظوظين ..

فهل هناك رجل سعيد ؟ وكيف نقسم الانسان ؟ هل نقسمه الى فئتين — المنير والمظلم ؟ هل نقسم الدنيا الى قسمين النور والظلام ؟

فإن توخينا انقاص عدد الذين يعيشون في الظلام ومضاعفة عدد الذين يعيشون في النور ، يخلق بنا ان لا نكف عن طلب العلم — العلم والعرفان — فان علمت انساناً القراءة ، أشعلت قبساً ، وكل كلمة يكتبها هي شرارة يقدحها .

ولكن النور لا يعني لمسرّة ، فثمة آلام تتخلل الاشعاع .. واللهب عدو الجناح .. واعجوبة العبقرية هي الاحتراق والتحليق رغم النور والنيران .
ولا تلاشي آلامك المعرفة والحب ، فالدموع مستهل كل نهار ... والمضيء

بنور المعرفة والحب يبكي ساعة تندحر جيوش النور .. فهو يبكي في الظلام والظلام !

★

أدرك القارىء ولا غرو ان إيبونين تعرفت عـــلى سكان البيت المهجور ، ولكنها كتمت الأمر وأرسلت الى الاشقياء اشارة فهموا منها أنها ضلت ولم تهتدِ الى الرجل .. فهي تعرفهم وتعرف انهم اجتمعوا على رأي واحد خبيث – ومتى انفلقت بيضة طغمة فاسدة شريرة عن شر مستطير ، فالويل للضحية ثم الويل !

وشاهد الحب هو اللحظ .. وشاهد البغض هو اللحظ ! فقد جلـّت نظرها من ماريوس – هذه الفتاة البائسة – وكانت تبيت على الخسف ، وكانت تغالب السقم ، وكانت ترى ما ترى من جور أبيها وفسقه ، ومـع ذلك فلم تفقد كل انسانيتها ، وقادت ماريوس الى بيت محبوبته .

فيا عجباً ! أبنت تيناردي تفعل هذا؟ أتدرأ ابنة تيناردي الشر عن كوزيت وولي ّ أمرها ، وتدفع اليها من يهواه قلبها ؟

وهكذا اقتحم ماريوس حديقة كوزيت كما اقتحم روميو حديقة جولييت. وكان الأمر أسهل له وأيسر . فروميو اضطر الى تسلق حائط مرتفع ، أما هو فلم يكن عليه إلا ان يخترق موطن الضعف في السياج .

ومنذ تلك اللحظة المباركة التي ختم الحب فيهـــا على قلبي العاشقين بقبلة ، طفق ماريوس يرد المكان كل ليلة . ولـــو شاءت الصدف أو تقع كوزيت في حبائل ثعلب من الرجال ماكر مخاتل، لقضي عليها وقد مرت حياتها شر مدمر ، فثمة نفوس كريمة تهب كل شيء وتعطي أي شيء ، وكوزيت كانت من ذوات النفوس السخية التي لا تبخل ان طلب منهـــا ، ولو كان في الطلب بذل النفس والروح .

فيا أيتها الروح النبيلة : لكم تضحين ! أنت أيتها الروح تبذلين ذاتك ، اما نحن فنأخذ الجسد . ولا يبقى لك من بعد ، الا القلب لتنظري اليه في الظلام وليرتعش جسدك الغضّ مما ألمّ به !

فالأمور الوسط لا يعرفها الحب ، فهو اما ان ينقذ واما ان يحطم .. الحب حياة ان لم يكن حتفاً . وشاء رب السموات ان يكـون الذي بلته كوزيت ، حباً سامياً منقذاً .

ومرت أيام ايار والحبيبان يجتمعان في كل أصيل . وخيل لكوزيت إبان هذه الأيام ان ماريوس كان له تاج ، وخيل لماريوس ان كوزيت كان لها دارة تحفّ بها او هالة تنبثق بهاء وسنى من وجهها !

وتخلل لقاءها — ضم ، وعناق ، وضغط ، ورعشة تأخذ البدنين ، وهزة تصيب الشابين ، وشرود ، وهمس ، وضحك ، وبكاء — ولكن كان هنـــاك مسافة او فجوة تفصل بين الاثنين ، ولم يحاول ماريوس ان يجتازها او يخترقها . وكانا يجهلان ما يوجد هناك . وشعر ماريوس أن هناك عقبة — طهارة كوزيت — وشعرت كوزيت ان هناك سنداً وعضداً — اخلاص ماريوس .

وكانت اول قبلة ، آخر قبلة .. واكتفى الفتى بلثم اذنها ، او لمس جبهتها ، او استنشاق أرجها .. فكوزيت بالنسبة له عبير وليس امرأة ، فهو يستنشقها كما يستمد الحياة بالتنفس . ولم تبخل عليه كوزيت بشيء ، ولكنه لم يطلب شيئاً !

وانحسر مرة رداء كوزيت عن ساقين عاجيين منسجمين ، فأشاح ماريوس ولم ينظر !

فماذا جرى بين هذين الكائنين؟ لا شيء البتة ، لقد كانا يعبدان بعضهما البعض .

وتاها في هذا الفضاء الشاسع الذي حلقا فيه بأجنحة ملائكة ، فغرب عنهما ما كان يعيث في باريس ، ولم يذكرا الوباء المريع الذي كان يقضي عـلى المئات والآلاف .

وأخبرها ماريوس في أحد الأيام أنه يتيم، وان أباه الراحل بطل من ابطال فرنسا ، وانه يعتاش من الكتابة ، وأنه على طرفي نقيض مع جده ، وأنه يحمل لقب بارون.. فلم تحفل ذلك جميعاً ، ولم يحظ اللقب باهتمامها، فماريوس لها هو ماريوس ، اما اللقب فهي لا تدري كنهه ولا ماهيته ، وهي لا تود ان تدري !

وانشأت بعد ذلك تخبره بأنها نشأت في دير الراهبات، وأن امها قضت منذ سنين ، وأن اباها يدعى فوشلفين ، وأنه طيب لطيف يرعاها ويحدب عليها ولا يرد لها مطلباً. وانه يمين المحتاج، ويقيل عثرة الكابي، وإن كان هو الآخر فقيراً .

ولكنهما لم يذكرا قط الحادثة التي وقعت في منزل غوربو . ولم يكن كتانهما مقصوداً ، بل كان بحكم جهل كوزيت حقيقة ما حدث ، وبرغبة ماريوس في تجنيبها ما قد يقلقها ويعكر صفاء سعادتها .

كانا نائمين في يقظة .. فواهاً لك ايها السبات ، يـــا سبات الحقيقة الذي تغمره المثالية !

ولم يسأل ماريوس او كوزيت عـن النهاية ، لم يفكر احدهما فيا تفضي اليه هذه العلاقة .. واعتبرا نفسيهما مولودين جديدين !

وكان لسان حالهما يقول :

« بغيت لك ووُجدتَ لي » .

●

لم يدخل الشك قلب جان فالجان .

فكوزيت مرحة طروب ، استخفها فرح ، وازدهتها نشوة . وكان فيا طرأ عليها من حبور باعثة لدعة الشيخ ورغده .

كانت في سن تحمل فيه الغادة حبها كما يحمل الملاك زهرته . وفوق ذلك

فمتى ساد علاقة العاشقين تفاهم وثقة ، سكنت شجونهما ، وقرت عيونهما وعاشا في بُلهنية .

كانا يمضيان الساعات في الحديقة ، فـــلا يدري بهما جان فالجان ولا تدري بهما الخادم .

وما اكثر ما رجع الى غرفة صديقه كورفيراك والليل يوشك ان ينتصف . وقد افضى كورفيراك لصديقه باهوريـــل بوساوسه ، فقال : « أتعلم ان الفتى المثالي المتزمت يؤوب كل ليلة في منتصفها ؟ » .

واجابه باهوريل قائلاً : « وماذا تنتظر غير ذلك ؟ فلكل شاب مغامراته وغزواته ! » .

وجابهه في صباح أحد الأيام بقوله : «أي ماريوس! انت تدهشني بتصرفك.. واكاد اظنك احياناً تعيش في منأى عنا.. في صعيد ناء .. في القمر.. في مملكة الاحلام .. في ارض الأوهام .. فكن فتى طيباً واطلعني على اسمها ! » .

ولكن ماريوس كان كتوماً لا ينفض سرّه لأحد ولو لاقى في سبيل ذلك كل اصناف التنكيل والمثلة – ولا عجب في ذلك ، فالحب السامي المثالي يترفع عن الثرثرة ، ويشعّ كالفجر ، ويصمت كالقبر .

ومضى الزمان ، والعاشقان المتيمان يرشفان من رحيق الحب أعذبه وأحلاه ، ولا يتعديان الحدود ، بل يقفان في جمود كلما استمرت نار النشوة في مهجتيهما .

في تلك الاثناء ، كانت الايام تتمخض عن احداث ، والدهر يعدّ المفاجآت لهما ، ولكثير من الناس .

ففي احدى الامسيات وقـــد تطرّفت الشمس وجنحت للمغيب ، تلاقى ماريوس بابنة تيناردي . فاعترضت سبيلـــه والقلق يبدو في خلجات وجهها وطرفها ، وقالت : « أسعدت مساء يـــا سيد ماريوس » .

فأجفل ماريوس.. فهو لم يفكر قطّ بالفتاة البائسة منذ اليوم الذي هدته الى

منزل كوزيت ، وإن كان يكنّ لها شعور المدين بحياته لشخص انقذ حياته . والمرء المحب ينسى ان يكون مضراً ، ولكنه ينسى ايضاً ان يكون نافعاً . فمشاعر العرفان والواجب ، والذكريات المختلفة تتبخر من ذهنه . ولو صادف الفتاة في وقت آخر لكانت نظرته اليها تختلف وشعوره نحوها يتباين ، ولكنه بعد أن استوعبت كوزيت تفكيره ومشاعره واحاسيسه ، فقد نظر الى ايبونين نظرة المستوحش ، ولم يتأكد إن كانت إيبونين ، هي بالذات إيبونين ابنة تيناردي ، وان الواجب الذي تمليه عليه وصية أبيه هي ان يرعاها ويعطف عليها لأنها ابنة المنقذ ..

اننا نصور ماريوس على حقيقته .. ولا نغالي إن زعمنا أن اباه قد تلاشى في تلك الايام من مخيلته ، او بالأحرى تضاءل شبحه تلقاء هـــذا الحب الجارف الطاغي الذي تغلغل بقوة الى اعماق فؤاده .

وأجاب الفتاة باضطراب : « ماذا ! أأنت ايبونين ؟ ! » .

فقالت : « ولمَ تحدثني بهذه اللهجة الجافة ؟ هل ارتكبت ما يضيرك ويسيء اليك ؟ » .

« كلا . كلا .. » .

« اخبرني اذن — » .

وصمتت .. وتراءى كأن الكلمات غاصت في فيها، أو كأن النطق اعياها . وحاولت أن تبتسم ، ولكنها أخفقت .. وتابعت :

« اخبرني ! — » .

وصمتت كرة أخرى ، وطأطأت رأسها وأغضت عينيها ..

وما عتمت أن هزت هذا الرأس المتألم، وقالت والدموع يغرورق بها طرفها الحزين :

« الى اللقاء يا سيد ماريوس ! » .

واختفت كما ظهرت ، وتلاشت في مثل لمح الطرف من تفكير الفق .

فكوزيت هي مطمح الفكر ، وقبلـــة النظر ، ومهوى القلب ! وليس سوى كوزيت من يستطيع ان يستأثر بلبه !

●

أما اليوم التالي فهو جدير بالتأريخ ، إنه اليوم الثالث والعشرون من حزيران سنة ١٨٣٢ . وقد وقعت فيه امور خطيرة وتلبد في أفق باريس غمامة سوداء كثيفة .

وكان ماريوس في مساء ذلك اليوم ينهج الطريق نفسه الى مسكن كوزيت عندما برزت له إيبونين ثانية . ولكنه زاغ زوغة سريعة ، وانتقل الى الطوار الآخر ، وغذّ السير لا يلوي .

وتأثرت إيبونين خطاه المسرعة ، وشاهدته يتسلل من السياج . فجلست على الحشائش وكأنها تحرس المدخل . وظلت في مكمنها ترقب المكان بعين ساهرة ، وتتلفت تارة الى الخارج ، وطوراً تطيل التحديق في جوار الممر السري .

ودنا فجأة من مكان إيبونين ستة رجال متسترين بالظلام ، ووقفوا يتجاذبون حديثاً خافتاً ، فيتساءلون عن الخطة التي وضعوها لاجتياح الدار .

وبرزت إيبونين من مخبئها ، وقال قائل بصوت متلعثم : « انها ابنتك ! » .

وتبع ذلك تقدم كلا كسو وغيلمير وبابيت ومونتبارناس وبروجو منها . وكانوا يقبضون بأيديهم على آلات تلمع انصالها .

وقال تيناردي مستاءً محتدماً : « وماذا تفعلين هنا يا هذه ؟ وماذا تبغين منا ايتها البلهاء ؟ » .

فاستغربت ايبونين في الضحك ووثبت عليه تعانقه وتقول : « انني هنا يا أبي الحبيب ، لأني هنا ! فهل ثمة ما يعيق وجودي ؟ انني حرة طليقة لا أخاف العيون ، أما انتم .. فانتم المطاردون المهددون بكل ويل ! لقد اخبرت ماغنون ان المكان لا يستحق عنايتكم ، فماذا جعلكم تضربـــون بنصيحتي عرض الحائط ؟ .. أواه يا ابي ! قبلني فقد برح بي الشوق ! » .

وحاول تيناردي ان يبعدها عنه . فلما فشل قال لها متبرماً : « ألا يكفيك كل هذا العناق ؟ فاذهبي اذن ، اسرعي ! » .

ولكنها لم تنصع بل ما فتئت تضمه اليها وتحادثه وتسأله .

وفرغ صبر الرجل فقال متسخطاً : « قلت لك اغربي عن وجهي ! » .

قالت : « لـن اذهب ، سألازمك ، فانت أبي وحبيبي ، وهذه اول مرة اراك فيها منذ اربعة شهور ! » .

وتحرك الاشقياء ، وقال بابيت : « كفي يا إيبونين عن هذه المهزلة » .

وقال غيلمير : « لنبادر الى العمل قبل ان يدهمنا البوليس » .

واستدارت إيبونين الى اللصوص وقالت بصوت صارم :

« انتم تعلمون عن يقين بأني عاقلة ، وقد اسديت لكم مختلف الخدمات . ولذا اطلب اليكم ان تذهبوا ، ليس في هذا البيت ما يغري .

وصاح تيناردي : « اذهبي ايتها العنيدة ، ودعينا ننجز ما اتينا له ! ».

عند ذلك نكصت ايبونين الى الوراء وقالت : « لن تدخلوا . لن اسمح لكم .. وثقوا اني سأملأ الدنيا صراخاً ان اجتزتم هـــذا الساج .. سأنبه كل نائم .. سأدعو رجال الامن لالقاء القبض عليكم ! » .

وصمتت فينة قصيرة ، ثم تابعت : « انتم تتسلحون بالمدى والغدارات ،

وأنا أملك ساقين ويدين .. فاذهبوا ويحكم ، فليس الكلب الذي يحرس الدار غيري ، أذهبوا .. اذهبوا .. » .

وخطت نحوهم – كانت هائلة ، كانت مخيفة – وضحكت كما لم تضحك امرأة وتابعت : « إنني لا اخاف . وممّ اخـــاف ؟ اني اجوع في الصيف ، واقاسي البرد في الشتاء.. فهل بلغ بكم العته مبلغاً ظننتم معه اني اخشاكم ؟».

واستدارت الى ابيها واستتلت : « اني لا اخافك ايها الاب .. فما الفرق بين ان يلتقطوني غداً وقد اخترق قلبي سكينك ، وبين ان يعثروا عليّ بعد سنة ملقاة كالجيفة في حفرة الطريق ؟ » .

وحبس كلامها سعال حـــاد جاف ، وانتهز تينارديي تلك الفرصة . فقال : « انت تكرهين اباك ، والا لما وقفت في طريقه حائلاً بينه وبين الرزق ، فأنا يجب ان اعيش كما تعلمين ! » .

واحتار الاشقياءفي امرهم ، ولكنهم تحركوا اخيراً مبتعدين ، وتعقبتهم إيبونين حتى شاهدتهم يفترقون .. رأتهم يفترقون ، فيأخذ كل منهم طريقاً يختلف عن طريق الآخر .. رأتهم يغوصون في ظلام المجهول ، وخيل اليها انهم يذوبون ، اوان الظلمة تمتصهم اليها .

ولم يكن الموقف داخل الحديقة خيراً منه خارجها ، فقد استقبلت كوزيت حبيبها دامعة مستعبرة ، وابتدرته وهي تنشج : « أو ترى ؟ ان والدي طلب الي ان اكون على اهبة الرحيل ، فقد تستدعي اعماله انتقالنا من هنا » .

فاقشعر جلد ماريوس – فالموت في نهاية المطاف معناه الرحيل ، والرحيل في اول العمر معناه الموت !

واخلد ماريوس الى صمت رهيب ، فزعت منه كوزيت فقالت متوجسة جازعة : « ما الخطب ، ماذا دهاك ؟ » .

قال : « لا افهم حرفاً .. لا .. لا .. » .

قالت : « اننا راحلان كما قال ابي الى انكلترا » .

قال : « ولكن هذا مستحيل ! انه لأمر فظيع ! » .

في تلك اللحظة ، تضاءل في تفكير ماريوس جبروت جميع الطغاة ، واصبحت مظالم بوسيرس او هنري الثامن ، عبث اطفال بالقياس الى وحشية هذا المدعو فوشلفين الذي يزمع ان يصطحب ابنته الى انكلترا !

وحدج حبيبته بنظرة حازمة وقال : « وهل تذهبين ؟ » .

« اين ؟ » .

« الى انكلترا .. هل تذهبين ؟ » .

« ولماذا تكلمني بهذه اللهجة ؟ » .

« هل تذهبين ؟ » .

« وماذا في استطاعتي غير ذلك ؟ هل املك الخيار حتى اختار ؟ » .

وضمت يديها متوسلة.

واستتلى : « فستذهبين إذن ؟ » .

« اذا ذهب ابي ! » .

« وسأذهب انا ايضاً الى مكان آخر ! » .

وفهمت ما عناه ، فشحب لونها واجابت : « وماذا تعني ؟ ماذا ؟ »

« لا شيء » .

« فاذهب معي .. اتبعني الى انكلترا » .

« انا ! انا الفقير المدقع اذهب الى انكلترا ؟ أواه ! أواه يا كوزيت انت

وهبت قلبك لي ، ولكني واثق من انك ستحتقريني لو وقـــع علي طرفك في النهار .. انني صفر اليدين .. أواه ! » .

ورمى بنفسه على شجرة قريبة ، وشخص الى السماء ، وكأنه تمثال اليأس والقنوط .. وسمع صوت نشيج – كانت كوزيت تبكي .. وقد بكت طيلة الساعتين اللتين قضاهما ماريوس منتصباً لا يتحرك ، شاخصاً بعينين لا تطرفان الى السماء وكأنه يناجيها او يستعديها او يُشهدها !

وجثا على الأرض بجانبها ، وتناول قدمها فقبلها ، وقال : « لا تبكي » .

وتنهدت كوزيت وتنفست الصعداء .

قال : « هل تحبينني ؟ » .

« اعبدك ! وانت ؟ » .

« انا ؟ أصيخي يا كوزيت .. ان ابي يقف الآن بجانبي ! وأقسم انك ان رحلت فسأرحل انا سأرحل .. سأموت » .

فأجفلت وارتاعت ، وحملقت في وجهه .

قال : « لن آتي غداً » .

« ولماذا ؟ » .

« لأنه لا يغير عاداته وطباعه ، ولا يستقبل انساناً قبل المغيب » .

« من ؟ » .

« ستعرفين .. والآن يخلق بي ان اعطيك عنواني ، فمن يعلم ، قد يحدث ما يضطرك الى الاتصال بي». واعطاها عنوان المنزل الذي يقطنه مع كورفيراك ، ثم حفره بسكين على الجدار .

●

ما كان للشيخ جيلينورمان ان ينسى حفيده ، بل ما كان له طاقة على اقناع نفسه بأنه لا يحبه ، فالفتى الوسيم عزيز عليه ، ولـــن يرضى عنه بديلا . وقد حاولت ابنته العانس ان تقرب بينه وبين قريبها الضابط تيودول إلا ان مساعيها خابت ولم يزدد الشيخ الا نفوراً من الشاب .

وجلس في تلك الليلة – ليلة الرابع من حزيران – في غرفته حزيناً كئيباً ، يفكر كعادته في ماريوس ويود لو كحل عينيه بمرآه . وبينا هـــو مستسلم لأفكاره وخواطره ، دخل عليه الخادم وابتدره قائلاً : « سيدي .. ان السيد ماريوس يطلب المثول بين يديك » .

فأجفل الشيخ واجاب : « السيد ماريوس ! ماذا ؟ آه ! أدخله ! » .

ودخل ماريوس الحجرة ، ووقف قريباً من الباب ، فألفى جده قاعداً بلا حراك وكأنه مصاب بلوثة ، او كأن السرور العظيم الذي داخله شلّ حركته وأخرس لسانه .

وأخيراً نطق الشيخ فقال : « وماذا تريد ؟ » .

قال : « سيدي ! .. » وتلعثم لسانه وكأنه ألجم .

وداخل الشيخ شعور بالحنق والغيظ .. واستاء من ماريوس لأنه لم يبادره بالعناق والتقبيل ، واستاء من نفسه لأنه قابله ببرود وجمود .. وصاح بصوت محتدم : « ماذا تريد ؟ قل ! » وكان لسان حاله يقول : « ماذا تريـد إذن ما دمت لم تعانقني وتقبلني ! » .

وقال ماريوس : « سيدي ! انت مستاء مني ، حانق عـــلي ، وسأغادرك ولكني اضرع اليك ان تصغي إلى كلامي » .

فصاح الشيخ : « انت احمق ! من قال لك ان تذهب ؟ » .

وكانت هذه الكلمات ترجمة الكلمات التي هتف بها قلب الشيخ والتي كانت تحث ماريوس على احتضانه وطلب مرضاته وغفرانه .

وقال ماريوس أخيراً : « انني جئت طالباً موافقتك على زواجي ! » .

فهتف الشيخ بصوت المتعجب : « أتقترن وانت يافع صغير ؟ وهل رتبت امورك؟ هل ضمنت مستقبلك؟ امهل فتاتك موسرة تجلب لك الغنى والجاه؟».

« كلا انها فقيرة معدمة » .

« فمن المحال إذن أن اجاريك ! » .

« أبي ! » .

ولانت أسارير الشيخ لدى سماعــه هذه الكلمة ، وقال بلهجة أب يخاطب ابنه : « ولكنك لا تملك شروى نقير .. » . وعبث بدرج المائدة وأخرج مئة قطعة ذهبية وضعها امام ماريوس وأردف : « هذا المال لك ، فخذه واشتر ما تشاء ! » .

ولم يلتفت ماريوس الى النقود بل قال : « أبي ! إعلم يا ابي اني احبها — احب الآنسة فوشلفين » . وقــد رأيتها لأول مرة في لكسمبرغ ، فلم ألتفت إليها بادىء ذي بــدء . ولكني أغرمت بها عقب ذلك ، ثم انقطع ما بيننا ، ومت .. أجل عشت ردحاً كالميت .. بيد ان الله رفق بي أخيراً فجمع شملنا ، ولا مندوحة لي من الاقتران بها ، وإلا فقدت عقلي ، وصحتي ، وسعادتي ! ..».

وقاطعه الجد قائلا : « أخبرني ، أين تقطن معبودتك ؟ » .

« في بيت بعيد مهجور تشرف عليه الثكنات » .

« تشرف عليه الثكنات ! آه ، تذكرت لقد تحدث تيودول عن فتاة يانعة تعيش في ذلك البيت ، ووصفها بأنها حسناء ذات دل وجمال .. واصدقك أني لا أستبعد أن يكون قريبك قد متع نفسه بها . ولكل شاب أن يحب ، ولكن عليك أن تحجم عن الزواج ، فمالك والزواج ؟ » .

« اني احبها ، ولا أطيق عنها فراقاً ! » .

« إتخذها عشيقة .. إقض وقتك في صحبتها .. أفهمت ؟ » .

ففر اللون من وجه ماريوس ، وظل لمحة جامداً شاحباً متقلص العضلات ، ثم ما لبث وانحنى أمام جده وتراجع الى الباب وهو يقول :

« يا جدي ! منذ خمس سنين أهنت أبي وأسأت اليـه ، وأقصيته عنك ، وها أنتذا اليوم تهين الامرأة الطاهرة التي ستصبح زوجتي .. ولـن أسألك شيئاً آخر .. الوداع ! » .

ففغر الشيخ فاه ، وبسط يديه ثم مدهما ، وحاول ان يقف ، ولكنه قبـل أن ينبس ببنت شفة ، صفق الباب وغاب ماريوس عن لحظه !

ومضت ثوان ، والشيخ متجمـــد الحركة ، لا يتكلم ولا يتنفس ، وكأنه صعق ! او كأن يداً ضبطت بخنقه ! واستجمع أخيراً شتات قواه المتداعيـة ، فاندفع صوب الباب وفتحه ، وصاح : « النجدة .. النجدة .. اليّ .. اليّ ..» .

وجاءت ابنته ، وجاء الخادم والخادمة ، واستمر المسكين يصيح: «أسرعوا ، أغيثوني .. ماذا فعلت؟ أواه! انه مجنون .. لقد ذهب .. ذهب ولن يرجع ..» .

وقفل الى النافذة المطلة على الطريق ، ففتحها وصاح بصوت يلين الجلمود : « ماريوس ! ماريوس ! ماريوس ! » .

ولكن ماريوس لم يسمع النداء .. فقد مضى عجلان مسرعاً ، مضى في سبيله دون ان يكتشف الحقيقة — حقيقة القلب الكبير الذي ينبض في ضلوع هذا الشيخ .

ودعم جيلينورمان رأسه براحتيه ورجع الى وسط الغرفة بخطوات مترنحة ، وتهاوى على كرسيه فاقـد النطق ، متحجر العينين ، يحرك شفتيه ولا يبدي ، ويتململ في مكانه كأن النار يضطرم سعيرها في قلبه !

وفقدت نظراتــــه كل معنى ، ولم يبق في عينيه سوى صورة للاعماق .. وللأحزان .. واليأس .. لم يبق في عينيه سوى صورة حالكة مروعة .. لم يبق في عينيه سوى الليل .. بلى الليل .. فقد تلاشى فجرهما ، وغربت شمسهما ، وأفل نجمهما !

أيها المعذب ! يا لكبريائك التي جعلتك تظهر خلاف ما تبطن !

١١

ضرب جان فالجان في المدة الأخيرة صفحاً عن اصطحاب كوزيت معه في جولاته . وانه ليجلس في أحد الأيام في حديقة منمزلة لا تطؤها الاقدام ، اذ به يلمح عن بعد تيناردي الرجيم ، فيعجب أشد العجب ويداخله خوف ووجل .. فوجود تيناردي وجود للجريمة ، ومبعث للخطر ، ومثار للخوف ، وحافز للحذر ! وفوق ذلك فحالة الطوارىء في باريس تستدعي القلق ، فقد يهتدي البوليس المترصد اليه — الى جان فالجان — أثناء مطاردته لتيناردي وأشباه تيناردي ..

وقرر الرجل مغادرة باريس بل وفرنسا بأسرها . ووطن النفس على النزوح الى انكلترا .. فأنهى الى كوزيت ما صمم عليه ، وأعرب عن رغبته في مبارحة الديار بأسرع ما يستطاع .

ومما زاد في خوفه وضاعف من عزمه على الرحيل ، ما شاهده بعد ايام مكتوباً على الجدار .. فقد عثر على عنوان ماريوس ، وأيقن ان الكلمات خطت في المدة الأخيرة . فلم يدر سرها ، ولكنه رأى فيها تهديداً آخر موجهاً الى أمنه وسلامة كوزيت .

وأعقب ذلك حادثة أخرى أحالت الظن يقيناً ؟ فقد اسقطت في طريقه يد مجهولة خفية ورقة مطوية كتب فيها بأحرف متقطعة : « اذهب ... » .

وحاول معرفة الشخص الذي وجه اليه هذا التحذير ، فلم يشاهد سوى خيالاً يبتعد عنه بسرعة ، لا هو بالرجل ولا هو بالامرأة ، لا هو بالشاب ولا هو بالطفل !

فقفل راجعاً والظنون تنتهبه فتمضه ، والهواجس تنتاشه فترمضه !

•

غادر ماريوس جده ، وكان مجيئه عبارة عن ومضة أمل برقت في حياة هذا الشيخ ثم اختفت . جاء ماريوس لا يجيش في صدره الا النزر الضئيل من الأمل ، وانطلق من لدنه واليأس القاتل يعفث في صدره .

جاب الفتى الطرقات ، وهام على وجهه في الأحياء الآهلـــة والمقفرة . ولم يختمر في مخيلته فكر واحد يستطيع أن يرسخ في هذه المخيلة الجياشة بالكآبة . وفي الثانيــة صباحاً آب راجعاً الى مسكن صديقــه كورفيراك ، فتهالك على فراشه دون ان ينضو عنــه ملابسه . ولم يكحل النــوم عينيه الا والشمس تتلبج من المشرق .

وعندما استيقظ ألفى كورفيراك واصدقاءه انجولرا وفويلي وكومبيفي يتأهبون لمغادرة الغرفة . فلما فتح عينيه ابتدره الأول قائلاً : « ألا تذهب معنا لتشييع جثمان القائد « لامباركي » ؟ » .

فلم يفهم حرفاً ممـا قاله صديقه ، وخيل اليه انه يخاطبـه بالصينية لا بالافرنسية !

الا أنه زايل مكانه بعد خروجهم وهو يخفي في جيبه المسدس الذي قدمه له جافير يوم احاطه بمؤآمرة تيناردي وزملائه الأشقياء .

ومن العسير وصف أفكاره ومشاعره في ذلك اليوم ، من العسير اكتناه الأسباب التي حفزته الى حمل المسدس المحشو .

وهام على وجهه طيلة النهار . ولما حان ميعاد الغداء ابتاع رغيفاً ولكنه وضعه في جيبه وأنسي أمره فلم يطعم منه بلغة واحدة ! فثمة لحظات يكون فيها عقل الانسان كالأوار . وكان عقل ماريوس في ذلك اليوم جمرة متلظية ، فهو لا يرجو فقد طغى اليأس عليه حتى سد منافذ الرجاء ، وهو لا يخاف ، فقد بدد القنوط بواعث الخوف من قلبه الواله !

وانتظر حلول الليل بصبر فارغ ، وقد ساور ذهنه فكر واحد لا يغشاه ظلال الغموض — ان يلتقي كوزيت — فهي ملاذه المتبقي له ، وما قاربت الساعة التاسعة حتى توجه الى مسكن كوزيت ، ولكنه لم يلقها في مكانها من المقعد الحجري ، فاختلس الخطو الى مكان قريب من نافذتها ، فألفى مصاريع الابواب ومغاليق النوافذ مرتجة مظلمة ، فاندفع الى الباب كالمجنون الفاقد الحجى وجعل يقرعه بشدة وعنف .. ولما كلت قبضتاه واستبد به الجزع رفع عقيرته بالصياح ، فنادى : « كوزيت .. كوزيت .. » فلم يسمع في هذا السكون الشامل إلا رجع صوته .

وتأوه من كبد مفطور ، وحدد لحظه في البيت المهجور .. وحملق في الظلام المريع ، ونقل طرفه المغرورق الى المقعد الحجري الخالي ، ثم سقط على درجات المنزل ، وقلبه مفعم بالحب والعزم .

وتناهى الى مسامعه فجأة صوت ذكره بالفتاة إيبونين فتلفت مبهوتاً .

وقال الصوت الخفيف : « ماريوس .. ماريوس .. ان اصدقاءك ينتظرون قدومك في شارع (شانفريري) ، فاذهب إليهم فهم في حاجة اليك ! » .

●

تجنب الأب مابوف محفظة جان فالجان ، فلم يداوِ إملاقه بما وجده فيها من نقود ، ولم يشأ ان يقبل عطية النجوم . فهو لا يسلّم بأن للنجم قدرة

الاغداق بالدرهم، او قدرة سبك نفسه جنيهاً ذهبياً! وما أبطأ ان حمل المحفظة كما هي الى دائرة البوليس فأودعها هناك عسى ان يطالب بها فاقدها . ولا مرية في ان احداً لم يتقدم الى البوليس في طلبها .

واستمر هذا الشيخ عرضة لحؤول الأحوال ، ولؤم الأيام ، وحلول الأهوال وعدت عليه عوادي الزمان ، فأكدى مسعاه وتضاعفت ديونه ، ولم يعد له من مأكل إلا كسرة الخبز . وخوى بيته من الفراش ، فقد باع الأثاث والرياش كما باع رسومه وتحفه التي يعتز بها . وأتبع ذلك بكتبه ومخطوطاته .

ودرى بحالته الوزير ، ووضح له مما سمعه فعلم ان الرجل الحكيم الورع قد أخنى عليه الدهر ، فأرسل يستدعيه اليه . وقد أثلجت الدعوة صدر الشيخ ، فقال وهو يبتسم مستبشراً : « قري عيناً ايتها الأم بلوتارخ ، فان الله اشفق علينا اخيراً ، ولن تعتم الحكومة حتى ترأف بحالتنا، فتعطينا كفايتنا من المال.

ولما ذهب في اليوم التالي الى منزل الرجل الجليل ، تنكر له القوم لما رأوه من رثاثة طمره ، فلبث جالسا في قاعة الانتظار ساعات كثيرة . ثم رجع اخيراً ملتاعاً مهيضاً .

وفي مساء ذلك اليوم سمعت أصوات مدوية منبعثة من قلب المدينة ، فرفع الرجل المتخاذل رأسه وسأل بستانياً رآه يمر قريباً منه عن هذا الدوي .

فقال البستاني : « إنه الشعب ! »

قال : « ماذا ؟ » .

قال : « الشعب .. أولا تدري ما هو ؟ ! » .

واسرع مابوف داخلاً الى منزله ، فوضع قبعته على رأسه وما كذّب ان غادر الدار ، وإن كان لا يدري لماذا والى اين !

*

ما هي عناصر الشعب ؟ ومم يؤلف هذا الكفاح ؟ من لا شيء ومن كل شيء . من تيار يتطور الى نار ، ولهيب يندلع بغتة.. من قوة جامحة متخبطة ، من ريح صرصر ..

الانفعال ، والحماس ، والاشمئزاز ، والحرية المكبوتة ، والشجاعة الفتية ، والأحاسيس النبيلة ، والفضول ، والميل الى التغيير ، والظمأ الى المفاجأة ، والحقد الغامض ، والحزازات ، والمآسي ، والخيبة ، والشظف ، والأحلام الفاشلة ، والطموح المقاوَم ..

ووراء هذا كله – الدهماء ، ذلك الطين الذي يشتعل ..

هذه هي عناصر الشعب !

والطغام ، او الحثالة ، او الرعاع ، اولئك المرتزقـة المقامرون .. جميع هؤلاء يكونون عناصر الشعب .

وكل ناقم ، وكل حاقد ، وكل ثائر ، يقف عن كثب من الشعب ، ومتى قدحت الشرارة الاولى ، جرفهم التيار !

اشتملت حركة ١٨٣٢ في انفجارها السريع على شيء رائع . ففي ربيع تلك السنة ، كانت باريس تتململ على برميل مـن البارود . ومـع ان وباء الكوليرا كان يطحـن الناس طحناً ، إلا ان الموت الأصفر لم يحل دون تمخض الزمان عن حوادث جسام . واصبحت شرارة واحدة تكفي لاضرام النيران في كل مكان .

وقدح القدر هذه الشرارة ، وكانت عبارة عن موت الجنرال « لامباركي » .

كان هذا القائد المحنك نشيطاً لا تفتر له عزيمة ولا تكلّ همـة ، وكانت كلماته نفسها كالسيوف القاطعة ! كان يتعشق الحريـــة ويحب الشعب . وكان الشعب يبادله حباً بحب . كان الشعب يحبه لأنه أحب نابليون ، وكان الشعب

يعبده لأنه مقت ولنفتون – وولنفتون اسم بغيض . ومضى زهاء سبعة عشر عاماً وهو لا يفتأ يذكر بغضض وحسرة موقعة واترلو .

كان موته خسارة فادحة لمسها الشعب وفرصة ذهبية تمنتها الحكومة .. وكانت آخر كلمة فاه بها – الوطن –. وكانت آخر كلمة فاه بها نابليون – الجيش !

كان موته حزناً للجميع ، وككل شيء مرير فان الحزن قد يغلي مرجلة فينقلب الى ثورة عاصفة .

ففي مساء وصباح الخامس من حزيران ، اكتست ناحية سان انطوان ، التي مر بطرفها موكب الموت ،حلة مخيفة من الترقب والتوقع. فقد ساد اللغط ، وتسلح الرجال ، وتجمعوا وتفرقوا ، وتهامسوا فيما بينهم ، وتواعدوا .

ومر موكب الجنازة تتقدمه ثلة من الحرس . وغصت باريس بالجنود المتأهبين ، وسارت المدفعية ايضاً مع الموكب العظيم . وتبع الجنود والرجال الرسميين جموع غفيرة من الشعب المتذمر وتشكيلات عديدة من الجمعيات والجامعات والمدارس ، وكذلك مئات من الاغراب والاجانب

ووقعت حوادث متفرقة أثناء تقدم الموكب ، إلا ان الساعة الحاسمة لم تأزف ، ووصل الحشد الى الباستيل ، ثم اجتازه . ودوى فجأة صوت طلقات نارية ، خر على أثرها ضابط كبير ، وامرأة صماء ، وهما يتخبطان بدمائهما .

وتقف الكلمات حائرة ، فقد اختلط الحابل بالنابل ، وساد الهرج والمرج ، وجعل الناس يتراكضون ، وعمت الفوضى ، وتلقفت الافواه كلمة – الحرب – وصاح الرجال الى السلاح .. الى السلاح .

وفي فترة وجيزة اجتاحت الجموع الهائجة مئات من محلات الاسلحة ، وجردت مئات من الجنود من سلاحها ، واحتلت عشرات من مواقع الجيش ،

وأصبح الشعب الاعزل الذي استهل مقاومته بالحجارة ، يصوب بنادقه قنابله .

ورؤي غافروش الصغير يعدو من مكان الى آخر وفي يده غدارة قديمة تصلح للاستعمال . وقد مر بدكان الحلاق الذي طرد الطفلين التائهين ، فرمه بحجر ، ثم دنا من جماعة من الشبان متسلحة بمختلف الاسلحة ، فانضم اليها .

وكانت هذه الجماعة مؤلفة من انجولرا وكورفيراك وكومبيفي وفويلي وباهوريل وجان بروفي .

وكان يسير عن كثب منهم رجل شيخ ، يدب دبيباً ويحاول ان لا يتأخر عنهم كثيراً .

والتفت غافروش الى الشيخ ، فعرفه . ولكنه سأل كورفيراك قائلاً :

« من ترى الرجل ؟ » .

فقال الشاب : « انه رجل طاعن في السن ! » .

وكان الرجل الطاعن في السن هو الأب مابوف !

●

ونما عدد هذه الجماعة التي يقودها انجولرا ، وواصلت تقدمها حتى حاذت المنزل الذي يحتل كورفيراك غرفة منه . وكانت القيّمة تقف على الباب ، فلما شاهدت كورفيراك دعته اليها ثم اخبرته بأن شخصاً قضى ساعة في انتظاره .

وخرج من البيت في تلك الدقيقة شاب قميء هزيل رثّ الثياب ، دنا من كورفيراك وسأله قائلاً : « اين اجد ماريوس » .

فأجابه متعجباً : « لا أعلم ، ولكن .. ماذا تروم منه ؟ » .

قال : « هناك أمر خطير يعنيه ، فمتى يؤوب راجعاً ؟ » .

« لا ادري ، ولن أراه لأني ذاهب كما ترى ! » .

« والى اين ؟ » .

« لا تهتم ولا تغتم ، فلن آخذك معي ! » .

« وهل لي ان ارافقك ؟ » .

« ان شئت ، فالطريق للجميع » .

ومضى كورفيراك في سبيله . ولكنه اكتشف بعد نصف ساعة إن الشاب الغريب يتبعه كظله .

•

من جملة الحواجز او العوائق العديدة التي اقامها المشاغبون في الشوارع والبيوت والمنعطفات ، متراس حانة كورينث ..

وهذه الحانة تقع في بناء صغير مؤلف من طابقين . وكانت منذ سنين تدعى حانة وعاء الزهر ، وفي اواخر القرن الماضي ، أم المكان رسام شهير عاقر الخمر حتى ثمل ، فقام الى الواجهة ورسم عنقود عنب اشتهرت كورينث بانتاجه . فازدهى الطرب صاحبه وما ابطأ ان استبدل الاسم فدعاها حانة كورينث .

وكان المكان مجمع الخلان — اي ملقى انجولرا وكورفيراك وأصحابها كما تقدم . وكانوا يأكلون هناك ، ويقصفون ويمجنون ، ويتجاذبون الحديث ، ويضجون معربين عن سخط او رضا ، ويتهامسون كلما شاب الحديث كلام سياسية ، او مديح جمهورية ، او انتقاد لاذع للملكية وللعائلة المالكة .

الا ان المكان الذائع الصيت، أضاع ما اكتسبه من شهرة عقب موت صاحبه

في سنة ١٨٣٠ . ولكن أصدقاء السوقة ما فتئوا يعرجون عليه بالرغم من رداءة نبيذه ، وقذارة صحافه وكؤوسه ..

وقد قال كورفيراك مرة في مجال دعابة :

صُم يا صاح ، صم ان استطعت .. وكل يا صاح ، كل ان جرؤت ! » .

الى ذلك المكان وصل الاصدقاء ومعهم غافروش الصغير ، فتريثوا هنيهة وتداولوا في امرهم ، ثم صاح احدهم : « ألا ، ان هذا يصلح متراساً ، فالمكان حصن طبيعي ، وفي الطوق استعماله كقلعة ! » .

وفي اقل من ساعة وضعت العراقيل في الطريق ، وصفحت بألواح من الخشب والحديد ، وجلبت قطع من الحجارة ، فرصفت ونضدت بما هالوه عليها من آجر وماء . ومرت عربة فانقض عليها « بوسي » وانزل من كان فيها ، وقطع سيور جواديها ، ثم تعاون مع الآخرين على قلبها ظهراً لبطن في عرض الشارع .

وصعدوا الى الحانة ، فجعلوا يحصنون مداخلها ومخارجها ، ويفكهون مع العجوز صاحبتها ، ويسرون عنها خوفها وفزعها ..

وكان غرانتي ثملاً مضيع الرشد ، ولكنه كان كعادته مزّاحاً لا يكف عن اطلاق نكاته ، ونثر دعاباته وفكاهاته !

وقد جاراه الجميع ، الا ان انجولرا معبوده ومثاله ، رمقه شزراً وقال : « أغرب عنا يا غرانتي ، فهذا المكان اضحى الآن نقطة جهاد وتضحية ، لا بؤرة سكر ومجون ! » .

فاصفر وجه الشاب الثمل وشعر كأن انجولرا قذفه بكأس من الماء المثلوج .. ووجم قليلاً ، وتأمل في صديقه ، ومثل له هذا الحميم ساعتئذ كبطل من ابطال اسبرطة الغابرين — بجماله وكماله وعزيمته وفارقه سكره في اسرع من ومضة

برق وتهالك قريباً من مائدة صغيرة محاذية للنافذة ، وقال بصوت ينضج رقة وأدباء : « سأنام قليلاً ! » .

فاجاب انجولرا محنقاً : « نم في غير هذا المكان .. ».

« ذرني انام هنا حتى يوافيني الردى ! » .

فحدجه انجولرا بنظرة احتقار وقال : «اي غرانتي انت عديم الايمان ، ولن تؤمن قط .. انت لا تعرف الايمان ، ولا الفكر ولا الارادة ، ولا المعنى للحياة وللموت ! » .

فقال غرانتي بصوت حزين : « سترى ... ستبصر » .

وأتبع ذلك بتمتمة غامضة ، ثم أحنى رأسه على المائدة وأغفى !

وكان العمل يتم بسرعة في الخارج ، وقد اشترك فيه عشرات الرجال . فقاموا ببناء متراسين كبيرين متصلين بالحانة على شكل زاوية قائمة من شأنها ان تعرقل كل حركة في شارعين من الشوارع العامة . وكانوا يتبادلون الاحاديث كأنهم إخوة .. ولا ريب ان كل غريب كان يظنهم إخوة ، ولو علم ان اكثرهم لا يعرفون اسماء بعضهم البعض ، لقال عن ثقة :

« حقاً ان للمصائب جمالها ، فهي تشج بين الغريب والغريب بعرى الأخوة والمحبة ! » .

كان الجميع يعملون بحمية وحماس ، وكان اكثرهم نشاطاً ومرحاً غافروش الصغير ، فهو دائب الحركة ، يغدو ويروح ، ويساعد هذا ويعين ذاك ، ويؤدي كل عمل يناط به دون أن يتأخر او يتذمر او يحتج .

اما الشاب الهزيل الذي انتظر كورفيراك في منزله وسأله عن ماريوس فقد اختفى عن العيان عقب الاستيلاء على العربة !

وانتهى العمل في المتراس ، ووصله الرجال بممر ضيق بالمتراس الذي ابتنوه

في الناحية الاخرى من الحانة ، واغلق الطريق فلم يعد في الامكان عبوره ألا بهدم التحصينات ..

جرى هذا في ساعة ، وقامت به حفنة من رجال كانت الشجاعة والاقدام الحافز الاكبر لهم على الاسراع في العمل . ورفعت الراية فوقه ، وفتح انجولرا صندوقاً مفعماً بالاعيرة النارية ، وارتعش الجميع ساعـــة وقعت انظارهم على الذخيرة ، وطفق كورفيراك يوزعها على الجميع بالقسطاس وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مبهمة .

وكانت حصة الواحد ثلاثين طلقة . على انهم اقبلوا على مسحوق البارود يصنعون منه المزيد .

ثم حشوا بنادقهم وغداراتهم . وأمر انجولرا ثلاثة رجال ان يأخذوا مراكز حراسة عيّنها لكل منهم .

فماذا بعد ذلك ؟ .. لقد انشئت الحصون ، وعينت مراكز الرقابة ، وتأهب الرجال ، وخيم السكون على الشارع الممتد ، ولفّ الدور بغلالة مـــن كآبة الموت ..

ماذا بعد ذلك ؟ لقد شعر الجميع ان شيئاً يتمخض عنـــه الزمان – شيئا محزناً مروعاً .

وانتظر الرجال بصمت وسكون ، وسلاح مشرع ، وإرادة موطـــدة ، ورباطة جأش !

فماذا بعد ذلك ؟ ..

وأضيء مصباح مصفح بالزجاج ، فعكس على الراية ظلا ارجوانياً رهيباً ، لعله كان يرمز الى الدم – الدم الذي أهريق .. الدم الذي لن يلبث ان يخضب الارض ويسم الانسانية بميسم العار والشنار !

واسدل الليل سجوفه الثقيلة وحط جرانه على المسكونة. ولم يعكر الصمت والسكون الاطلاقات متقطعة تدوي هنا وتدوي هناك . ولا شك ان الحكومة كانت تعد العدة وتتخذ الأهبة.. وكان المدافعون عن الحانة وتحصيناتها خمسين، وكان المهاجمون أو الذين ينتوون الهجوم ستين ألفاً !

وشعر انجولرا بفراغ الصبر الذي يشعر به كل صاحب عزيمة ماضية وشجاعة وحزم، ساعة يحزب الأمر ويحين أوان الشدة . ونزل انجولرا المتوثب الى الطباق الارضي حيث انصرف غافروش الى عمله في صنع الأعيرة النارية .

ولم يكن غافروش في تلك الاثناء مكباً على عمله ، بل كان موجهاً اهتمامه الى رجل مديد القامة دخل قبل دقائق وجلس في ركن مظلم .. وجعل الصبي يتساءل ، وجعل يخطل رأيه تارة ، ويستصوبه تارة اخرى ..

وولج انجولرا المكان ودنا من غافروش وقال موجهاً إليه الكلام : « انت صغير خفيف قليل الجسم ، فاذهب ان استطعت ، وتسلل بين البيوت ، وابتعد مستطلعاً ، ثم ارجع ثانية ببعض المعلومات » .

فشد غافروش قامته وقال : « فالصغار لهم إذن مـا يميزهم عن الكبار .. وهـذا من حسن حظي .. سأذهب صدوعاً بامرك.. وعليك ان تثق بالصغار وتستريب بالكبار .. » .

ثم همس : « أوَ ترى الرجل ؟ » .

« نعم، اني اراه ! » .

« انه جاسوس » .

فاستدار انجولرا الى رجـــل آخر أسر اليه ببضع كلمات ذهب الأخير على اثرها ثم رجع وفي صحبته ثلاثة من اقرانه . ووقف الجميع وراء الغريب .

واقترب انجولرا من الرجل وقال بصوت ثاقب : « من أنت يا هذا ؟ » .

فأجفل الرجل ، وحدج الجولرا بنظرة حادة ، ثم ابتسم واجاب : « انت مصيب - فماذا تطلب ؟ » .

« أتعترف بأنك جاسوس ؟ »

« أنا ضابط اخدم الشعب والحكومة » .

« وما اسمك ؟ » .

« جافير ! » .

وأشار الجولرا الى رجاله فانقضوا عليه وشدوا وثاقه ، ثم قادوه الى دعامة تتوسط القاعة وربطوه اليها .

وجاء اصدقاء الجولرا واحدقوا بجافير متعجبين مشدوهين . وصاح الجولرا محتدماً : « سترمى بالرصاص قبل استيلاء الجيش على الحانة بعشر دقائق » .

فقال الضابط بصوت الواثق الذي لا يخاف : « ولمَ لا تفعل ذلك الآن ؟ » .

« لأننا نقصد في الذخيرة » .

« فاستعمل السكين » .

« اصمت ايها الجاسوس ، فنحن قضاة ولسنا سفاحين ! » .

ثم استدار الى غافروش وامره ان يؤدي المهمة التي ناطها به ، فيجوس خلال الناحية ويتسقط الاخبار ، ويحيطه علماً بما يجري على قدم وساق في الجهات المقابلة التي تتركز فيها قوى البوليس ويسيطر عليها الجيش .

★

لن تكمل الصورة المظلمة للحالة في ذلك اليوم إلا بسرد واقعة اخرى حدثت فور ذهاب غافروش .

فالدّهماء ككرات الثلوج ، تتجمع ولا تفتأ تتجمع .. فهم لا يسألون بعضهم البعض من اين جئت وما مرامك ؟

فمن جملة الذين لحقوا بزمرة انجولرا ، رجل سكير يدعى « كابوك » وقد جلس مع عدد من الشبان خارج الحانة ، وجعل ينظر الى بناء ضخم ويقول : « ايها الاصحاب ، يخلق بنا ان نبادر الجيش بالنار من ذلك البناء » .

وأجابه سكير آخر فقال : « إلا ان البيت موصد الابواب » .

قال : « وسنقرعها ، فان لم يستجيبوا حطمناها وقتحمناها ! »

ونهض من مكانه وهرول الى الباب الكبير وجعل يقرعــه بشدة ويصيح ويهدد . وبدا وجه البواب من كوة تعلو الباب وقال مستفهماً : « ماذا تطلب ايها السيد ؟ » .

فقال كوباك محتدماً : « افتح ... ويلك ! » .

« ولكن هذا مستحيل » .

« افتح قلت لك !

ورفع بندقيته واستتلى : « هل تفتح ؟ » .

« كلا يا سيدي ! » .

« أو ترفض ؟ » .

وصوب بندقيته الى رأس الرجل . ولم ير المسكين ما فعله السكير ، فقد كان الظلام شديداً في تلك البقعة .

وقال البواب : « لا مندوحة لي من الرفض . .. !! » .

ولم يتم ، فقد انطلق الحمام من فوهة البندقية ، فاخترقت الرصاصة الجبـهة واستقرت فيها !

وقال كابوك : « هذا عقاب تستحقه ايها الوغد . » .

وما كاد ينبس بهذه الكلمات حتى شعر بقبضة من حديد تهوي على كتفه ، وسمع صوتاً مريعاً يقول : « أجثُ .. أجثُ على ركبتك ! » .

واستدار القاتل ، فرأى امامه انجولرا بوجهه الشاحب المتجهم ، وكان يشهر مسدسه بيده .

واعاد انجولرا كلماته : « على ركبتيك .. أجث ، أجث .. » وضغط على كتفه بقوة خارقة جعلته ينثني كقصبة لدنة !

واستتلى : « لديك دقيقة واحدة تصلي فيها لخالقك .. » .

وامسك ساعته باليد الاخرى .. ثم ادنى مسدسه من رأس الرجل ..

ومزق الفضاء بعد دقيقة دوي الرصاصة وانطرح السكير القاتل فاقد الحياة!

واستدار انجولرا الى من تجمع حوله من الرجال وخاطبهم بصوته الجهير فقال :

« ايها المواطنون : ما عمله هذا الرجل مريع ، وما فعله فظيع ! انه قتل، ولهذا قتلته انا ! وقد اكرهت على ذلك لأن الثورة يجب ان تتقيد بالنظام .. إنها ترمقنا بعينيها ، إننا رسل الجمهورية ، ويجب ان لا نتيح الفرصة لأعدائنا لينتقصوا كفاحنا ويثلبوا جهادنا ، لهذا قاضيت الرجل وحكمت عليه بالموت ! ولأني اضطررت الى قتله ، فقد قاضيت نفسي ايضاً ، وسوف ترون ما حكمت به على شخصي » .

فارتعش المستمعون واستحوذ عليهم الذهول . وقال كورفيراك : « سنحذو حذوك ، سنشركك في مصيرك ! » .

وثبت بعد سنين أن كابوك كان من رجال الشحنة السرية ، وان اسمه

المستعار هذا لم يلبث ان كشف اسمه الحقيقي ، وهو « كلاكيسو » !.

★

رن الصوت المنادي الذي حث ماريوس في الفسق على الانضمام الى رفاقه في شارع « شانفريري » الذي تقع فيه حانة كورينث كأنه دعاء القدر . لقد رغب في الموت . وها هي الفرصة تسنح .. كان يقرع باب القبر ، فامتدت له يد من الظلام بالمفتاح !

وانفلت ماريوس من الحديقة وهو يقول : « فلأذهب .. لأذهب .. » .

ومشى مخترقاً الشوارع المظلمة المقفرة دون ان يداخله خوف أو رهبة .. مشى ساعة ، ثم اقتعد حجراً في جانب من الطريق ودعم رأسه بيديه واستغرق يفكر .

فكر بأبيه الكولونيل الباسل الذي أدى رسالته كجندي خير اداء، فدافع عن حدود فرنسا ، والحكومة جمهورية ، وتوغل في اراضي آسيا تحت لواء الامبراطور، ونزفت من دمائه قطرات طاهرة في العديد من المدن والأمصار..

وحدث الفتى نفسه قائلاً : « لقد حان يومي ، وأزفت الساعة التي أبدي فيها من الشجاعة ما أبدى والدي .. فيسفك دمي ، وأهاجم العدو ، وأسعى الى الموت .. ومن هو هذا العدو ؟ إنه بنو جلدتي .. سوف أحارب قومي ، سوف أريق دم بني قومي .. » وتراءى له سيف والده .. فلو لم يبعه جده لكان حمله اليوم ، ولكان احرق يديه .. لأنه .. لأنه سيطعن به بلده ووطنه واستغرق في بكاء مرير .

إنه لأمر مريع ! ولكن ماذا في طوقه ان يصنع ؟ هل يعيش من غير كوزيت ؟ هل يتسنى له ذلك ؟ فلا مناص له من الموت إذن .. ألم ينبئها بأنه

ذاهب الى المجهول ؟ لقد غادرته وهي عارفة بما ينتظره ، فهي إذن ترغب في موته .. ولا يخلق به الاحجام مهما كانت الاسباب .. حتى ولو كانت الحرب التي سيخوضها حرباً أهلية .. بل تجدر به الاقدام ، حتى لا يخفر عهد اصدقائه ، وهم قلة تجارب كثرة . ولا يليق به ان يتردد فيفشل في آخر أمر سولته له نفسه ، كما اخفق في كل امر حاول الاضطلاع به ! .. ولو كانت روح أبيه هنا ، لو كانت حاضرة معه لصاحت زاجرة مؤنبة ولقالت : « تقدم .. تقدم .. ايها الجبان الفسل ! » .

ثم ان أمره ليس أمر طامع في جاه او مال ، ولا حرج على فرنسا لو سالت اليوم دماؤها ، فستلعق جراحاتها ، وستصان حريتها ، وسينصب لعزتها نصب أبدي في جنة الخلد !

لما رأى ان الفكر لا يغنيه فتيلاً نهض واقفاً ومضى متوجهاً نحو ما قصد اليه بعزم وسرعة ولاحت له الحانة المحصنة من بعيد ، واقترب من البيت الضخم ، وطالعه من الكوة وجه البواب القتيل ، فأجفل وتريث ، ورأى خيطاً طويلاً من الدم ينساب من شق الباب ، ورأى العينين الجاحظتين تحدقان باستمرار ، وكأن الرجل الميت يحاول ان ينظر الى الرجال الذين لن يعتموا ان يموتوا !

•

دقت ساعة المدينـــة دقاتها العشر ، ولم يحدث شيء ، وكأن الجانبين لا يعرفان كيف يتخيران ساعة الشروع والبدء .

وارتفع من احشاء الظلام على حين غرة صوت يافع يغني ..

وتشنج اصدقاء السوقة ، وارهفوا السمع .

وقال انجولرا : « إنه غافروش » .

وقال كومبيفي : « وهو ينذرنا ويحذرنا » .

واندفع الصبي بسرعة البرق داخلاً نطاق الأمان ، وقال : « اين بندقيتي ؟ أعطوني بندقية ، فهم آتون .. آتون .. » .

واخذ كل شاب مكانه المتفق عليه ، وشرّعوا اسلحتهم ، وأنصتوا، وحدقوا في الظلام . وخفقت قلوبهم .. انها المعركة .. المعركة .. او الفناء في سبيل الوطن !

فواهاً للوطن الذي ينجب أمثال هؤلاء الأبطال ! يا للوطن الذي يتخذ فيه الشباب مبدءاً راسخاً لا يحيدون عنه ، ولا ينحرفون ، ولا ينكصون . بل يعملون ، ويكافحون ، حتى يلاقوا المنون !

وتناهى الى سمعهم صوت خطى ، وزاد الصوت وضوحاً .. واقترب .. واقترب .. متمهلاً .. مستأنياً !. واقترب .. دون تردد .. ولا توقف !. ولم يسمعوا شيئاً آخر .. وكان الصوت عميقاً مفترشاً مساحة شاسعة .. كان عميقاً ينم عن كثرة محدثيه ..

ودنا .. ودنا .. ودنا .. ثم انقطع .. وارتفع على حين غرة صوت من ذلك الجانب يصيح فيهم صيحة عظيمة ارتج لها المتراس الكبير : « من هناك ... ».

واجاب انجولـــرا بصوت رنّ كالجرس في ذلك الظلام الدامس : « الثورة الفرنسية ! » .

فقال الصوت : « أطلقوا النار ! » .

وانبثق من البنادق في آن واحد جحيم متقد . وسقطت الراية الحمراء .. وجرح عدد من الرجال .

وكان تأثير الهجمة الاولى هذه مجمداً للاطراف .. وداخل روع المدافعين أنهم يواجهون فرقة برمتها .

وصاح كورفيراك : « أيها الرفاق ، لا تبددوا البارود ، بل انتظروا حتى ينزلوا الى الطريق » .

وعقب انجولرا : « ولنرفع الراية ثانية » .

والتقطها واستتلى : « من منكم يفعل هذا ؟ من تحفزه شجاعته ووطنيته لرفع العلم ؟ ».

فلم يتقدم انسان . فان رفع العلم معناه الموت .. وأشجع الشجعان يتردد قبل ان يفعل ذلك .. حتى انجولرا أحس برجفة تأخذه بشدة وعنف .

واستتلى : « ألا يضحي أحد بدمه ؟ » .

●

لم يكترث أي منهم بالأب مابوف ، فقد أهملوا أمره وانهمكوا منذ مجيئهم في الترميم والتحصين والبناء ، إلا انه لازمهم ولم يفارقهم .

ولما استولى الخوف على الجميع ساعة طلب انجولرا رفع الراية ، غادر الشيخ مكانه مقترباً من انجولرا ، واختطف الراية ..

وحملق فيه الجميع مأخوذين مبهوتين – حملقوا في ابن الثمانين وهو يحمل الراية الحمراء ويرقى الدرجات ..

كان الصمت مخيماً ، كان الجميع واجمين مخلدين الى السكون كأن عـــلى رؤوسهم الطير .

ووصل الأب مابوف الى الدرجة الأخيرة ، وبسط ذراعيه ، ثم رفعها فوق رأسه .. ورفرف العلم .. وصاح :

« فلتعش الثورة ! لتعش الجمهورية ! الأخوة ! المساواة ! الموت ! » .

وتعالى صوت من الجانب الآخر يقول : « من هناك ؟ تفرقوا » .

وأجاب مابوف : « لتعش الجمهورية » .

وقال الصوت الآمر : « النار ! » .

وانبعث الموت الزؤام من فوهات البنادق ، وسقط الشيخ على ركبتيه ، ثم نهض واقفاً ، وترنح ، وتمايل ، ثم هوى من عل الى الداخل ويداه متشابكتان !

وهرع اليه انجولرا ، وقال : « رأس عنيد وقلب بروتوس » .

أما غافروش فلم يغفل عن المراقبة ؛ كان يحدق في اتجاه المهاجمين ، ويتأمل في الظلام ، ويصيخ السمع . فما كاد انجولرا يتم كلامه حتى صاح الغلام : « الى السلاح ! لقد هوجمنا ! » ، واندفع الجميع من داخل الحانة ، فشاهدوا رجالاً طويلي القامة شاكي السلاح يتسلقون التحصينات . وتلاحم الفريقان ، فقتل باهوريل رجلاً ، وقتل رجل باهوريل . وطرح آخر كورفيراك ارضاً ، فأخذ الأخير يناضل ويستصرخ .

ومشى أضخمهم جسداً نحو غافروش يروم البطش به بحربته . فشهر المتشرد الصغير مسدس جافير الذي استولى عليه ، وصوبه الى الرجل بيد ثابتة وضغط على الزناد . فلم تنطلق الرصاصة . فضحك الجندي مقهقهاً ورفع يده ، ولكن قبل ان يجم القضاء بالغلام ، سقطت البندقية من يد الجندي .. فقد اخترقت جبهته قذيفة نارية شدخت الرأس . كما اصابت قذيفة اخرى مقتلاً من الجندي الذي كان ينوي الفتك بكورفيراك .. وكان مطلقها ماريوس ، فقد دخـــل التحصينات في تلك الفينة .

وما استدار ماريوس الى اليمين قليلاً حتى صوب جندي آخر بندقيته الى صدره وهمّ باطلاقها . وارتفعت يد من الظلام دفعت فوهة البندقية جانباً ، ولكن الرصاصة انطلقت مخترقة اليد المنقذة ..

واستمر العراك دامياً بين الطرفين ، وسقط من سقط ، ومع ذلك فلم يصب الوهن اولئك المتناحرين .

في تلك الغمرة الدامية تسلل ماريوس نازلاً وفي يده كمية كبيرة من المتفجرات ، وصاح بالجنود المتكاثرين وهو يضع البارود تحت التحصينات ، « عودوا ادراجكم وإلا نسفتكم نسفاً ! » .

ورد عليه قائدهم : « وبذلك تنسف نفسك » .

قال : » وأنسف نفسي ايضاً ، فاذهبوا » .

وأدنى المصباح من البارود .

ولكنهم فروا — غادر الجنود المكان بسرعة البرق تاركين وراءهم قتلاهم وجرحاهم .

•

أحاط الجميع بماريوس يزفون اليه تهانئهم ، ويزجون شكرهم وقال له انجولرا بعد ان افرغوا جعبتهم من المديح والاطراء : « انت ولا غرو بطل ، واني لأتنازل لك عن القيادة » .

ثم شرعوا يبحثون عن جان بروفي، فلم يعثروا عليه بين الجرحى والمقتولين، فأيقنوا انه اخذ اسيراً .

وقال كومبيفي ساعتئذ : « فلنفتد زميلنا بجاسوسهم ! » وهمَّ بعصاً طويلة اقام على رأسها منديلاً ابيض ..

بيد ان صوتاً يعرفونه جيداً ارتفع في تلك الاثناء حاداً جهورياً وهو يهتف ويقول :

« لتعش فرنسا .. لتعش الثورة ! » .

وعرفوا صاحب الصوت .

ومزق الفضاء صوت انفجار .

وخيم السكون .

وقال كومبيفي : « لقد قتلوه » .

ونظر انجولرا الى جافير الموثق وهزّ رأسه وهو يقول موجهاً الحديث اليه : « لقد قتلك اصحابك ! » .

وسمع ماريوس صوتاً وانياً يناديه من احد الاركان ، فاتجه ناحية النداء ، وهو يرتعش من الانفعال – فالصوت مألوف لديه ، وقد ناداه منذ ساعات ووجهّه الى الحانة ..

وألفى امامه شخصاً يزحف .

وأمعن فيه النظر وهتف مشدوهاً : « إيبونين ! » .

وكانت الفتاة ترتدي ملابس رجل .

ولما استعاد انفاسه اللاهثة قال : « وماذا تفعلين هنا ؟ » .

« انني اموت » .

فأجفل الفتى وقال : « وهل أصبت ؟ .. » .

ووضع يده عليها فصاحت من الالم .. ونظر الى يدها فاذا في وسطها ثقب متسع ينزف دماً . فخارت نفسه وقال متسائلا : « وكيف حصل هذا ؟ كيف أصبت . » .

« حاولت انقاذك فاخترقت الرصاصة يدي » .

« انت ؟ انت التي درأت عني الموت ؟ » .

وأنّ انيناً مؤلماً . .

وألقت المحتضرة رأسها على ركبتيه وقالت: « أواه ! اني اموت سعيدة! ».

وارتفع صوت غافروش يغني .

فالتفت إيبونين نحوه بجزع وقالت : « انه اخي ، ويجب ان لا يراني ! » .

فقال ماريوس متعجباً : « اخوك ! » .

قالت : « اجل ، ولكن ، استمع لي : في جيبي كتاب كلفت بايصاله اليك، فتلكأت وراودتني نفسي على تمزيقه ، فخذه الآن ، خذه ! » .

واخذ ماريوس الكتاب من جيبها .

واردفت بصوت متقطع : « أتعدني .. أتعد ان تقبلني في جبيني متى انقطع نفسي الى الابد ؟ » .

قال : « اعدك . اعدك .. » .

ولفظت البائسة انفاسها الاخيرة ، ووفى ماريوس بوعـــده . ثم قام الى الطباق الارضي ففض الكتاب وقرأه .. وقد جاء فيه :

« ايها الحبيب ، يا لهفاه ! إن ابي يصر على الرحيل ، سنمكث اسبوعاً في شارع « الرجل المسلح » رقم (٧) ثم نغادر البلاد الى انكلترا - كوزيت — ٤ حزيران » .

فماذا جرى حتى قسر جان فالجان على مغادرة بيته في الشارع المهجور ؟ ولمَ انتقل الى المسكن الجديد ؟.

كانت ايبونين هي السبب في كل ما حدث !

فبعد ليلة الثالث من حزيران داخل عقلها فكران — احباط مؤامرة أبيها، وإبعاد ماريوس عن كوزيت . فتنكرت بزيّ الرجال ، وأنذرت جان فالجان

بمغادرة منزله والرحيل الى مكان آخر . ولم يكذب الرجل المتوجس خبراً بل قفل بسرعة الى البيت وأطلع كوزيت على نواياه . فالتاعت الفتاة : كيف تتصل بماريوس ؟ كيف تحيطه بخبرها ؟

وكانت ايبونين تتسكع خارج الحديقة ، وكأنها تتوقـــع حدوث شيء .. فرأتها كوزيت ، وخالتها شاباً عاملاً فدعتها اليها ونقدتها خمسة فرنكات . مقابل إيصال الكتاب الى منزل كورفيراك .. وكتبت العنـوان على الظرف .

وذهبت ايبونين متنكرة ايضاً الى بيت كورفيراك صباح الخامس مـــن حزيران لا لتعطي ماريوس كتاب محبوبته ، بل لتراه - فهذا شأن العاشقين .. الغيرة والحسد والمجازفة ..

وكانت هي « الشاب » الهزيل الذي زامل كورفيراك واصدقاءه ولازمهم طيلة النهار . فقد ومضت في ذهنها فكرة مريعـــة - أن تموت ، وأن يموت ماريوس ، وبذلك تظفر به الى الأبد.. لوحدها.. دون ان تشركها كوزيت او غيرها في قلبه وحبه .

ولما اختفت مـــن مكان التحصينات ، فعلت ذلك بقصد استدراج ماريوس تحقيقاً لهدفها الذي أملاه الحب او الجنون !

واسترقت الخطو الى الدار التي هجرها جان فالجان وكوزيت وتلبثت تنتظر مجيء ماريوس . وأتى الفتى ، فطرق الباب فلم يستجب له احد . وعنّت له فكرة الانتحار ، ولكنها صرفته عنها بما قالته فقـــد فكر الفتى بأصدقائه ، وخالها الفرصة الملائمة لانتهاء حياته وعذابه .

بيد انها درأت عنه الموت لتفتديه بمهجتها ! وماتت بين يديه بعدان أعطته

الكتاب . ولكن ذلك لم يبدل من رأيه وعزمه . وكان ان تناول دفتره من جيبه وكتب في ورقة منه :

« زواجنا ضرب من المحال ، نشدت موافقة جدي فأبى ! هرعت الى منزلك فألفيتــه خالياً .. يئست وابتأست .. تذكري وعدي لك ، سأموت الليلة .. اني أحبك .. عندما تقرئين هذه الكلمات تكون روحي قريباً منك ترفرف حولك وتحوم فوق رأسك .. الوداع ! » .

وكان قد آلى على نفسه ان ينقذ ابن تينارديي بعد ان تسبب في مقتل ابنته ، فدعا غافروش الصغير إليه ، وأمره ان يوصل الرسالة دون امهال .

فأبى الغلام وقال محتجاً: «ولكنهم سيستولون على التحصينات أثناء غيبتي !».

قال: «افعل ما امرتك يا فتى ، فهم لن يشنوا علينا الهجوم قبل مطلع الفجر».

وصدع غافروش بالأمر مكرهاً ، الا انه عزم على ايصال الرقعة بسرعــة البرق والرجوع قبل ان ينسلت الصبح بساعات .

★

دخلت الشمس في الطفل عندما همّ جان فالجان بأمتعته القليلة في الخامس من حزيران ينقلها الى المنزل الجديد في شارع الرجل المسلح . وكان في انتظاره هناك مفاجأة اخرى لم تزل طيّ الخفاء .

ووصلا مع الخادمة الى المنزل، دون ان ينبس اي منهما ببنت شفة، فالاثنان استولى عليهما شرود المفكر المستغرق في خواطره ! وكانت كوزيت حزينــة النفس والهة ، بينما كان جان فالجان قلقاً منفعلاً يأول كآبتها مختلف التأويل ، ولا يجد لشجنها مبرراً .

وكانت قد اختلست دقيقة من وقتها فكتبت رسالتها الى ماريوس واعطتها لايبونين المتنكرة .

وحاولت الخادمة في مساء ذلك اليوم ان تطلعه على الاحداث التي عمّت العاصمة وقلبتها رأساً على عقب .

ولكنه لم يَعِ ما كانت تتمتم به ، فقد انشغل تفكيره بكوزيت . وبينا هو يذرع القاعة ذهاباً واياباً ، اذ به يجمـــد بغتة ويحدق في احرف منمسكة في المرآة عن نشافة الحبر التي تستعملها كوزيت .

وأمعن النظر بقلب واجف ، وقرأ مثنى وثلاث :

« ايها الحبيب ، ياهفاه ! ان ابي يصر على الرحيل ، سنمكث اسبوعاً في شارع « الرجل المسلح » رقم (٧) ثم نغادر البلاد الى انكلترا — كوزيت — ٤ حزيران » .

وانبأته غريزته التي لا تخطىء عن محطم قلبه وسعادته .. عرف بسرعة من يكون الفتى الذي استولى على كوزيت .. وشعر بالكراهية ! وخرج المعذب فجلس على حجر قريب من الباب وجعل يتأمل في الشارع المقفر .

●

وجاء المتشرد ! جاء غافروش . وكان جان فالجان يتقاذفه مد وجزر .

وأفزعه دوي ، فمدّ بصره على سجيته . فلم ير شيئاً ولكنه سمع اشياء .. وسقط رأسه على صدره .. وسحت دمعة من مقلته .. وتدفقت ينابيع الشقاء من مهجته ..

ودنا منه غافروش، ومرّ مبتعداً ثم رجع . وقال البائس المكسور الخاطر : ايها الصبي الصغير ما خطبك ؟ » .

فقال غافروش بحدة : « خطبي الجوع .. ثم انك انت الصغير ! » .

وتناول الشيخ قطعة نقود من جيبه وقال : « خذ هذه ، فهي لك » .

ولكن الغلام لم يأبه للقطعة بل التقط حجراً وقال : « أما زال في الشارع مصابيح مضاءة ؟ احتفظ بمالك ، فلـــن تنال مني وطراً ! » وقذف المصباح بالحجر فحطمه .

وقال جان فالجان بصوت رقيق ينضح بالرثاء : « ألك أم ؟ » .

قال : « لي أم ، اما انت فلا ام لك ! » .

« فأعطها هذه القطعة إذن » .

قال : « سقياً لك من شيخ نبيل » وتناول القطعة فأسقطها في جيبه .

واستتلى : « وأين المنزل رقم ٧ ؟ » .

وتنبهت حواس جان فالجان ، وتكهن بأمر ، ولم يلبث ان عجـل يقول : « وهل جئت بالكتاب ؟ » .

« ولكنك رجل لا امرأة » .

« ان الكتاب للآنسة كوزيت . فهاته انها على احر من الجمر » .

واختطف الكتاب ودلف الى الداخل .

وكانت كوزيت نائمة ، وكانت الخادمة تغط في نومها .

لقد جاءت النهاية ، وانتهى كل شيء .. دون ان يكون له ضلع في الخاتمة القاتمة .

بعد ساعة غادر جان فالجان البيت وهو يرتدي بزة الحرس الوطني ويحمل السلاح .. فقد عثر له البواب على مطلبه ، وجاءه باللباس والسلاح والذخيرة الوافرة .

إلتمس أصدقاء السوقة ومن تكاتف معهم من الثائرين في الدفاع عن الحانة وصد هجمات قوى الحكومـــة ، الخلاص من جثث المقتولين . ثم نظروا في سلاحهم وذخيرتهم ، واحتالوا لنفوسهم وسائـل اصلاح هذا السلاح ، وصنع الطلقات حتى أصابهم منهـــا الكثير . واشتغلوا بعد ذلك بتضميد جراحات الاعداء المأسورين والرفاق المصابين ، مؤثرين رجال الامن بالافضل من العلاج والاضمدة .

وأصبح الخوف مجهولاً ، وكأنهم يقصدون في نضالهم السماء وكأن الموت لا يطل عليهم بوجهه الكالح ، وكأنهم في مقام تسلية ولهو .. فالطرب يستخفهم ، والدنيا جذلة مسرورة من حولهم .

ولم يبق من أحـــد في الطباق الارضي سوى جثة مابوف ، وجافير الموثق المقيـد .

اما الطعام فنفدت كمياتـــه الضئيلة وأكل الخبز واللحم ، فليجوعوا ، وليتضوروا من الجوع .. ولِم لا ؟ وماذا يضيرهم وساعاتهم أمست معدودة ؟ فهل يشربون ما تبقى من خمر ؟ هل يأذن لهم انجولرا بذلك ؟ كلا انه لن يفعل ، وها هوذا يستولي على الزجاجات المفعمة بالخمر المعتقة ويضعها بجانب جثة مابوف.

وداخل قلوبهم الأمل .. ألم يصمـدوا الليل بطوله ؟ الم ينزلوا بالمهاجمين ضربات قاصمة ؟

وتسلل انجولرا الى مكان بعيد، وما عتم ان رجع وهو يبتسم وقال: «آلاف من الرجال يتأهبون لشن هجومهم علينا بعد ساعة » .

وصاح صوت من ركن مظلم : « ليكن هذا . لنرفع المتراس عشرين قدماً. لنقف رجلاً واحداً ايها المواطنون : ليكن موتنا احتجاجاً يقدمه الوطن ..

لنبين للملأ انه وإن خفر الشعب عهد الجمهوريين ، فالجمهوريون لن ينكثوا عهد الشعب ! » .

بعد صيحة الرجل الاول ، ارتفعت صرخته مجلجلة اشترك فيها المناضلون :

« ليعش الموت ! لنبق كلنا هنا ! » .

« ولمَ كلنا ؟ » قال انجولرا .

« كلنا .. كلنا » ..

واستتلى انجولرا .. « ان المتراس حصن حصين ، يكفيه ثلاثون ، فما حاجتنا الى تضحية اربعين ؟ » .

« لأن احداً منا لن يتخلى عنا » .

فهتف بصوت جهير : « ايها المواطنون .. الجمهورية تفتقر الى الرجال ، ولدينا اربع بزات عسكرية ، يستطيع اربعة منا ان يتنكروا بها ويتلمسوا طريقهم الى الاحياء الآمنة » .

وقال كومبيفي : « انا وحيد في هذه الدنيا .. وانت وحيد .. وانت وحيد .. فمن منكم له زوج وأطفال ؟ من منكم يعيش في كنفه أب وأم واخوة ؟ من ؟ من ؟ .. آه انكم كلكم تبغون الموت ، وانا كذلك أبتغيه .. ولكني لا اود ان اسمع متى ُحدث ، لعنات النساء تصب على رأسي .. » .

يا للمناقضات ! كومبيفي يتكلم حاثاً كل شخص يعيل قاصراً او عاجزاً او امرأة ان ينجو من نطاق الموت ، وهو .. من هو ؟ أكان لطيا حتى يتذكر امهات غيره ؟ كلا ، بل كان له ام ، ولكنه نسيها وتذكر امهات سواه .. انه يريد الموت .. انه ذو اثرة وانانية ! !

وتقدم ماريوس الى الامام وقال : « لا جرم ان انجولرا و كومبيفي على

حق ، فما معنى التضحية التي لا مبرر لها ؟ هلموا ، تقدموا الى الامام ، ليتقدم كل رجل يعيل اسرة .. » .

فلم يتقدم انسان

واستتلى ماريوس : « ارجوكم ! » .

وقال انجولرا : « آمركم ! » .

وأثرت فيهم الكلمات — كلمات كومبيفي وبيانه .. وامر انجولرا لما يتمتع به من قوة وارادة .. وسحر ماريوس منقذ الجماعة من الشر المستطير ! فشرعوا يتداولون ويتناقشون .. هذا يكذب ذاك ، والآخر يقنع زميلـــه بأنه ، أي زميله ، جدير بالنجاة ! ولم يتقدم الرجال الا بعد ان حثهم انجولرا على الاسراع.. ولكن عدد من تقدم كان خمسة .

وقال ماريوس : « انهم خمسة ولدينا اربع بزز فقط » .

وحمي وطيس الجدال ثانية ، وشرع كل من الخمسة يحاول ان يتخلف عن الآخرين !

وارتفع صوت في تلك الاثناء ، وسقطت بين الرجال الخمسة بزة خامسة ..

ورفع ماريوس ناظريه ، فرأى السيد فوشلفين .

لقد ولج جان فالجان المكان في تلك الدقيقة مخترقاً ذلك الجحيم المطوق بالنار والحديد بردائه العسكري الذي تنكر فيه .

وما كاد يعي ما يدور حوله حتى نزع عنه سترته وقذفها .

وقال بوسي : « من هذا الرجل ؟ » .

فاجاب كومبيفي : « انه رجل ينقذ غيره من الرجال ! » .

وقال ماريوس : « أنا اعرفه » .

واستدار انجولرا نحوه وقال : « ايها المواطـــن ، على الرحب .. إلا اننا صائرون الى زوال ، فهل تعلم ذلك ؟ » .

فلم يحر جان فالجان جواباً ، بـــل اقبل على الرجال الخمسة يساعدهم في ارتداء الملابس العسكرية .

وغادر الرجال الخمسة الحصن ، وفكر أنجولـــرا في الجاسوس الاسير ، فذهب اليه وسأله إن كان يروم شيئاً .

فقال جافير : « جرعة ماء ! » .

وما اسرع ما جاءه الشاب بها وساعده على حسوها .

ولما روى جافير ظمأه قال : «إنني اتألم هنا منذ ساعات،فلم تتركني هكذا؟ ولمَ لا تنفذ فيّ الحكم ؟ أو ، مـا لك لا تتيح لي الاضطجاع على مائـدة أسوة بغيري ؟ » وأومأ برأسه الى جثة مابوف !

وتردد انجولرا قليلاً ثم امر اربعة رجال بوضعه على المائدة وتقييده اليها.

وبينا انهمك الرجال في عملهم ، صوب رجل يقف على عتبة الباب بنظره الى جافير وحدق فيه . وتنبه الضابط الى الرجل فثنى عنقه قليلاً وحدد فيـه لحظه ، ورأى امامه جان فالجان !

ونكس رأسه وجمجم يقول : « إنه امر طبيعي منتظر ! » .

●

سطع النهار وجاء غافروش ابن الليل .

ورآه ماريوس فارتعد وجذبه إليه قليلا : « ماذا جاء بك ؟ » .

«ايها المواطن، كانت نائمة، فاضطررت الى تفويض البواب بايصال الكتاب !» .

وكان هدف ماريوس مزدوجاً — الاتصال للمرة الأخيرة بكوزيت ، وإنقاذ غافروش .

وومض في عقله خاطر . ومـــا لبث ان اشار الى فوشلفين وقال « أتعرف هذا الرجل ؟ » .

فالتفت غافروش الى جان فالجان ، ولكنه لم يتعرف عليـــه ، فهز رأسه ، وما ابطأ ان زاغ زوغة خاطفة وصاح : « اين بندقيتي ؟ » .

وجاءه كورفيراك ببندقية . وزحف الجنود فاحتلوا مكاناً دنياً ، وصوبوا سلاحهم الى المتراس والحانة . وادرك انجولرا انه اذا انهال الجنود على المتراس برصاصهم ، فلن يتسنى لهم الصمود، بل ستحصدهم النيران حصداً كلياً ، وليس لهم وسيلة يسدون بها طريق الرصاص، ويدرؤونه عن صدورهم إلا بوضع فراش على النافذة .. فمن اين لهم الفراش ؟ . تطلعوا حولهم ، أيسحبون الفراش الذي سجّي عليه مابوف ؟ أينتهكون حرمة هذا البطل الشيخ ؟

وتناول جان فالجان بندقيته فصوبها الى حبل علقت عليه فرشة في الطباق السادس لمنزل مقابل، فقطعه من الناحيتين بطلقتين، وسقطت الفرشة الى الطريق.

فن يأتي بها ؟ من يعرض جسده لرصاص العدو !

وتحرك جان فالجان ، واندفع وسط سيل منهمر من الرصاص فحملها على ظهره وجاء بها دون ان يصاب بأذى. ثم وضع بنفسه الفرشة في الثغرة الكبيرة.

وبعد ان انتهى من عمله ، خاطبه انجولرا قائلاً : « ايها المواطن الجريء ! إن الجمهورية لتشكر لك اريحيتك وشجاعتك ! » .

واصل الجنود هجومهم. واصلوا قصفهم لموقع الثائرين ، فأصلوه ناراً حامية حتى يستنفدوا بذلك ذخيرتهم . ولكن انجولرا فطن الى مرماهم ، فأمر زملاءه ان يقصدوا في استعمال الذخيرة وان يقبعوا في اماكنهم ساكنين .

وذهل المهاجمون ورأوا ان يطلعوا على ما يجري وراء المتراس ، فارسلوا عيناً من عيونهم الى اعلى بناء . ورأى انجولرا وجماعتـــه الخوذة المتلألئة فوق رأس الجندي . وشرّع جان فالجان بندقيته وأطلق رصاصة واحدة اسقطت الخوذة عن الرأس !

وجاء غيره وأسقط جان فالجان خوذته ايضاً . وخاف الباقون فلم يجرؤ احد على التلصص والاقتراب .

وقال بوسي مستفهماً : « ولِمَ لم تقتل الرجلين ؟ » .

وأخلد جان فالجان للصمت ولم يجب .

وتأجم غيظ ضابط كبير من ضباط الحرس، فضرب بالاوامر عرض الحائط وامر رجاله ان ينقضوا على المتراس ، واندفع هو إمامهم وفي مثل لمح البصر اصبح اكثر من عشرين جندياًمن فرقته جثثاً مطروحة ، وكان هو في مقدمة من قتل !

وجن جنون المهاجمين فصوبوا قذائف المدفع الى الحصن ، ورد المدافعون وحمي وطيس المعركة ، وصاح انجولرا : « هذا لا يدوم ، ستفنى ذخيرتنا بعد دقائق وسنذهب لقمة سائغة لاعداء الحرية والجمهورية » .

وسمع غافرش مقاله .

★

لمح كورفيراك شخصاً يتحرك خارج المتراس متعرضاً لزخ الرصاص. وعرف من يكون هذا الشخص فصاح محتدماً : « ماذا تفعل هناك يا غافروش ؟ » .

وكان غافروش قد جلب سلاً من الداخل وجعل يضع فيه ما يحصل عليه من ذخيرة رجال الحرس المقتولين .

ورفع الصبي رأسه واجاب : « ايها المواطن ، اني استولي على الرصاص ! » .

« ارجع ، ارجع .. ألا ترى الرصاص المتطاير ؟ » .

« سأرجع .. » ووثب الى الامام وهو يضحك .

واصابت رصاصة سلته ، فاخترقتها من جانب لآخر . واخترقت رصاصة ثانية جمجمة احد المجدلين ، فقال : « تباً لهم ! انهم يقتلون الموتى ! » .

واصابته رصاصة ثالثة ، فترنح في مكانه ، ثم وقـع .. وصاح المجاهدون بصوت واحد ، ولكن غافروش عاد فاستوى جالساً فوق بركة الدماء النازفة من وجهه الغض .. ورفع يديه الى أعلى ، ورنا بطرفه الى الجهة التي جاءته منها الرصاصة وجعل يغني !!

سقطت بوجهي إلى الثرى .

فمن قاتلي يا ترى ؟

ورأسي تفجر منه الدم .

وداعاً رفاقي الى الملتقى .

وأصمتته رصاصة اخرى!

قفز ماريوس كالمجنون من المتراس ، ولحق به كومبيفي ، ولكنهما وصلا بعد فوات الوقت ، فغافروش الصغير أضحى جثة هامدة ، والحياة التي كانت تعتمل في صدره وثابة جياشة نشيطة ، غادرته الى الابد . ورجع كومبيفي بسلة الذخيرة ، ورجع ماريوس بجثة بطل .

ودخل ماريوس ، وكان وجهه كوجه غافروش ملطخاً بالدماء ، فقد اصابته في رأسه شظية كادت لولا قليل ان تورده حتفه . ولكنهـــا انحرفت فأصابته بجرح لم يشعر به في اول الامر . فموت غافروش فتّ في عضده ، وموته جعله يفكر بأبيه ويقول لنفسه وهو لا يزال حاملاً الغلام: «وي! لقد جاء ابوه بأبي، ولكن حياً .. وجئت انا به ، ولكن ميتاً .. ليت شعري ، ماذا يقول ابي الآن؟» .

ونزع كورفيراك ربطة عنقه وعصب بهـــا جبين ماريوس ، ثم سجّوا غافروش بجانب مابوف واقتسموا الطلقات التي جمعها لهم قبل مصرعه .

وتقدم جان فالجان وقال لانجولرا : « هل انت القائد ؟ » .

قال : « أجل » .

لقد شكرت لي صنيعي منذ قليل » .

« اثنينا عليك باسم الجمهورية ، لأن للموقع منقذين ، انت وماريوس » .

« فهل استأهل المكافأة ؟ » .

« لا مُرية في انك تستحقها » .

« فذرني إذن أفجر دماغ هذا الرجل» .

وفكر أنجولرا ، ولم يعتم ان قال : «لك ذلك ، فخذ الجاسوس الى حيث تشاء!» .

فلما خلا جان فالجان بالمفتش جافير ، أطلق سراحه من القيود التي أوثقوه بها ، ثم أشار اليه أن يقف ، فأطاع جافير بصلف الوظيفة التي كرس نفسه لها ، وبغطرسة من يضحي بحياته على مذبح كرامته .

وقاده الى الخارج من الطريق الخلفي المفضي الى الممر الصغير الذي تراكمت فيه جثث المقتولين ومن بينهم جثة إيبونين .

ووضع جان فالجان المسدس تحت إبط أسيره ، وانتضى باليد الأخرى سكيناً مسنوناً ، فقال جافير وهو لا يزال يبسم هازئاً : «هذا أخلق بتلك السكين!» .

وقطع جان فالجان الحبل الذي يشد رجلي المفتش إلى بعضها البعض ويصلها برسغيه ، وقال : « انت حرّ طليق ، فاذهب ! » .

فحملق جافير مشدوهاً .

واستطرد جان فالجان : « انني اتوقع الموت هنا في كل لحظة ، ولكن من يعلم ؟ ربما جرى ما ليس في الحسبان ، لهذا أرى ان انبئك بعنواني ، فانا اقيم في جادة « الرجل المسلح » رقم ٧ واعرف باسم فوشلفين »

فقال وهو يقطب : « حذار ، حذار ! » .

وابتعد الرجل الصارم ، إلا انه التفت وصاح بملء فيه : « تباً لك ! اما كان احرى بك ان ترديني ؟ » .

ولم يلحظ جافير ان لهجته كانت توحي بالاحترام والاكبار ، ساعة اهاب به ان يقتله حتى يريحه من نفسه التي لا تعرف في الحق ممالأة ، ولا في شرعة القانون تأويلاً غير الواجب المنزه من الرحمة والانسانية .. وجافير خلو من مثل هذه العواطف !

واطلق جان فالجان رصاصة في الهواء .. وارتعدت فريصة ماريوس ، وسرت في بدنه قشعريرة باردة جمّدت دمه .. كيف يقتل هذا الرجل من احسن اليه ، وانقذه من الموت ؟ ، جافير ! الم يهرع إلى نجدته يوم تألب عليه الشر ليسحقه في جحر تيناردي ؟ !

إستعر الأوار ، وحمي وطيس القتال ، ونشبت معركة ضارية بين قلة مستميتة باسلة ، وكثرة تنفذ اوامر الدولة ..

وتفاقم الهول ، وأخذت النهاية تدنو ساعتها ببطء وثبات . وصمد الابطال في حصنهم وكأنهم ابطال طروادة الغابرين !

وفغرت جهنم الحمراء فاها ، وتلاحم المهاجمون بالمدافعين ، واختلطوا في قتال مرير ، ولعب الحسام دوره في هذا الاختلاط العجيب ..

وقتل « فويلي » ، وقتل « كورفيراك » ، وقتل « جولي » ، وقتل « كومبيفي » ، وضاعت معالم ماريوس لكثرة ما نزف من رأسه ووجهه من

دم، ولكثرة ما امتزج مع هذه الدماءمن غبار وتراب! وما فتىء يقاوم ويناضل حتى تداعت قواه فتهالك وتساقط .

وصال الجولرا وجال ، وقاتل بيديه ورجليه .. قاتل بالمسدس والبندقية والسيف والسكين ، ولم يستسلم .. لم يستسلم ماريوس أيضاً ..

ووقف بعد ان فقد كل سلاح ، وهو ينظر شامخاً متعالياً الى المهاجمين .. ووقف خلف مائدة لا تطرف له عين ، ولا تختلج عضلة !

وهتف جندي : « هذا هو زعيمهم .

فصاح الجولرا بصوته الجهير الرنان : « هاكم صدري فمزقوه ! » .

ان الشجاعة التي تعرف كيف تموت تحرك اثبت الرجال جأشاً.

وسكنت الضوضاء ، وخمدت النيران ، ووقف الجولرا بقامتـــه المشوقة وطلعته البهية ، وقوته المنبثقة مـــن عينيه – ولعله كان الفتى إياه الذي وصفه احد شهود العيان فيا بعد بقوله : « وثمـــة ثائر سمعت انه يدعى « أبولو » ، ورأيته مرأى العين ، فآمنت انه أبولو ! » .

واصطف اثنا عشر جندياً ، وخطا ضابط الى الامام وقال : « اتود ان نعصب عينيك ؟ » .

قال : « لا .. » .

« حقاً ما قيل من انك قاتل المدفعي ! » .

« نعم .. » .

وتنبه غرانتي في تلك الهنيهة من رقاده ومن سكره ، فغادر مكانه .. وكان الجنود الاثنا عشر يتأهبون لاطلاق النار .

ورآه غرانتي فصاح : « لتعش الجمهورية ! » .

والتفت الى الضابط وهتف ثانية : « لتعش الجمهورية ! » .

ودنا من انجولرا وقال مبتسماً: «أتسمح لي؟ هل تقاسمني شرف هذه الساعة؟».

فضغط انجولرا على يده وهو يبتسم .

إلا ان ابتسامته كانت في منتصفها عندما دوى صوت الرصاص فهوى .. وسقط غرانتي على الارض بجانبه ..

وجاء الجنود ففصلوا اليدين المتشابكتين .

ولكن الجنود لم يفصلوا بين القلبين المتعاهدين .

بين قلبين تعلق كل منهما بالآخر بطريقته الخاصة حتى الممات !

●

كان جان فالجان طيلة ذلك يبحث في نفسه ، فيرى ضميره يصرفه صرفاً حاسماً عن الاشتراك في القتال ، فهو لا يعرف إن كان اشتراكه في القتال عدلاً ام ظلماً . فلما تهافت ماريوس وتساقط ، تلقفه الرجل وحمله الى الداخل دون ان يسترعي التفات احد . ومشى به في الطريق الضيق الخالي إلا من الجثث المتراكمة ، والواقع وراء حانة « كورينث » .

ولكن ، كيف يتسنى له الافلات ، والجنود يطبقون على المكان من جميع الجهات ؟ كيف يتسنى له ذلك والموت رابض في كل مكان ، وكل شخص معرض لأقل بادرة تبدر منه لمواجهة عشرات البنادق المتأهبة للانطلاق ؟

فماذا يفعل ، وقد سدت في وجهه المنافذ ؟ حتى البيت الكبير الذي يحرس كوته البواب القتيل غدا محاصراً ، والارجح ان الجنود احتلوا جانباً منه .

وحانت منه التفاتة ، فرأى تحت قدميه « مصبّعاً » من الحديـــد ، وفي

اسرع من لمح الطرف ازال الحجارة عن المصبّع ، ورفعه ، ثم هبط بحمله وأعاد الباب الحديدي الى مكانه .

وألفى نفسه في دهليز ممتـــد يكتنفه الظلام .. وعاده نفس الشعور الذي احس به يوم تسلق جدار الدير ، ولكنه كان يحمل كوزيت في تلك الليلة ، اما اليوم فهو يشيل ماريوس !

وضربت الطبول في بعض النواحي ، فسمع لها اصوات عظيمة ، خيل لجان فالجان انها اصوات الحشر الكبير غير أنه اطرح جفوته للحياة وما فيها ساعـة ألمت بمخيلته كوزيت ، فانطلق بحمله يشق طريقه في المجهول .. في المجهول الذي امضى اربعين حولاً وهو لا يفتأ يتيه فيه ويضرب في دياجيره .

١٢

مجاري باريس ! مجمع المياه والاوساخ والقاذورات . ما يستعمله الانسان ، وما يرفضه ، وما يرفضّ من جسده .. مياه الغسيل ؛ مياه المراحيض ؛ مياه المستنقعات .. عصير المعد بعد امتصاص العناصر ، الحثالة ، الاتربة .. كل هذا مصيره الى المجاري ، والمجاري مصيرها البحر الخضم .

في هذا الدفق العظيم وجد جان فالجان نفسه بحمله .

واستحال النهار المشرق ظلاماً دامساً ، وانقلب الضجيج بعـــد دقائق الى سكون مطبق شامل .

ولم يبد الجريح حراكاً ، فهل هو ميت ام في صدره رمق ؟ وأين يسير به الى اللحد ام الى البيت ؟

ومشى متمهلاً فقطع خمسين خطوة اعترضه في آخرهــا ممر آخر ، فاين يتجه ؟ الى اليمين ام الى اليسار ؟ هل ينحرف الى اليمين في الممر المنحدر فيؤدي به ذلك الى النهر ، ام يصعد في الاتجاه الآخر ؟ واين يفضي بـــه ؟ فإن اتخذ له السبيل الثاني سيؤدي به ذلك الى مخرج تكثر فيه السابلة ، وسيرى الناس رجلاً ملطخاً بالاوساخ يحمل رجلاً مضرجاً بالدماء ! ومع ذلك آثر انتهاج السبيل الآخر المفضي الى المجهول ، ولينفذ المقدر ، فما له يعبأ بالحياة ؟ والحيـــاة شر كريه المذاق !

وهكذا اختـــار الصعود فانحرف الى اليمين ، وتكاثفت الظلمات فلم يعـــد

يرى موقع خطوه وخيل اليه انه يضرب في « عروق » الليل ، فهذه الدروب الارضية عروق باريس التي تصرف امواهها واقذارها وامطارها .

وشعر فجأة بأنه أخـــذ في الانحدار ، وارتفعت المياه قليلاً قليلاً ، ولهث الرجل – أهو متجه الى النهر ؟ هل يرجع القهقرة؟ ولكن رجوعه اكثر خطراً، رجوعه معناه البدء من حيث بدأ، معنـــاه الخوار والاضمحلال ، ثم النهاية له وللشاب الذي معـــه .. ووطن النفس على امر ، آلى ان يستمر فخير لهما ان يأتيهما الموت بغتة، من ان يقاسيا آلامه ويكابد عذابه في هذه السراديب المبطنة بالاسمنت والحديد !

وحسناً فعل ، فبتقدمه الى الامام كان يدنو من المجرى الوسط . وحرص على التزام هذا المجرى، وكان كلما واجهته مجار اخرى يتحسس مداخلها وكأنه يقيسها ، ثم يمشي مطمئناً الى اختياره الصائب . لقد قر رأيـــه ان لا ينتقل الى مجرى آخر ، وكأن حسّه أنبأه بأنه المجرى الذي يسلك هو مسلك النجاة !

وتصرمت نصف ساعة وكأنها نصف سنة .

وتناهى اليه صوت ضعيف ، فوقف مبغوتاً ، والتفت وراءه ، فرأى نجماً ادخل الروع الى قلبه – نجماً رهيباً يخفق مـــن مسافة بعيدة . فحدد النظر في النجم المتلألىء .

وكان النجم هذا يلمع على كتف رجل البوليس ، هنـــا في وسط المجاري . ووراء النجم رأى أشباحاً تتحرك ، فشعر بخيبـــة الآمال .. وتنفس الصعداء ، وكاد يتهافت من شدة الاعياء ، ولكنه جان فالجان !

★

أوْهِ على ذلك اليوم الذي لقي فيه كثيرون وجه الله . وقد مضوا وكل منهم يظن أنه مضى على الحقّ .

في ذلك اليوم المشهود – يوم السادس من حزيران – رأت السلطات المهيمنة أن تحرس المجاري خيفة أن يلجأ اليها الثائرون .

وشاء الحظ أن يخدم جان فالجان حينما قرر اتباع مجرى واحد ، فلو عرج متخذاً مجرى آخر لالتقى وجهاً لوجه بهذه الفصيلة التي رأى نجمة ضابطها تلمع من بعيد .

في عصر ذلك اليوم كان رجل يرمق رجلاً آخر من بعيـــد ، ويحرص على اقتفاء اثره ، وتتبع خطواته ، وكان ذلك على الضفة الشرقية لنهر السين .

كان المطارد حازماً في مطاردته ، وكان الطريـــد داهية ماكراً ، يتهرب ويروغ ويزوغ ، ويحاول الافلات .

وأومأ المطارد إلى صاحب عجلة ان يتبعه عن كثب ، فأطاع الحوذي وسار في اعقاب ممثل الامن ، دون ان يلحظ الرجل الاول ذلك – اي الرجل الرث الشاب الذي يسعى هارباً .

وتابع الرجل تقدمه في حذاء الضفة ، فهل اخطأ في ذلك ؟ ولِمَ لا ينحرف الى الجهة التي تكثر فيها الاشجار ؟

ووصل الطريد الى مكان يتراكم فيه التراب والوحل والاقذار ، فلفّ حولها بخفة . وضاعف الرجل الآخر من سرعته ، ولكنه لم ير فريسته .. فاستولى عليه العجب ، وجعل يذرع المكان ويفكر .. وقطب حاجبيــه ، وضرب على جبينه براحته – لقد تذكر انه مر بمكان فيه مصبّ من الحديد ، فكر راجعاً الى ذلك المنفذ الارضي ، وجعـل يتأمل فيه . ثم حاول ان يحركه من مكانه ، فلم يتحرك .. ولكنه ايقن مما رآه من ذرات الصداء المتناثرة ان الباب الارضي هذا قد فتح منذ فينة ، وان الذي فتحه حرص على اغلاقه بمفتاح يحمله معه .

وهز رأسه راضياً ، وما عتم ان كمن وراء اكوام الطين، وعلق ينتظر بصبر واصرار . ووقفت العجلة ايضاً في مكان يبعد عنه قليلاً ، وترجل الحوذي فقدم العلف للجوادين .

تداعت قوة جان فالجان وتخدرت عضلاته وخيل اليه انه يجوس في مصيدة ابليس الكبرى ، واستعار من الضعف قوة ، وامضى ساعة أخرى يضرب في المجرى الآسن .

وعنّت له فكرة استرداد بعض ما فقده من قوته ، فوضع ماريوس برفق على على الارض الرطبة ، واقبل عليه يضمد رأسه بمزق من قميصه .. ثم نظر اليه نظرة تفيض كراهية – اجل نظر اليه كأنه ينظر الى عدو – وما عتم أن تحسس ملابسه فوجد في جيبه قطعة من خبز، ووجد دفتراً صغيراً قرأ في صفحته الاولى بعد ان اشمل ثقاباً – « اسمي ماريوس بونتمرسي .. انقلوا جثتي الى منزل جدي ، السيد جيلينورمان الكائن في جادة « فيل دي كالفير رقم ٦ » .

ولم يلبث ان اعاد الدفتر الى جيب ماريوس ، والتهم قطعة الخبز ، وحمل الفتى ثانية ومشى .

ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة .. وجنحت الشمس للمغيب .. وامسى الظلام هائلاً مروعاً يجمد القلب ويحطم الاعصاب ، وأيقن جان فالجان من ندرة الفرجات التي كان النور يتسرب منها الى المجرى ، انه بات في مكان يبعد عن قلب المدينة – في اطرافها – ومع ذلك فلم يدع للتردد مجالاً الى قلبه وفكره ، بل مشى وما زال يمشي بتؤدة وثبات وعزم !

وعلا الماء ومشى جان فالجان على الطين بعد ان كان يطأ الحجارة وزادت بذلك صعوبة تقدمه ، فهو يشعر ان قدمه تلصق بالأرض في كل خطوة يخطوها الى الأمام . وغاصت قدماه ، وارتفع منسوب المياه فتوقف .. أيغرق ؟ أيموت هذه الميتة الشنيعة مع ماريوس ؟ في المجرى ؟ في مياه البلاليع ؟ في سرداب نتن قذر ؟

ورأى الموت مرأى العين ، ونظر في اعماله ، ونظر في آثاره التي سيخلفها وراء ظهره ، وبذل جهد الجبابرة ليرفع قدمه .. ورفعها وحطها ، فاذا بها ترسو على شيء صلب ، فعلاه ، وكأنه علا القبر بعد ان هيل عليه التراب !

لقد توخى الله له الخير بعد ان اشرف على العدم ، وصرف عنه وعن ماريوس – الذي يقتله – عاديات البوار التي تجسمت في هذا البحر الخضم من الماء والطين !

وجثا على ركبتيه ورفع رأسه ، وسحت دموعه ، وصلى الى مالك الحياة والموت .

استراح جان فالجان قليلاً ، وعاود المشي ، ولكنه كان مشي متهافت منهار .. فقد اجتمع عليه من البلاء ما كاد يهلكه ، فلما نجا ، فقد قوته .. ولكنه مشى .. مشى بتؤدة ، يجرر ساقيه ، ويكاد يئن من وصبه .

وداخل نفسه القنوط ، فهرول مسرعاً لا يبالي ما يصيبه ويصيب ماريوس ، فهو قانع بما اعدّ له ، راض لنفسه ما يبرمه الغيب ، فليشركه ماريوس إذن في مصيره . واصطدم بحائط ، فتعثر وكاد يسقط ، الا انه تحامـــل وتجلد وفتح عينيه ، فاذا بالنور يملؤهما – نور السطح وليس نور الجوف .. نور الشمس التي شارفت المغيب .

ورأى جان فالجان المخرج ! أجل رآه !

وشعر ساعتئذ بما تشعر به الروح المخطئة التي تخلصت بأعجوبة مـــن لظى الجحيم .. وتلاشى عناؤه ، وخف حمله ، وأسرع الى مبعث النور ، بل هرول ، بل عدا عدواً ..

ووصل ، ونظر ، ومديده ، ولكنه لم يجـــد الى النجاة سبيلاً ، فالمصبّع الحديدي مغلق باحكام ، ولعله مرتج بالمفتاح !

وأنّ أنيناً موجعاً – أكتب عليه ان يسعى اشد السعي ، ليهبط بعد لأي على نار لا ليرتفع الى جنة ؟ !

وانهار على الارض ، وطأطأ رأسه ، وناجاها ، وبثها ذات نفسه ، وشكا اليها همه – من ، من هي ؟

كوزيت ! لقد فكر فيها بعد ان ايقن ان ليس له عن الموت مندوحة !

وألقيت على كامله يد ، وهمس صوت : « اتقاسمني الاسلاب ؟ » .

وليس من شيء اقرب الى الحلم من اليأس . وظن جان فالجان انه يحلم فهو لم يسمع ما ينمّ عن اقتراب شخص منه ، فهل هذا ممكن ؟ ورفع عينيه ، ورأى

رجلاً على مقربة منه .

وكان الرجل يرتدي قميصاً ، وكان حافي القدمين ، يحمل حذاءه بيده ، ولعله خلع نعله حتى لا يشعر جان فالجان بوجوده . وعرفه جان فالجان ، فهو لم يكن غير تيناردي !

ولم يفقد جان فالجان حضور بديهته ، بل حدج اللص بنظرة متفرسة مترقبة وأشاح وجهه حتى لا يتعرف عليه .

ثم قال : « وماذا تريد ؟ » .

قال : « أنت ولا غرو تتوق الى الخروج من هذا السجن » .

قال : « نعم ، بودي ان انجو » .

قال : « فاعطني نصف ما غنمته » .

« ماذا تعني ؟ » .

« انت قتلت لتسرق ، وانـا املك المفتاح ، فلهم ، هات النصف أفتح الك هذا المصبّع » .

وتحسس جان فالجان جيوبه فلم يجد فيها سوى ثلاثين فرنكاً . فأخذهـا تيناردي وجعل يفتش في جيوب ماريوس . ومزق ابان ذلك قطعة من ملابس الفتى وضعها خلسة في جيبه وقال : « اصبت ، سأكتفي بهذا القدر ، ولن ارجع الك النصف .. هاك المفتاح فخذه واذهب في سلام ، فقد دفعت الجعل ! » .

وقهقه ضاحكاً ، ثم اعان جان فالجان على الصعود ، وعاد فاغلق المصبّع وغاب في طيات النفق .

وشعر جان فالجان انه استعان بالشيطان على النجاة ، او بالرذيلة على بلوغ الفضيلة ، او باللص على ضمان الأمن !

وما لبث ان اضجع ماريوس على ضفة النهر المقفرة .

واطلت عليه النجوم مرحبة ، وابتسمت السماء هاشة .. ونسي جان فالجان عناءه لمحة ، نسي شقاءه وهلة ، نسي همه فينة.

ولكن .. سرعان ما عادته الذكرى، فاغتم وشعر بالكرب، بيد أنه تخلص بهزة كتف من افكاره المدلهمة ، وجعل ينضح وجه ماريوس بماء النهر .

وبينا هو يفعل هذا خيل اليه ان شخصاً يتتبع حركته وان الشخص هــذا يقف على مقربة منه ، فوق رأسه .

وانثنى ، ونظر .. ورأى جافير !

لا مراء في ان القارىء قد حدس من يكون الطريد الذي اختفى بغتة ومن يكون المطارد . فما كاد جافير ينجو مــن الموت بفضل جان فالجان وصفحه الكريم وانسانيته العديمة النظير ، حتى مثل بين يدي رئيسه ، فأفضى اليه بمـا جرى ، ورجع الى وظيفته دون ان يستريح او يطلب الاعفاء من العمل في ذلك اليـــوم .

وهكذا نجا جان فالجان من المجرى المميت ليقع في يد رجل اشد عليـه وطأة من ذلك النفق الملعون !

وصاح جافير : « ومن تك يا هذا ! » .

« جان فالجان » .

فانحنى جافير، وألقى يديه على كتفي جان فالجان ، وحدق في عينيه ملياً، وكان كالوحش الذي يحاول اعتقال الاسد !

وتكلم جان فالجان بتؤدة فقال : « ايها المفتش جافير ، لقد اعتبرت نفسي اسيرك في هذا الصباح ، ولذا اطلعتك على مكان اقامتي .. فخذني ولكن قبل ان تأخذني ذرني أؤدي واجباً » .

ولم يبد على رجل الأمن ما يدل على انه سمع كلمات عدوه بـل انـه رماه بنظرة تقدح شرراً وقال : » ماذا تفعل هنا ؟ ومن هذا الرجل ؟

قال : « وما طلبت منك التسامح إلا من اجله ، فأعني بنقله الى منزله ثم خذني !

وتقلصت عضلات جافير ، وكشر عن انيابه – ولعله توغر غيظاً ساعة اتهمه جان فالجان بيقظة الضمير ، فما الطلب الذي ساقه اليه راجياً مستعطفاً إلا من قبيل هذا الاتهام الشنيع ..

وانحنى جافير على الجريح وحدق في اساريره وجسّ نبضه ، ثم قال : « انه الشاب الذي كانوا ينادونه ماريوس ، انه اشترك في القتال ، هو الآن ميت.. ».

فقال جان فالجان : « كلا ، بل انه حي وسيعيش » .

ولاحت على سيماء المفتش نظرة تفكير ، فهو في مقام مجاذبة بين الواجب واتباع صيحة الضمير .. وما عتم أن انتصب والتفت وصاح منادياً الحوذي ، فلما استجاب الرجل وجاء بعربته ، تعاون الندان على حمل ماريوس ووضعه داخل العربة ، ثم استقلاها معاً ، وأمر جافير الحوذي أن يسير الى الامام .

ووصلت العربة أخيراً إلى بيت الشيخ جيلينورمان ، جدّ ماريوس ، فترجل الجميع وحملوا الجريح . وصاح جافير على البواب بلهجة حكومي ارتاض على الأمر والنهي وقال : « أهذا بيت المدعو جيلينورمان ! ان كان هذا بيته ، فقد جئته بابنه .. » .

فعارضه البواب مدهوشاً : « ابنه .. » .

«وهو ميت؟ أو بالأحرى قتيل التمرد والعصيان!.. فنبه أباه، اسرع ! ».

وجمد البواب في مكانه وكأنه سمّر الى الأرض .

وستأنف جافير محتدماً : « ما بالك شدهت ؟ اذهب ! » .

ومضى البواب داخلاً ، فتكلم مع الخدم . وهرعت « نيكوليت » في طلب الطبيب .

وربت جافير على ذراع جان فالجان ، ففهم هذا مراده ، واتجه الى العجلة

مطأطىء الرأس ، وجلس الى جانبه جافير .

وسارت العجلة . وقال جان فالجان : « المفتش جافير ، لي سؤال آخر » .

وقال : ما هو ؟ أقصد ولا تفرط ! » .

قال : « ذرني أذهب الى المنزل ، ثم افعل بي ما تشاء » .

ولاذ جافير بالصمت ، وغطست ذقنه في ياقتـه ، ثم استدار الى الحوذي وقال : « اذهب الى جادة (الرجل المسلح) رقم ٨ »

لم يتبادل الرجلان كلمة واحدة طيلة الساعة التي قضياها في العربة . ووقفت العربة في مدخل الشارع الضيق ، فترجلا منها ومشيا بعد ان نقد جافير الحوذي أجرته .

ودلفا الى الشارع ووصلا البيت رقم (٧) . وقرع جان فالجان الباب . ولما فتح ، نظر الى جافير متسائلاً ، فهز هذا رأسه وقال : « اذهب ! » .

وأضاف بلهجة غامضة : « سأنتظرك هنا ! » .

ورقي جان فالجان السلالم وهو يفكر بهذا الرجـل العجيب ، وحانت منه التفاتة عندما دنا من نافذة المدرج ، فلم ير جافير فداخله شداه شديد ، واجال طرفه في الشارع ، فشاهد الرجـل الصارم يبتعد برفق وتؤدة ! لقد ذهب جافير !! .

●

ذهب جافير بخطى بطيئة . مشى لأول مرة في حياته برأس مطرق ونظر مغضّ . وعرج على الشوارع المقفرة ، فعبر فيها وهو منصرف عنهـا بفكره وهواجسه .. ووصل نهر السين ، وسار في حزاء الماء على الضفة ، وأنصت للخرير الأبدي ، ورمق التيار الهائل الذي لا يقوى عليه أمهر السابحين .. ووقف ، وحلق في عالم الخيال — لقد تمخض القدر عن شيء لم يكن في

في الحسبان – وتألم جافير كثيراً ، وترمض على نار وقدها الجحيم .

وشاهد نفر من الناس في بهيم تلك الليلة شبحاً اسود طويلاً يثب الى النهر ، فتبتلعه الظلمات ويضطم عليه الغمر ، ويدرج في كفن النسيان !

*

أضجعوا ماريوس على الاريكة ، فلم يتحرك ولم يتنفس . ووصل الطبيب ، وطفقت الخالة العانس تروح وتجيء بانفعال وتأثر ، وهلع تتقبض منه أساريرها ، وتتكمش غضون وجهها . وكانت تتمتم بلسان متلعثم :

« رباه ! أيمكن هذا ؟ » .

وكانت تراجع نفسها عندما يقل جزعها ، فتقول : « هذا ما حسبت حسابه دوماً ، هذا ما تنبأت به بكرة وأصيلا ! » .

وامر الطبيب ان يحمل ماريوس الى سرير ، وان يوضع رأسه على مستوى واحد مع جسده ، وان يكشف صدره تسهيلاً لتنفسه . كما انـــه صرح بأن الجريح لم يصب بما يشكل خطراً على حياته ، وانمـــا كلاله مصدره النزف المستمر .

ثم انه غسل وجهه بماء ساخن ، ووقف يتأمل فيه مقطباً مفكراً .

وفتح الباب والطبيب في مكانه ، وولج الحجرة الجـــد جيلينورمان ودنا بخطوات وانية من الفراش .

وكان القتال الدائر الرحى قد اقلق راحـــة الشيخ وقضّ مضجعه واقشعر بدنه ساعة وقع نظره على حفيده ، ولمعت حدقتا عينيه المصفرتين بفعل السنين ، واستحال وجهه الى هيكل ميت ، وسقطت يداه الى جانبيه ، وجمجم بصوت متهدج : « ماريوس » .

وقال الخادم : « سيدي .. لقد جاءوا به من المعمعة بهذه الحالة » .

وصاح الشيخ الطاعن : « فهو ميت ! اواه ! يا للشقي .. » .

واستدار الى الطبيب واستتلى : « أهو ميت ؟ أهو فاقد الحياة ؟ قل ! » .

ولزم الطبيب الصمت .

وانحنى فوقه بوجهه المصفر وهمس بصوت اشبه بحشرجة الموت : « يا عديم الرأفة ! ايها المتكبر الذي ادمى قلبي ! انه سواء لدي ، فانا مائت لا محالة .. فمت اذن واذهب الى المجهول ايها الشاب الغرير الذي ركلت الدنيا ومسرتها ومتعها بقدمك .. انني ابن مئة .. ابن مئة الف .. ويخلق بي ان اثوي في لحد اجدادي .. وها أنتذا تقضي علي ! » .

في تلك اللحظة اختلجت اهداب ماريوس ، وفتح عينيه قليلاً وصوب نظره الى جده .

« ماريوس .. » هتف الشيخ .

« ماريوس ! ايهـا الحبيب ! بني .. بني .. انت حي ، انت تفتح عينيك ، فشكراً ، شكراً .. » .

وسقط مغميّ عليه .

مضت ايام وماريوس يتأرجح بين الحياة والموت ، لا هو بالحي ، ولا هـو بالميت ! وقضى اسابيع لازمته إبانها الحمى مصحوبة بالهذيان .

وكان يردد اسم كوزيت في غيبوبته ، ولا ينبس باسم سواها من الناس .

وكان الطبيب يرعاه رعاية خاصة ، ويبذل جهد الجبابرة ليدرأ عنه خطر التقيح المفضي الى التسمم.. وكان لتقلبات الطقس ضلع في انتكاس حالته مراراً، وكان لانفعاله وهو في بحران الموت اثر سيء ايضاً على حالته .

ولم تكن حالة الجد خيراً من حالة الحفيد ، فهو الآخر حيّ ميت ، وهو الآخر يتأرجح مع الردى في كفّتي ميزان .. ورغم تقدمه في السن فإنه ما كان ليهدأ ساعة عن الحركة ، والذهاب والاياب ، ومراقبة اعمال الخدم، والاشراف

على تضميد الجراح والحرص على اعطاء العلاج .

وفي كل يوم كان شيخ مهندم اشيب الرأس يأتي بكمية من الضمادات الجديدة، فيناولها للبواب ويستفسر منه عن حالة المريض .

واخيراً وبعد مرور نيف واربعة شهور أعلن الطبيب زوال الخطر ودخل ماريوس في دور النقاهة ، ولكنهم أرغموه على ملازمة الفراش ، ثم اجازوا له الاضطجاع في كرسي رجراج مائل إلى الوراء .

ومع انه تبرم بما اضطر اليه من القعود والجمود ، إلا ان تلكؤ جراحه عن الاندمال ، افاده وأنقذه ، وفوّت على دار القضاء محاكمته والاقتصاص منه .

ففي فرنسا لا يدوم الغضب أكثر من ستة شهور ، حتى غضب الحكومة ينفثىء بسرعة ، ويحل محله التسامح والتغاضي والصفح .

فقد ثارت ضجة كبيرة عقب إخماد القلاقل وكبح جماح الشغب ، لما حاولت الحكومة ان تصنعه من تعقب الجرحى ، وإرغام الاطباء على البوح بالاسماء .. وما لبث الملك نفسه ان اعفى الطبيب من هذا الواجب الكريه ، وأصبح تسامحه قانوناً يتيح العفو عن جميع جرحى الحوادث ، ومن اصيب منهم ، ومن قدرت له النجاة !

وعفت الحكومة تحت ضغط الشعب بعد ذلك عن هؤلاء الذين لم يقبض عليهم ، وجنبتهم عذاب السجون ، ومن جملتهم ماريوس .

في البدء – اي في الأيام الاولى التي استفحل الخطر فيها على ماريوس – رأى الشيخ كل شيء في الدنيا يتنكر له ، فلما طمأنه الطبيب بعد مدة استخفه الطرب ، وغبط نفسه على ما هو فيه من النعمة والسعادة ولم يقدر ان يكتم ما خالجه ، فجعل يمزح ويفكه ويغدق على الخدم ويكرم اهل الجوار ، ويغني .. أجل يغني !

وقد رآه الخادم « باسك » في احدى الامسيات يجثو في حجرته ويصلي

بخشوع ، مع انه كان من المستهزئين بالمؤمنين ، بل كان من الكافرين الذين يؤمنون بالدهر فحسب !

كان يسأل الطبيب خمسين سؤالاً في كل يوم ، وكانت اسئلته لا تختلف ...

كان يهتف : « لتحي الجمهورية ! » .

كان ينادي ماريوس : « سيدي البارون ! » .

أما ماريوس فقد استبد به فكر واحد ، ومثل له في الصحوة والمنام شخص واحد وطيف واحد .. كان يفكر بكوزيت ، ويرى كوزيت ، ويناجيها ويناغيها ويضرع الى الله ان يجمعه بها .

واستحوذ عليه القنوط احياناً ، وبلا من السويداء ما التمس معه الموت .. فأين هي ؟ أين مقامها ؟ انه يثق بكرم طباعها ووفور حبها ، ولكن .. لماذا تعمد الى الجمود ؟ لماذا تؤثر الكنود ؟ لماذا تكابر ؟

فمعنى الحياة له كلمة .. وكوزيت هي هذه الكلمة .. فمتى تفككت الأحرف اختلط المعنى وتلاشى المبنى ، وأضحت حياته بلا مغزى !

وانتهى به الأمر الى الجمع بين الحياة وكوزيت ، فقرن وجود الاولى بوجود الاخرى ، ورهن كينونته بتحقيق غايته والوصول الى محبوبته .

لم يخف عنه الانقلاب المظيم الذي طرأ على اخلاق جده ومعاملته ، ولم يسلم شعوره من الميل قليلاً نحو هذا الشيخ الصبي الذي اظهر من ضروب العطف والمحبة الشيء الكثير . ولكنه لزم جموده وحذره ، ليقينه بأن العلاقة بينهما تسير في مجراها هذا الى النهاية إن هو اغفل ذكر كوزيت ، وأنه إن حدث وذكرها امام جده فسيجد وجهاً آخر ، ويظهر موقف الجد على حقيقته .

وتراءى له وجه ابيه ، وتذكر فظاظة جده ومقته لهذا الأب الشهيد فاشتعلت موجدته ، وأيقن ان لا امل يرجى من رجوع الشيخ عن رأيه .

وجعل يعامله بشيء من الفظاظة . بيد ان الجد تحمل جلافته بصبر ورحابة صدر .. وقد لاحظ ان ماريوس لم يدعه — ابي — ولم يقل — سيدي — ولكنه

لم يعدم الوسيلة التي يخاطبه بها دون الركون الى احدى هاتين الكلمتين.

ولما بلغت روحه التراقي آلى على نفسه أن يصارح جده بما يعتلجه ، فان ابى ، ان رفض كوزيت ، فعلى الدنيا السلام .. سيمزق الضمادات وينكأ الجراح ، ويستقبل الموت بسرور وانشراح .

وسنحت الفرصة .

« لقد بان لك منذ امد ميلي الى الزواج ، ولكنك لما علمت كنه ميلي في ذلك الحين بهتّني في وجهي ، وقلت لي ما قلت وحلت بيني وبين مرامي . وقد حجزني طيلة مدة مرضي عن اظهار رغبتي تلك ما شغلت به أنت وأنا من المداواة والعلاج والتضافر على دمل الجراح .. أما وقد برئت وشفيت ، فاني اعود الى طلبي ، فأجشمك من امري ما تعلم .. » .

قال ماريوس هذا الكلام وهو مقطب عابس متأهب لنكء جرحه وإماتة نفسه .

فقهقه الشيخ ضاحكاً وأجاب : « رأيك رأيي ، وأملك املي ، وستحظى بها زوجة وحليلة ! » .

فطغى الفرح على ماريوس حتى اهتز جسده وارتعدت فريصته ، واختلجت عضلات وجهه .

واستتلى جيلينورمان : « وإني لا ارى رأيك رأياً بل واجباً مفروضاً ، فهي حسناء بارعة الجمال ، هي زهرة ما انشق عن مثلها كمّ ، ولا تفتأ تلمّ بنا كل يوم سائلة مستفسرة في إهاب رجل عجوز ، وهي تقطن منزلاً يقع في جادة « الرجل المسلّح » رقم (٧) ..

وانفجر الشيخ باكياً واخذ رأس ماريوس بين يديه ، وضغط عليه ، وادناه من صدره ..

واختلطت عبرات الاثنين – وهذا من دلائل بلوغ السعادة ذروتها في قلبي انسانين .

« ابي .. » هتف ماريوس .

« آه ! فانت تحبني إذن ! » قال الشيخ .

وخنقت العبرات الجد والحفيد ، فصمتا مكرهين .

قال الشيخ اخيراً : « لقد تكسر الثلج ، ودعوتني – أبي » .

وأفلت ماريوس من قبضة جـده وقال : « والآن يا أبي ، أفي وسعي الاجتماع اليها ؟ » .

« وكيف لا ؟ ستراها غداً » .

« ابي .. » .

« ماذا ؟ » .

« لماذا لا أراها اليوم ؟ » .

« اليوم .. اليوم .. لقـد دعوتني بهذا الكنية الحبيبة مرات ثلاث ، وبذا فانت تستحق المزيد من العناية والاكرام .

واجتمع الحبيبان بعد ان ظننا ان الاجتماع ، بات محظوراً .

ولن نحاول وصف ما دار في الاجتماع ، فهناك اشياء لن نحاول تصويرها ، ومنها الشمس .

فقد اجتمعت الاسرة – بما فيها الخادم باسك والخادمـة نيكوليت – في حجرة ماريوس عند مجيء كوزيت .

ولما ظهرت على العتبة بدت كأنما كانت في وسط غمامة .

جمدت يد الشيخ فوق انفه ساعة رآهـا ، وقال : « يا للروعة ! » ثم نفّ بصوت شديد .

وكانت كوزيت ثملة ، جذلة مأخوذة – كانت في السماء ! وتمارت قدمها ، واصفر لونها ، واحمر لونها ! كانت تود ان ترمي بنفسها عليه ! كانت حييّة لا

تجسر على إظهار ما يعتلج في صدرها من هوى .. ونحن قساة القلوب ، نلازم المكان ساعة يتوق العشاق الى الانفراد ! فالعشاق . في غنى عن الناس ، عن كل الناس .

ودخل وراء كوزيت رجل اشيب يبتسم ، ولكن ابتسامته كانت تنضح بالحزن . وهذا هو فوشلفين ، هذا هو جان فالجان .

كان انيقاً مهندماً ، وقد همس البواب في أذن زوجته قائلاً : « بودي لو تذكرت المكان الذي اجتمعت فيه الى هذا الرجل ! » .

وكان قد رآه ساعة جاء بماريوس ، ولكنه رآه معفر الوجه ملطخ الثياب ، مقطع الحذاء ، تفوح منه رائحة المجاري الكريهة ، ويتجمد الدم الجاف على وجهه بابشع صورة.

ووقف فوشلفين لدى الباب وكان يحمل تحت إبطه رزمة ملفوفة بورق مقوى تعلوه العفونة .

وهمست العانس في أذن الخادمة نيكوليت : « وهل يحمل هذا الرجل الكتب دائماً تحت إبطه ؟ » .

وكانت العانس لا تحب الكتب .

أجاب أبوها الشيخ – وقد سمع مقالتها : « انه رجل علم ، فهل هذا ما يكرّه به الناس ؟ » .

ثم انثنى الى فوشلفين وصاح بصوت جهير : « سيدي (ترانشلفين) ! » ولم يتعمد الخطأ !

وأعاد الكرة : « سيدي (ترانشلفين) .. انني اطلب يد الآنسة لحفيدي وهذا شرف عظيم ، ان اوليتنيه اكون لك من الشاكرين الذاكرين ! » .

فأحنى (تراشلفين) هامته .

وعلا صوت الشيخ المزهو يقول : « ما اجمل كوزيت ! ما اروعها ! وسوف

تمتلكها لنفسك ايها الجشع ، ستستأثر بها دون الغير .. واني لو كنت اصغر قليلاً مما انا لأذقتك وبال جورك وبغيك ! » .

ثم جلس قريباً منها وضم ايديها بين يديه وقال : « انت رائعة يا فتاتي .. انت صغيرة جداً ، وسيدة جليلة جداً .. »

وقطع عليه ثرثرته صوت يقول بهدوء : « ان للآنسة مبلغاً من المال يقدر بستمئة الف فرنك » .

فانتصب جيلينورمان كمن لدغته افعى ، وقال : « ستمئة الف فرنك » .

فقال جان فالجان : « قد ينقص المبلغ قليلاً » .

وجمجمت الخالة العانس : « أفي حلم نحن ؟ » .

وفتح جان فالجان الرزمة واخرج منها المال ، وأقبل عليه يحصيه ، وكان الرقم ينقص اربعة عشر الف فرنك عن الآلاف الستمئة !

أما ماريوس وكوزيت فما فطنا الى ما كان يجري من أعاجيب ، بل انشغلا ببعضهما البعض ، وفكرا ببعضهما البعض، وكانت عيونهما الجميلة تنطق بما يعتمل في جوارحهما النبيلة !

لقد خلقا ليكمل احدهما الآخر ، فنعما الخلق ونعمّا الخليقة !

وتلاقى المحبان في كل يوم ، وفي كل يوم تجدد حبهما ، وتضاعف ونمـــا .. واجتمع ماريوس وفوشلفين ، ولكنهما قلما تبادلا الحديث .

إلا ان الفتى النابه كان يرى في الكهل سراً خفياً ، كان يرى ثغره يستعصي عليه استشفاف أعماقها ، وكان يثق ان في هذه الثغرة المبهمة تكمن أمور خطيرة لا قبل له على إماطة اللثام عنها .. لقد غاب عن باله اشياء كثيرة ، ولم يفطن الى الحقيقة – تلك الحقيقة الرائعة – وجود فوشلفين مع الثائرين ، واشتراكه في القتال ، وما تبع ذلك من مفاجآت جرت له وهو جريح مقبل على الموت .

لطالما دفن ماريوس رأسه بين يديه وحلق في عالم الذكريات، فرأى مابوف

يسقط مضرجاً بدمائه ، وسمع غافروش يغني وشعر بساعد إيبونين يمسك به ، وشاهد سقوط الزهرات اليانعة التي اقتطفتها يد المنون في ذلك اليوم المشؤوم .. وساءل نفسه كلما أضنّه التفكير : — هل حقاً اصبح هؤلاء الاصدقاء من القوم الغابرين؟ هل مات انجولرا وكورفيراك وجولي وجان بروفي وكومبيفي وبوسي وغرانتي؟ ام هل اختفوا وراء سجف سوداء لا ينفذ منها البصر ؟ انهم وايم الحق اختفوا وراء هذه السجف الصفيقة — هذه السجف التي تنسدل مراراً في حياة الانسان ! ويكون الله إبان هذه الحياة ، قد نقل الحياة من طور الى طور ، ومن مرحلة الى مرحلة ..

والعجيب في الأمر ان الرجلين لم يذكرا قط ذلك النهار ، ولا ما حدث إبانه ... إلا ان ماريوس حاول مرة ان يستدرج فوشلفين الى الكلام ، فما كان من جان فالجان الا ان هز رأسه وأجاب : « لا اعلم ما ترمي اليه ، فانا لم اذهب قط الى تلك الحانة ، ولا الى ذلك المتراس » .

وناجى ماريوس نفسه قائلاً : « لا مشاحة في اني كنت احلم ، كنت احلم ، كنت اتخبط في بحران من رؤى الموت ، وما الرجل الذي رأيت الا شبحاً يشبه فوشلفين ، او رجلاً آخر مماثلاً له ! » .

ومع ما كان ماريوس عليه من سعادة وارفة الظلال ، الا انه لم ينقطع لحظة عن التفكير في امور خاصة تتعلق به وبأبيه . فهو حيران مضطرب يحاول معرفة مقام تيناردي حتى يكافئه على ما يبذله في سبيل ابيه ، وهو يسعى جاهداً للتعرف على الشخص الذي انقذه من الموت المحقق منذ اشهر قليلة خلت . فقد طبع هذا الفتى على الوفاء ، وخاف إن توانى ان يفوت عليه الوقت ، فيخلف ظن ابيه فيه ، ويبخس حق من انجده !

وليس يعنيه من امر تيناردي ما جبل عليه الرجل من الخبث والدناءة ، ليس يعنيه من امره الا ان له يداً بيضاء عليه ، لما اداه لأبيه .. وليكن قاتلاً ،

ليكن لصاً ، ليكن شر الخلق ، انما واجبه هو القيام بواجبه ! وتحقيق رغبة أبيه التي اعرب عنها في وصيته !

والمهمّ في الأمر في امر تيناردي وعصبته – ان زوجته قضت في السجن نحبها ، وأن تيناردي وابنته (أزيلما) اختفيا في الظلال .

أما اللصوص الآخرون فقد فرّ من فرّ منهم ، وحكم على ثلاثة بالسجن عشر سنين . كما حكم غيابياً على تيناردي بالاعدام ، وهذا ما حدا به الى التستر والاختفاء حتى لا تناله يد القضاء .

وتسنى لماريوس معرفة الطريقة التي انقذه بها الرجل المجهول ، الا انه لم يتوصل الى معرفة شخصه واسمه !

وهكذا التبس عليه الأمر ، وكاد هذا الغموض يقوض صروح سعادته . فمن الرجل ؟ من هذا الرجل الذي جازف بحياته لينقذ حياته ؟ من هذا الرجل الذي مشى ساعات في بطن الأرض من اجله هو – من اجل ماريوس ؟

وتساءل عن الضابط الذي ألقى القبض على المنقذ ساعة بروزه من المصبّع الحديدي؛ واستفسر من دار الأمن عن شخصية الضابط، إلا انه لم يفز بطائل، فالضابط كذلك يتكتم ولا يجهر باسمه !

وتساءل عن السبب في كل هذا التكتم .. فلماذا يختفي محسن أتى عملاً جليلاً ؟ أوليس اختفاؤه أروع من عمله الذي أداه ؟ وهل مات ؟ أما من إنسانٍ يقدر على وصف ملامحه وأمائره وشكله وسمته ؟ لقد اجاب الحوذي على هذه الأسئلة بقوله : « كان الليل حالكاً ، فلم أتبين تقاطيع وجهه ! » .

وباسك الخادم اعمته المصيبة فلم ينظر ، ونيكوليت طاشت سهامها فلم تلتفت !.أما فقد أجاب : « كان له منظر مروع .. كان كالشيطان الأسود ! ».

واحتفظ ماريوس بملابسه الدامية ، ولم يغيب عنه ان قطعة سترته قد مزقت عمداً ..

وتكلم في احدى الليالي عن هذه المغامرة الفريدة بحضور كوزيت وفوشلفين، وأسهب في وصف الجهود التي بذلها دون جدوى للعثور على الرجل ..

وأثاره برود فوشلفين وشروده، فعقب محتداً: « اجل، إنه رجل عديم المثال، إنه عنوان الجرأة والاباء .. أوتعلم ما فعل يا سيدي؟ لقد رمى بنفسه في اتون المعركة من اجلي .. وحملني في المجاري الخانقة الرطبة .. ومشى مسافة تزيد عن أربعة اميال .. مشى والموت في ركابه، وأنا فوق كاهله، ثم اختفى .. تلاشى ! ».

وتنهد ماريوس من كبد مفطور واستتلى: « أواه، لو كانت ثروة كوزيت لي ... ».

وعارضه جان فالجان فقال: « انها لك، لك .. ».

وأتم ماريوس وكأنه لم يسمع تعقيب فوشلفين: « لو كانت لي، لما تأخرت عن التنازل عنها كافة من اجل الإهتداء الى هذا الرجل المجهول ! ».

وصمت جان فالجان، ولم يحر جواباً !

١٣

كانت ليلة السادس عشر من شباط، ليلة مباركة. ففيها عقد قران ماريوس وكوزيت ، وفيها همى مزن السماء – والمطر المنصب بركة من لدن الله .

كان اليوم رائعاً .

لم يكن يوماً صافياً كما تمناه الجد ، لا ، ولم يكن يوماً مزهراً يحوّم فيه كيوبيد فوق الرؤوس ، ولكنه كان ممطراً .. وكان ممتعاً .. وكان خالداً ..

وتختلف طقوس الزواج اليوم عنها في ذلك الاوان ، ففرنسا في ذلك الزمان لم تكن قد نقلت عن انكلترا تقليد خطف العروس عقب ابرام العقد ، ولا طريقة الاختفاء خجلاً وحياء من السعادة الدانية .

كان الزواج عيداً للجميع ، كان فرحاً مشتركاً ، وسعادة عميمة. كان يحتفل به في البيت . وقد تمّ زفاف ماريوس تبعاً لذلك في بيت جده الشيخ جيلينورمان .

وفي الليلة السابقة للزواج، قدم جان فالجان المال الى كوزيت بصفة رسمية، كما قدم لها الخادمة .

وقدمت كوزيت له غرفة جميلة في بيت جيلينورمان وألحت عليه أن يحتلها ويعيش فيها .

ووقع لجان فالجان قبل ذلك ببضعة أيام حادث جرحت بسببه يده اليمنى ،

وقد ابى أن يضمدها له أحد ، بل ضمدها بنفسه وربطها بلفافـــة الى عنقه ، وأصبح لزاماً على جيلينورمان بسبب ذلك أن يحلّ محله في الاجراءات الرسمية المرعية وان يوقع نيابة عنه .

وحدث في تلك الامسية ، وبينما العربات التي تجرها جياد مطهمة ، تنساب براكبيها الى الكنيسة وفي مقدمتها عربة العروس ، التي استقلها بالاضافـة الى كوزيت ، جيلينورمان وابنته وفوشلفين ان توقفت في زحمة الطريق ، فنظر رجل وفتاة الى العربات ، وحدق الرجل في كوزيت ، ثم حدج فوشلفين ، وما أبطأ ان قال لرفيقته : « أزيلما انظري ، أما ترين الرجل الكهل ؟ » .

قالت : « نعم ، اني أراه » .

قال : « وأحسبني اعرفه » .

قالت : « وما الغرابة في ذلك ؟ » .

قال : « بل كل الغرابة، وبودي لو تعقبته ، ولكني أخاف العيون ، واخشى الرقباء ، ويمكنك انت ان تنوبي عني بهذا العمل لكي تتحققي من هوية الرجل وتطلعي على مقره ومكان سكناه واقامته ! » .

قالت : « ولكن ، مالنا وله ؟ » .

قال : « افعلي ذلك ، يجب ان اعرفه واتعرف على مسكنه ، فهلمي ، لا تتباطئي .

●

ماذا حدث لجان فالجان بعد زواج المحبين ؟

لقد اغتنم فرصة انشغال القوم عنه ، وابتعاد كوزيت بعد أن ألمت بـــه وحدثته ، فمضى الى بيته وهو منكّس الرأس ، واجف القلب خائف من الايام

المقبلة ، فزع من البرودة القاتلة التي بدأت تسربل حياته !

وبينما هو يهمّ بمغادرة الحجرة التي حمل اليها ماريوس منذ ثمانية شهور ، اذ التقى وجهاً لوجه مع الخادم « باسك » ، فأبدى له عذره ، وأطلعه على ما يؤلم يده ، ثم مضى قدماً لا يلوي على احـــد ، ماراً بالطريق الذي سلكه موكب الزفاف ، متفكراً فيما آلت اليه حياته ، متمنياً الموت مـــن صميم فؤاده — لقد اناخ على قلبه الهمّ .. واي همّ أثقل على الانسان المنطوي ، مـــن الوحدة والانعزال ، وزوال الرجاء ، وتصرم حبال الآمال ؟ !

ولما انتهى الى بيته في جادة الرجـل المسلح أشعل شمعته وصعد الى الطباق الأعلى ، فأجال الطرف في الغرف ، فلم يجد احداً ، ولم يسمع صوتاً .. كان وحيداً ، كان البيت خالياً — خالياً حتى من الخادمة !

وأحدثت خطواته ضجة لم ينتبه اليها من قبل ... وتجاوب صداها حتى خيل إليه ان الدواليب المفتحة كانت تتلقف هذا الصوت الاجوف لتعيده إليه ساخرة منه متهكمة عليه !

ودلف الى حجرة كوزيت - وكانت الملاءات مرفوعة عن الفراش ، والوسادة مجردة من بيتها ، وملقاة على الأغطية — وكان هذا دليلاً على ان أحداً لن يشغل السرير .. وبحث بنظره فلم يجد شيئاً مما كانت تستعمله كوزيت ، فقد حملت معها جميع أمتعتها .. وكان سرير الخادمة مجرداً ايضاً من كل شيء .. امـــا سريره هو ، فقد أعد لنوم شخص !

وتلفت جان فالجان الى الجدران ، ثم علق يتنقل من غرفة الى غرفة حائراً ملهوفاً . وألفى نفسه بعد قليل يلج غرفتـه كليلاً متداعياً . فيضع الشمعة على الخوان ، وينزع الرباط الذي وصل به يده بعنقه ، ويستعمل يده اليمنى وكأنه لا يشعر بأي ألم .

ودنا من فراشه ، ووقعت عيناه على « الحرز » الوحيد الذي بقي له — على

الصندوق الذي حفظ فيه ملابس كوزيت منذ عشر اعوام – فأخذه بين يديه وفتحه. وجعل يتناول من داخله تلك القطع القديمةالتي ارتدتها كوزيت الصغيرة يوم أتى بها من « مونتفرمي » .. فأمسك اولاً بالثوب الصغير ، ثم بالقميص، ثم بالحذاء الخشبي الضخم ، ثم بالمريلة ذات الجيبين ، ثم بالجوارب الصوفية .. وكل هذه الملابس حملها إليها الى مونتمفرمي ، حملها اليها وهو لا يعرفها – فالقدر ولا غرو قد لعب لعبته !

ووضع هذه الاشياء على فراشه ، وارتمى في خضم مزبـــد من الفكر .. لم يحلق في افق الفكر .. بل ارتمى .. وتذكر :

كان ذلك في الشتاء ، في ايام مقرورة مطيرة .. وكانت كوزيت تصطك اسنانها من البرد في ليلة عيد الميلاد .. كانت عارية إلا من طمر مهلهل.. وكانت قدماها الصغيرتان يتكمش جلدهما من الألم .. فجاء ، جاء هو ، جان فالجان ، وحملها من ذلك الجحيم ، وعوضها عن متربتها غنىً وعن بؤسها هناء .. ولا جرم ان امها فانتين قرت عينها في لحدها .. لا جرم انها باركته ساعة وجدت ابنتها تستعيض عن الحرمان باليسر ، وعن المذلة بالاباء .. ولا جرم ايضاً انها سرت لما رأت ابنتها تتشح بالسواد حداداً عليها ..

ومشى جان فالجان مع الطفلة الهزيلة المعروفة .

وتذكر في تلك الساعة كيف مشى معها، تذكر البرد القارص والريح اللاذعة، والاشجار العارية من الاوراق، والغابة المقفرة من الطيور ، والسماء القاتمة ! ومع ذلك، تذكر سعادته في ذلك اليوم، فقد شعر في ذلك اليوم ان كل شيء جميل– البرد ، والسكون والغيم المتلبد !

ورنا بطرفه المخضلّ الى الملابس والحذاء ، ومرر يده عليها جميعاً برفق . ورأى خيالها الصغير وهي تضم دميتها الى صدرها ، وتعبث بالقطعة الذهبية – التي وضعها في حذائها – فرحة جذلة . رأى خيالها الحبيب يتقدم جنباً لجنب معه .. وزفر زفرة حرّى .. لم يكن لها في الدنيا إلاه في ذلك الزمان .

وسقط رأسه الأشيب المعذب على الفراش .

يا للقلب الكبير ! لقد حطمتك الايام ، وها انت تنهار ...

يا للوجه الذي ينضح بالطيبة ، لقد دفنت نفسك الليلة في ملابس كوزيت ..

يا للرجل المهيض الجناح ! كل مارّ في تلك الليلة سمع ولا غرو شهقة ثم حشرجة ، ثم عويلاً !

وطفقت روحه تئن .. طفقت تئن وتقول : « انا حزينة .. حزينة ... » .

ولأي السلطتين يحني هامته ، لملاك الضمير ام لشيطان الانانية ؟

وأحيى الليل أرقاً مسهداً ، يتقلب على قتاد مـــن التردد ، فيغمض عينيه كرة حتى لا يرى النقمة الفاغرة الفم ، ويحملق بها كرة فيبصر ما تجمد له الدماء وتشلّ الحركة ، ويقف القلب !

وتبلج الفجر ، والرجل المعذب يتضور وحيداً بينا كانت افكاره تحلق في إهاب نسر ، او تتلوى في جلد أفعوان .

وتسربت خيوط الشمس مـــن النافذة ، ساكبة نورها الذهبي على ملابس كوزيت ، فارتعش الشقي المعذب كعصفور بلله القطر ، وانقض عليها فاغرق وجهه فيها ، ولثمها ، وقبلها .

ورآه (أحد) !

فمن ؟ ما دام جان فالجان منفرداً لوحده ، من ؟

إنه (أحد) لا تخفى عليه خافية .

قد يكون روح انسان مضى ولم يمض .

وقد يكون روح أكثر من روح إنسان !

★

خلوة العروسين .. عذبة .. مشتهاة ! يحترمهـا الكلّ ولا يعكر النشوة المنبثقة منها مخلوق ..

وضجة الوافدين للتهنئة لا تأتي الا بعد أيام .

ولكن حدث في ظهيرة السابع عشر من شباط ، ان سمع (باسك) طرقاً خفيفاً على الباب ، فلما فتحه رأى أمامه فوشلفين ، فانحنى له وحياه ودعاه الى الانتظار في قاعة الجلوس .

وكان الاضطراب يسود المكان ، فالمقاعـــد منتثرة في الزوايا والاركان ، والآنية منتشرة دون ترتيب ولا نظام ، وكأن الغرفة كانت مضمار سباق او ساحة قتال .

وقال جان فالجان متسائلاً : « هل استيقظ سيدك من نومه ؟ » .

فأجابه الخادم : « وكيف هي يدك اليوم يا سيدي ؟ » .

« انها في تحسن ، فهل نهض سيدك ؟ » .

« من ؟ الكبير ام الجديد ؟ » .

« السيد بونتمرسي » .

فشد باسك من قامته وأجاب : « البارون بونتمرسي ؟ سأذهب لأرى ، وسأخبره بان السيد فوشلفين في انتظاره » .

وسمع صوتاً لدى الباب فالتفت ، وأبصر ماريوس يتقدم نحـــوه بقامته المنتصبة ، وأساريره المنطلقة ، ووجهه الطافح بشراً .. ولكنه لم يكن قـد تذوق طعم النوم في تلك الليلة اسوة بجان فالجان !

وهتف ساعة دنا منه : « أبي ! لِم لِم يخبرني باسك المعتوه بقدمك ؟ إن كوزيت لا تزال نائمة وهي تنعم برقاد ناعم هنيء ! » .

فهز جان فالجان رأسه واجاب : « لدي ما اقوله لك ، انني مجرم قديم .. انني محكوم قضى في السجن سنين ! » .

وحل جان فالجان رباط ذراعيه ، ثم نزع الضمادة عن سبابته ، ومد يده ناحية الشاب واستتلى : « انظر أترى جرحاً في يدي ؟ لقد زعمت البارحة بأن سبابتي تأذت ، ولكني لم أتوخ الصدق ، بل عمدت الى الافك تجنباً للتزوير .. وتهرباً من تلويث اوراق كوزيت المقدسة ! » .

فقال ماريوس بصوت متهدج : « وما معنى هذا كله ؟ » .

« معناه اني كنت سجيناً قضى في غيابة السجون ردحاً من حياته طويلا ! » .

فقال ماريوس بلهجة العتب والزجر : « ولكن ، ما حداك الى الاعتراف بما درج في طيات الزمان ؟ ماذا اضطرك اليه ؟ كان في وسعك كتمان الامر ، فأنت في مأمن من كل ما يتهددك ، فلماذا ، لماذا ؟ » .

فقال جان فالجان بصوت مهموس ، كأنه يخاطب نفسه لا ماريوس : « ما هو الحافز ؟ ما الحافز لهذا المجرم على الاعتراف ؟ ما الحافز له على المجاهرة بسره؟ ان الداعي لذلك هو الشرف.. ان آلامي هي حبل في قلبي يشد وثاقي..

« كنت استطيع أن أخفي وجهي الحقيقي ، كنت استطيع وسط سعادتكم ان أبقى لغزاً ، كنت استطيع إبان نهاركم أن أبقى ظلاماً ، كنت استطيع دون ان أصبح — حذار — أن أمثل السجن في بيتكم .. كنت استطيع ذلك .

« لكن أفي الصمت راحة ؟ أفي الصمت هدوء واستقرار ؟ أهو أمر هين ان تصمت؟ كلا، فهناك صمت كذوب، هناك صمت متخرص وصمت مدلّس.. وكذبي ، وتزويري ، وبهتاني ، وصغاري ومحالي ، وجبني ، وخيانتي ، وجريمتي ، سأكون مضطراً الى تجرع عصيرها قطرة إثر قطرة ، وإلى لفظها قطرة ، قطرة ، ثم الى تجرعها مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، ومئة ، وألف .. ولم ذلك ؟ لأكون سعيداً ، أنا ! وهل يحق لي ان أكون سعيداً ؟ أنا ! من لفظته البشرية ! من لفظته الحياة ! » .

وانصت ماريوس .. فمثل هذه الحلقات المتصلة من الافكار والآلام لا يقوى احد على قطعها .. وخفض جان فالجان من صوته ثانية ، ولكن صوته عندما تكلم ثانية لم يكن عميقاً سحيقاً ، بل مفعماً بالحزن والتشاؤم :

« انت تسألني لِمَ اتكلم ؟ مع ان احداً لم يعتر او يشتك .. انت تسألني لِمَ اقول ما ينطوي عليه الخفاء ؟ مع اني لم اصب بمكروه يحلّ عقدة لساني.. فاعلم ان نفسي هي التي تعتري وتشتكي وتلحّ عليّ .. انظر ، أوترى يدي كيف تتقبض على ياقتي ؟ هكذا تتقبض يد ضميري على ناصيتي وارادتي .. وانني اعلم يقيناً اني بعملي هذا انحدرت الى الجحيم .. ولكن سقياً لهذا الجحيم الذي يشعر فيه المرء بقرب الله ومحبته .. ولكم يساوي السلام ؟ لكم يسوى هذا السلام الذي يخلفه القيام بالواجب وراحة البال ونقاء الضمير !

« انني رجل شريف ، أرتفع واسمو ان حططت من شأني أمامك ، وقلبت ماضيّ بما يستحق .. لقد وقع لي هذا مرة ، مع ان ما حدث في تلك المرة لا يوازى بما يحدث اليوم ..

« أجل إنني رجل شريف ، ولن أكون كذلك لو اخفيت عنك الحقيقة ، وابقيت على احترامك وتبجيلك ، انني عبد السجن الذي يطيع ضميره .. ولا يخفى عني ان هذا من قبيل الخرق او الافن ، ولكن ، ماذا كنت تريدني ان أفعل ؟ » .

واستتلى بعد صمت طويل : « والآن ، وقد احطت بحقيقتي وسبرت خبري فهل تظن ان من الخير ان ابتعد ، فلا أرى كوزيت ؟ » .

قال : « هذا ما أراه » .

« فلن اجتمع اليها ثانية ! » .

ومضى متعثراً الى الباب .

ووضع يده على المقبض ، واهتز الباب ، وانفتح قليلاً ، ولكنه تريث ، ثم عاد فاغلقه واستدار نحو ماريوس .

كان وجهه في تلك اللحظة يتألق بقوة قهارة غالبة .. وكانت عيناه تمضان بشدة، وان كان الحزن يندلع منهما كاللهب.. وكان صوته هادئاً متزناً حين قال :

« على اني ارغب في رؤيتها ، فهذا من شأنه ان يصبرني على الحياة .. ولو لم تكن هذه الأمنية مطمح بصري لما نفضت اليك خبري ، فقد حفزني الشرف الى الافضاء بسري حتى أكون مرتاح الضمير إن انا رأيتها » .

وتردد ماريوس ، وتململ في مكانه ، وما عتم ان قال :

« لك ذلك فجيء كل ليلة ، وستكون كوزيت في انتظارك » .

قال : « انت نبيل كريم المحتد يا سيدي » .

فحنى ماريوس هامته لجان فالجان .

وسددت السعادة خطوات اليأس نحو الباب.. وانفصل هذان الرجلان وافترقا.

١٤

هذا الكدر الذي اعقب الصفاء .. هـــذا الصفاء الذي تكأدت طريقه العقبات ...

فنفور ماريوس من هذا الرجل، من هذا الفوشلفين الذي امسى جان فالجان، انقلب الى رعب .

ولا يسعنا الا الاعتراف بأن هذا الرعب شابه نوع من الشفقة وكذلك شيء من الدهش غير قليل .

فهذا اللص ، هذا المختفي من وجه العدالة تمكن من إرغام ماريوس على الايمان به والشعور نحوه بالاحترام .. فقد كان في وسعه الاستئثار لنفسه بالثروة الكبيرة ، فماذا فعل ؟ نزل عنها جميعاً من تلقاء نفسه .

وفوق ذلك فانه حسر اللثام عن شخصيته المزدوجة طائعاً مختاراً ودون ان يرغمه احد على ذلك .. فالقناع للمحكوم أكثر مـــن مجرد قناع ، إنه ملاذ ، ولكنه تخلى عن هذا الملاذ .. والاسم الزائف لمثله هو الأمان والضمان ، وقـد تخلى عن هذا الامان والضمان ..

وعمل ماريوس الحساب ، فوضع ما للرجل في كفة ، ووضع مـــا عليه في كفة ثانية ، ولكنه لم يصل الى نتيجة ، وكانت افكاره عاصفة متخبطة هوجاء الريح !

وفي محاولته لتكوين رأي واضح عن هذا الرجل ، لاحق اعماله من اولها ، ولكنه رجع من حيث بدأ ، فأضاع جان فالجان ثم عثر عليه ثانية في ضبابة !

واستعاد ماريوس الى الذاكرة الحادثة التي شاهد فصولها في وكر اللصوص.. وتساءل متعجباً عن السبب الذي حدا بجان فالجان الى الاختفاء والهرب ، بدلاً من الاعلان عن نفسه ، وملاحقة اللصوص ، ومؤازرة العدالة. وأجاب ماريوس على هذا السؤال ، أجاب نفسه بنفسه ، فقال : « لأن هذا الرجل مجرم هارب لأنه محكوم فر من يد العدالة ! » .

ومثل لذهنه سؤال ثان : « ماذا أتى بجان فالجان الى المتراس ؟ فقد تذكر ماريوس بعد هذه الشهور الثمانية ان جان فالجان كان هناك ، وتذكر ايضاً انه تجنب القتال ، فلم يشترك في المعركة .. فلماذا جاء ما دام لم يجيء ليقاتل ؟ وبرز له من سديم الذاكرة شبح جافير .. ورأى بعين مخيلته هذا الرجل يقود جافير الى الخارج وسمع صوت الرصاصة القاتلة .. وايقن وهو يرى كل ذلك ويسمع كل ذلك ، ان التباغض كان سائداً بين الجاسوس والمجرم .

أما السؤال الثالث الذي دار في خلده ، فأنه لم يجد له جواباً . تساءل الشاب عن تلك الصدفة التي جمعت بين المجرم والطفلة .. تساءل عن تلك الصدفة العجيبة التي وضعت كوزيت في كنف ابن المعصية ، طريد القانون ؟ وتساءل عن اللعبة التي لعبها القدر – فهل يرضي الله اندماج ملاك بشيطان ؟ ! وهل تلتجيء المضايق الوعرة الجريئة والطهران يترافقا ويتجاورا ؟ !

في هذا الغموض يكمن سرّ جان فالجان ، وفيه ايضاً ينطوي سرّ الله الذي لم يشأ ان يظهره او يعلنه .

فهل نعلم وسائل الله وطرقه وأساليبه؟ هل نعلم كيف يرعانا الله ويسيرنا؟ لقد رعى جان فالجان الطفلة كوزيت، وهذب نفسها وصنع الى حدّ ما روحها.. فماذا بعد ذلك ؟ لا شك ان القائم بالعمل كان مخيفاً ، ولا شك ايضاً ان العمل

كان رائعاً .. ولله في خلقه شؤن ، لقد كون كوزيت تكويناً سماوياً ، وفوض جان فالجان بتشييد الصرح ، لقد شاء سبحانه ان يجمع بين النقيضين ، فهل يحق لنا التساؤل ؟ وهل لأول مرة تعين الدمنة النبع على تكوين وردة ؟

والله منجز وعده وناصر جنده ، وجنده يختاره كيف شاء ، ويعدّه ، ويعِدّه كيف شاء .

سأل ماريوس ، وفكر ، وأجاب ، وقنع من السؤال والجواب. وحاول في كل خاطرة ان يدين جان فالجان ، ولكنه مـــا تجرأ على ذلك .. ومهما يكن الأمر ، فهو يعبد كوزيت ، وهو الآن يحوزها لنفسه ، وما له وللشرح والتفسير ، ان كوزيت هي النور ، فهل يحتاج النور الى شرح وتفسير ؟ إنه حاز الكل ، فماذا يبتغي ؟ حسبه ما ظفر به ، حسبه غنيمته ، وحياة جان فالجان الخاصّة لا تؤخر او تقدّم ، حياة جان فالجان هي لجان فالجان فحسب ..

●

قصد جان فالجان في مساء اليوم التالي منزل ماريوس ، فاستقبله باسك ، وكأنه كان على ميعاد معه ، او كأن الأوامر صدرت اليه بانتظاره .. فلما رآه حياه باحترام وابتدره قائلا : « طلب إليّ سيدي البارون أن أسألك إن كنت تبغي الصعود او البقاء في الطباق الارضي هنا ؟ » .

فقال جان فالجان : « أبقى في الطباق الارضي ، هنا .. » .

فانحنى باسك وأجاب : « سأنفذ الى السيدة لاطلاعها على مقدمك » .

وبدت كوزيت فجأة ، فوثب جان فالجان واقفاً وكأنه يرى طيفاً .

وهتفت كوزيت : « أبي ، كنت أعلم دوماً انك شاذ بطبعك ، ولكنني لم

أكُ اعلم ان شذوذك يصل الى هذه الدرجة ، لقد اخبرني ماريوس انك ترغب في مقابلتي هنا ، فما هذا ؟ ».

وقدمت له وجنتها .

فلم يتحرك جان فالجان .

واستتلت : « أترى ؟ انت تشعر بخطئك ، إلا اني اصفح لك ، فقد قال السيد المسيح ، من ضربك على خدك الايمن ، فقدم له الايسر ، وها هوذا خدي الآخر ! » .

ولم يتحرك جان فالجان ، وكأن قدميه قد سمرتا الى الأرض .

وازدادت كوزيت دهشة وعجباً وقالت والدعابة راجحة في صوتها : « هذا أمر جدّ خطير ، ويجب أن اقممه .. فماذا فعلت حتى تجبهني بالجفاء ؟ لقد أذنبت في حقي ، وككفارة ، عليك ان تتناول طعام الغداء معنا » .

« ولكني طعمت منذ ساعة » .

« ولكني طعمت منذ ساعة » .

فشدهت كوزيت ، وقالت متسائلة بعد ان كانت آمرة : « ولكن لماذا لا ؟ ولماذا تختار أردأ الغرف لتراني فيها ؟ » .

« أتجهلين يا سيدتي عاداتي وطباعي وشذوذي ؟ » .

« سيدتي ! .. أتقول هذه الكلمة مرة ثانية ؟ رباه ! ما معنى هذا ؟ » .

فحدد فيها طرفه اليائس وقال : « لانك شئت ان تكوني كذلك » .

« بيد أني لا أشاء أن أكون كذلك بالنسبة اليك يا أبي » .

وانتظرت كوزيت هنيهة ، ثم تناولت يديه فرفعتها الى وجهها ، وقالت : « أواه ، كن طيباً معي ! » .

واستتلت : « ولكي تكون طيباً ، عليك أن تحيا معنا في نفس المنزل وان تأكل معنا ، وأن تبقى لي أباً عطوفاً » .

فحرر جان فالجان يديه من قبضتها وأجاب : « لم تعودي في حاجة الى أب ، فلك زوج » .

فصاحت منفعلة : « لست في حاجة الى اب ! ما هذا الهراء؟ ما هذا اللغو؟ أنت تكربني ، أنت لا تريد ان أكون سعيدة .. » .

فابيض لون جان فالجان ، ثم تمتم هامساً ، وكأنه يخاطب نفسه :

« سعادتها كانت مطمح أبصاري .. اللهم إني أتوجه اليك بدعائي ، فادرأ عني النفاق والغيّ ، وأمتني ميتة صالحة . اي كوزيت ، انت سعيدة « وأنا كالحارث لا أنفك اعمل » .

فقالت فرحة : « آه ، لقد دعوتني كوزيت ! » .

ووثبت عليه كطفلة ، وتعلقت بعنقه .

وغاب عن جان فالجان ما عزم عليه ، فضمها الى صدره بيأس ، وخيل اليه ساعتئذ انه سيعود بها ثانية الى منزله .

وقالت كوزيت : « شكراً لك يا ابي » .

فأجاب وهو يطرق : « انني ذاهب يا سيدتي ، فثمة من ينتظرني » .

ولما وصل الباب التفت نحوها واستتلى : « لقد دعوتك كوزيت بيد انني أعدك ان لا يتكرر هذا ! » .

ومضى جان فالجان في سبيله مخلفاً كوزيت في الغرفة الرطبة المظلمة ، وقد التبس عليها الأمر ، وأذهلها موقفه ، وحيرها عناده وتشبثه ، وشعرت بشيء كثير من الامتعاض !

وجاء في اليوم التالي في نفس الساعة .

فلم تطرح عليه كوزيت أي سؤال ، ولم تبد دهشتها من شيء ، والأرجح انها خاضت مع ماريوس في بحر من الحديث ، تمكن المحبوب خلاله من إقناعها بكل امر دون ان يضطر الى الشرح والتفسير .. ففضول المحبين لا يتجاوز نطاق حبهم الى مدىً بعيد .

ومضت الأيام وجان فالجان لا يتخلف يوماً عن الحضور .. كان بوده ان يفعل ذلك ، ولكنـــه كان يقضي اليوم بطوله قلقاً مبلبلاً ، حتى اذا أزفت الساعة ألفى نفسه يعجل بالذهاب ، وكأنه عاشق يهرع الى موعد مـــع عشيقته .

أما ماريوس فقد رتب اموره بحيث يكون متغيباً عن البيت في الساعة التي يقدم فيها جان فالجان ..

وارتاض جميع أهل المنزل على هـــذا النمط ، حتى ان جيلينورمان نفسه قال ذات يوم : « انه نسيج وحده في طباعه وخلاله ، لا شك في ذلك ! » .

وانقضت اسابيع وجان فالجان دائب على المجيء . في البدء كان لا يطيل المكث ، ولكنه جعل شيئاً فشيئاً يلازم الغرفة الارضية ساعات طويلة .

وقالت كوزيت في أحد هذه الاجتماعات : « أبي .. أبي .. » .

فأضاءت وجه المتغضن ومضة فرح وغبطة ، وأجاب : « قولي جان ! » .

فقالت : « أصبت ، لقد نسيت .. » وانفجرت ضاحكة .. ثم قالت :

« جان .. السيد جان .. » .

وتعاقبت الأيام ، وجان فالجـان مواظب على المجيء . يعتزم التخلف في الصباح ، فاذا وافى المساء انهارت مقاومته .

إلا ان الحدود وضعت بين الشخصين ، حدود اللياقة والتأدب والتحفظ التي يفرضها العُرف ، وتستدعيها آداب الحديث .

وكان كلما رغب في اطالة الزيارة عمد الى التحدث عن ماريوس ، واخلاقه وصفاته وحسناته ، فكانت كوزيت تجاريه وتزيد ، وكانت تقبـــل عليه كل الاقبال ، فتنسى الوقت وتنسى حلول الليل .

ونكأ الجرح العميق في سويدائـــه دخول باسك عليهما مرة واقباله على كوزيت يحييها تحية الخادم المطيع ويقول : « سيدتي ، بعث بي البارون لأنبئك أن ميعاد الطعام قد أزف » .

ومرة ثانية ، جاء فلم يجد في الموقد نيراناً . فلما وافته كوزيت وتساءلت معجبة عن السبب ، زعم أنه أشار على باسك ان لا يشعل الموقد !

ومرة ثالثة ، ألفى الكرسيين موضوعين قريباً من الباب ، فزفر من الكرب . ثم أخبرته كوزيت في نفس الليلة أن ماريوس رجاهـــا ان تقتصر نفقاتها على الآلاف الثلاثة التي يمنحها له جده !

ومرة رابعة ، ولج المكان فلم يجد المقعدين ، وكانت هذه صدمة هائلة لجان فالجان ، أنّ من وطأتها ، وشعر بأنه مات ، ولو انه لا يزال حياً !

وادعى لما جاءت كوزيت انه امر باسك ان يأخذهما لأنه لن يبقى طويلاً !

وهزت كوزيت كتفها وقالت : « عجيب امرك ، بالأمس اشرت عليه ألا يشعل النيران ، واليوم ان يأخذ المقعدين .. عجيب امرك ! » .

وجمجم المعذب يقول : « الوداع .. » .

لم يقل : الوداع يا كوزيت ، ولم يستطع ان يقول : الوداع يا سيدتي ..

وذهب وفي قلبه آلام ، وفي ناظريه نهاية ، وفي رأسه عاصفة ..

ولم يأت في اليوم التالي .

ولم ينقدح الشك في قلب كوزيت ، ولم تفكر به إلا لماماً فقد كانت هانئة تغمرها السعادة .

ولكنها تساءلت في الليلة التالية عـــن السبب في تأخره ، ولم تبطىء ان ارسلت الخادم نيكوليت لتطمئن عليه .

ورجعت نيكوليت الى سيدتها بجواب جان فالجان – إنه في صحة جيدة ، ولكنه تخلف لطارىء من العمل ، وسيأتي في أقرب فرصة !

آه ، آه ! لقد برح به الشوق اليها ، ولكنه سلّم بحقها عليه ، وجهلت هي حقه عليها .

وانطوى جان فالجان على نفسه ، ينتظر الخلاص من القيود ، والانعتاق من العبودية ، والانطلاق الى المجهول ، فمن يعلم قد يشفق عليه الرفيق الاعلى ، فيرحمه ويجزيه ، بعد أن بلاه بالمحن والرزايـــا ، وبصنوف مصنفة من الآلام والأسقام !

لم يغوه ابليس ، فكان من عباد الله المخلصين .. لم يقل إلا الحق ، ولم يصنع إلا الحق ، وكان ضميره رائده .

وطفق اهل الناحية التي يقطن فيهـــا جان فالجان يرون في شهور الربيع الأخيرة لسنة ١٨٣٣ رجلا هرماً يخرج من بيته وهو متلفع بالسواد ، ويدّب بخطى ثقيلة وانية من شارع الى شارع . ورآه المتسكعون يدنو من بيت الشيخ جيلينورمان ، في ساعة المساء ، فلا يكاد يصل المنعطف الذي يفضي الى الدار حتى يتألق وجهه بنور سماوي عجيب ..

وأنشأ بعد قليل ينقص من الشأو الذي يقطعه ، وشرع كل يوم يقلل من المسافة التي يذرعها ، حتى اكتفى بالنظر الى ذلك المنزل من المنعطف ، ثم مـــن

مكان قبله ، ثم من نقطة تبعد عنه .. وكان يقف جامداً شاخصاً ، ويحرك رأسه من اليمين الى اليسار .. ولعله في حركته تلك كان يمنع نفسه من التقدم ، ويحول بينها وبين الاقتراب من البيت .. ولا يلبث ان يقفل راجعاً .

ولكنه ما فتىء يغادر بيته في نفس الساعة – ساعة ما قبل الغروب، فيمشي في نفس الطريق ، ويعود أدراجه ..

وهن عظم جان فالجان ، فصار ضعيفاً بعد قوة ، متراخياً بعد نشاط ، حتى اصبح يسمع وجبة قلبه كلما تحرك ، ورجة صدره كلما مشى ..

ولحظت زوجة البواب ما حاق به من هزال وكلال ، فأشفقت عليـــه ، وقدمت له من طعامها . ولكنه ما مسّ بيده شيئاً منه .

وخلت المرأة الطيبة الى زوجها في ليلة ، وافضت له بمخاوفها وهواجسها فقال الرجل : « إن كان غنياً ، فليأت بطبيب ، وان كان فقيراً فليمت ، فـــلا جناح عليه .. لأن الموتى لا يحصون ! » .

« وان وجدنا له الطبيب ؟ » .

« لن يغير هذا من حالته ، فسيموت ! » .

« موته ضربة قاصمة لي، فهو من انبل الخلق، انه كريم النفس عفيف أبي» .

ورأت طبيباً يسلك الجادة ، فدعته الى الدخول ورجته ان يفحص البائس المتهافت .

فلم يخيّب الطبيب رجاءها، بل دخل على جان فالجان غرفته وتحدث اليه ، وسأله واستوضحه .

ولما غادر الغرفة قال للمرأة : « ان رجلك مشفٍ يا سيدتي » .

فقالت مستفهمة : « وما خطبه ؟ ما علته ؟ » .

قال : « لا شيء ، وكل شيء .. انه كما يلوح لي فقد شخصاً عزيزاً عليه » .

« وماذا قال لك ؟ » .

« قال بأنه صحيح معافى ! » .

« وهل تعرج علينا ثانية ؟ » .

« أجل ، ولو كان في مجيئي ما لا ينفع او يضرّ ! » .

●

عجز جان فالجان في ليلة عن تحريك يده ، فجس نبضه ، فلم يجد في رسغه اي نبض ! وكان نفسه متقطعاً ضعيفاً ، وكانت حالته تنذر بالخطر ...

وبتأثير رغبة جياشة استطاع ان يتحامل على نفسه ، وأن يرتدي ملابسه — ملابسه القديمة .. ملابس العامل — ثم اخرج مقتنياتـــه التي يضن بها على كل انسان ، فبسط ملابس كوزيت على الفراش ، واضاء شمعداني الاسقف ، مع ان الشمس كانت ساطعة كأنها قرص تندلع من نيران الأزل — ولا غرابة في ذلك فما اكثر ما نرى الشموع مضاءة حول ميت مسجّى !

وكان يجر ساقيه جراً ، وكان يلهث عقب كل حركة يأتيها — وكان كأنه الحياة المستهلكة التي نفدت قطرة إثر قطرة .

وتهالك على كرسي مواجه للمرآة ، فتذكر اليوم الذي رأى فيـــه كلمات كوزيت منعكسة الحروف في هـــذه المرآة .. فأن انين الثكلى ، ونظر الى وجهه ، فلم يتعرف على وجهه .. كان في الثمانين .. وكان قبل زواج كوزيت لا

يبدو اكثر من ابن الخمسين .. وعلى ذلك فهذه السنة كانت له بمثابة ثلاثين من السنين ! وتلك التجاعيد التي غضنت جبهته الآن مـا هي إلا علامة من علائم الموت ..

ايتها الروح المعذبة لقد حفر اليأس فيك اخاديده ودروبه !

وولـّى النهار ، فزحف الى المائـدة وجلس منبهر النفس . واخـذه دوار شديد ، فزاغت عيناه ، وفقد صوابه ..

ولما استعاد رشده حاول ان يرفع آنية الماء ليشرب ، فما استطاع ، ومسح العرق المتفصد من جبينه ، فاهتزت يده .. واستعار من الضعف قوة ، فأخذ القلم وكتب :

« كوزيت ، اني اباركك . كان زوجك على حق عندمـــا افهمني صراحة باني يجب ان اذهب . ومع ذلك فهناك في تفهمه للواقع خطأ جسيم .. إنه من خير الرجال ، فكوني محبة له بعد موتي . وانت يا سيد بونتمرسي ، إرع دائماً حبيبتي كوزيت ، وأضف عليها من حبك ما تصفو معه حياتها وحياتك .. ان المال حلال ، وكل درهم كسبته بعرق جبيني .. عملت عملاً جباراً ، وجاهدت وناضلت ، واخترعت ما انجح صناعتي .. » .

وتوقفت يده ، وسقط القلم من بين انامله ، وزفر زفرة حرّى خرجت من اعماقه . ورفع يديه الى رأسه وغاص في لجة الفكر :

« أواه ! » قالت نفسه الخائرة « صرخات حزينة لا يسمعهـــا الا الله »
ــ « لقد انتهى كل شيء. ان نفسي حزينة حزن الموت، اني حزين حتى الموت ، لأني لن اراهـا .. انها بسمة عبرت وسأغشى دياجير الظلمات دون ان اكحل عيني بمرآها !

وتناهى الى سمعه في تلك الآونة ركز خفيف وطرق على الباب طفيف .

في ذلك اليوم بالذات وبينما روح جان فالجان تتململ في صدره، حمل باسك الى مولاه الشاب كتاباً ، ما كاد ماريوس يفضه ويقرأ اسم مرسله حتى خلا الى نفسه وأكب يقرأ ما جاء في الورقة .

وهذا ما جاء فيها :

« سيدي البارون – لوشاء ربك ان يكافئني على مواهبي لما كنت أدعى اليوم الا « البارون تينارد » عضو الاكاديمية ، ولكني لست كذلك .. لدي ما أود أن اطلعك عليه – سر دفين تعنيك خلاصته .. انه عن شخص يمت اليك بصلة . وقد عولت على البوح به لك فقط ، رغبة مني في خدمتك.. انني انتظر أمر سيدي البارون – تينارد » .

وخفق قلب ماريوس ، فليمط هذا الرجل ما يعرفه ، وليهلك في لهب الحقيقة من أشعل النار ، وليسلم من هو حقيق بالسلامة . انها سنة ماريوس منذ نعومة أظفاره .. فليسمع ، وليع ، وليفهم ، وليحكم من بعد !

وقام لساعته فوضع مقداراً من المال في جيبه ، وأمر باسك ان يأتيه بالرجل .

ودلف شخص الى الغرفة .. وكانت هذه مفاجأة اخرى لماريوس ، فالرجل كان غريباً عنه .. الرجل شيخ طاعن في السن ، معروق العظم ، غائر الخدين ، يضع على عينيه نظارة خضراء ، ويتلفع بملابس سوداء من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ويحمل بيده قبعة سوداء .. ولما دنا من ماريوس انحنى باحترام ، وفي لمحة خاطفة ادرك الشاب ان ملابسه اكبر من جسده ، ولا شك أنها عطية محسن ، كما تبادر الى ذهنه .

ولا مناص من ذكر شيء عن مواخير اليهود في باريس ، فهم يهيمنون على كل زيف ونقصان ، هم يتعاطون تجارة البنات ، ويمارسون الموبقة ويعيرون

الملابس الى كل مجرم ولص يبغي التخفي في زيّ انسان محترم .. هذا شأنهم في باريس ، ولا مرية انه شأنهم ايضاً في كل حاضرة .. ولو تأمل ماريوس في الملابس لأيقن انها مـــن تلك التي يتاجرون بها ، فيغيرون السحن ، ويزيلون الماضي ، ويمسحون ظل الجريمة !

ولكنه كان في شغل شاغل عن التوافه ، كان تواقاً لمعرفة الرجل . فلما عمي عنه ، شعر بخيبة الامل ، فقد كان ينتظر ان يرى شخصاً آخر ، يعرفه جيداً ، ويتشوق الى لقياه لحاجة في نفسه ووفاء لدينه .

ولهذا بادره بخشونة : « ما بغيتك من القدوم ؟ » .

فابتسم الرجل وأجاب : « أكاد لا أصدق عيني ، فأنا لم أر البارون في الاجتماعات التي تعقد في ردهات الطبقة الراقية ، وأكاد أثق أني اجتمعت اليه مرة أو مرتين فقط » !

وأصاخ ماريوس بانتباه الى صوته ، ولكن خيبته تضاعفت ، فلهجته غير اللهجة التي يعرفها .

ولم يلبث أن قال محتدماً : « أقعد يا هذا واطرق الموضوع الذي من اجله قدمت » .

فانحنى الرجل مرة ثانية وقال : « إن في امريكا مجالاً واسعاً للعمل والكسب ، واني أود من صميم قلبي أن انهي حياتي السياسية والاجتماعية هنا ، وارحل الى تلك البلاد التي يزيد فيها الذهب عن حاجة ساكنيها وأهليها ! » .

« وماذا تريد مني ؟ » .

« ليس للطمع حدود أو سدود ياسيدي ، وكل امرىء يبحث عن صالحه ، فالمصلحة الشخصية تأتي في الذروة ، انها المهيمنة على البشرية » .

« قل ، ماذا تريد ؟ ما هدفك ؟ » .

« أود أن أذهب إلى امريكا .. نحن ثلاثة ، أنا وزوجتي وابنتي .. والسفر باهظ النفقات ، ولست أملك من دنياي إلا النزر القليل » .

« وأية علاقة لي بهذا الأمر ؟ » .

فمط الغريب عنقه ، وأجاب بابتسامة عريضة : « سأبدأ دون أن أقبض... إن في بيتك قاتلاً ولصاً .. إنه يعيش بين ظهرانيك ! » .

فاقشعر بدن ماريوس وأجاب : « في بيتي ! كلا ثم كلا .. » .

ومضى الغريب يقول : « لص وقاتل ، أجل ، لص وقاتل .. ثق يا سيدي البارون أني لن اتناول بحديثي ما جرى منذ زمان وما أصبح دارجاً في كفن النسيان ، بل سأعنى بالحديث عما جرى منذ أشهر .. لقد تسلل هذا الرجل الى عائلتك باسم زائف وسأطلعك على اسمه الحقيقي » .

« انني مصغ إليك ، فأتم » .

« اسمه جان فالجان .. » .

« أعرف ذلك » .

« وسأخبرك بلا مقابل عن ماضيه » .

« قل .. » .

« إنه مجرم هارب من السجن » .

أعرف ذلك » .

أنت لم تكن تعرف شيئاً قبل مجيئي » .

« بلى ، كنت محيطاً باسمه وماضيه » .

« فلأنبئك إذن بما يتصل بثروة البارونــة زوجتك ، ولكن مقابــل بعض المال ، مقابل جعل ضئيل .. فما قولك بعشرين ألف فرنك ؟ » .

« لا حاجة لي بقصتك ، فاني أعرفها » .

فانهار الرجل ، ورأى ان يخفض المبلغ ، فقال : « أكتفي بعشرة آلاف ، فما قولك ؟ » .

« أعيد عليك ما قلته ، فأنا أعرف القصة من أولها » .

فبرقت عينا الرجل وقال : « وعلى كل ، انني جائــــع وأريد أن أطعم .. وثق بأن السرّ خطير ، وسأتكلم لقاء عشرين فرنكاً » .

فحدجه ماريوس بنظرة صارمـــــة تقدح شرراً وقال : « إنني ملمّ بسرك الخطير ، كما ألممت باسم جان فالجان ، وكما ألممت باسمك أنت ! » .

« باسمي ؟ » .

« أجل .. » .

« ألم اكتبه لك في رقعتي ؟ انه تينارد » .

« دي ... » .

« ويْ ! » .

« تيناردي ... » .

« ومن يك هذا ؟»

« وأنت جوندري أيضاً ، وأنت غير هذا وذاك ... إنك تيناردي ، وقــد قضيت أمداً في مونتفرمي ! » .

« أنكر هذه المزاعم » .

« وانت شقي ! » .

وتناول ماريوس خمسمئة فرنك من جيبه ، فرماها في وجهه .

فالتقطها الرجل بعينين جاحظتين متلهفتين . وسرعان مـــا تمالك نفسه ، فجلس على المقعد الوثير .

لم يتعرف تيناردي على ماريوس ، ولم يتبين ملامحه ، لهذا عجب كل العجب لاطلاع الشاب الثري على جميع هذه الاسرار ، ومن جملتها اسمه هو .

وكان قد أرسل ابنته ازيلما في اثر موكب العرس ، وتسنى له بذلك معرفة جان فالجان ، كما كشف بطرقه الخاصة ، سر المجاري ، وأيقن ان القاتل الذي التقاه في تلك الظلمات لم يكن سوى جان فالجان ..

واستولى عليه الطمع : لِمَ لا يذهب الى هذا البارون الصغير فيقول له — إن زوجتك نـَغل ، إنها ابنة خنا ، إدفع تسلم من الفضيحة والتشهير .

وقال بعد ان طوفت هذه الخواطر في مخيلته : « إنني حقاً تيناردي ... » .

فقاطعه ماريوس بصوت أجش : « ارعني سمعك يا تيناردي .. لقـــد ذكرت لك اسمك ، والآن فاني أقص عليك ما جئت تتقاضى عنه مالاً ! إن جان فالجان كما قلت هـــو قاتل ولص ، اعتدى على الناس ونهب اموالهم .. وابشع ما قام به انه وشى برجل ثري يدعى (مادلين) واستأثر بأمواله ... وقد استنتجت هذا من اقوال كاتب الصيرفي (لافيت) الذي اودع مادلين لديه المال .. ثم انه قاتل ايضاً ، رأيته يقتل ضابطاً يدعى جافير ! » .

فانبرى تيناردي يقول : « اني لا افهمك يا سيدي البارون ، فأبن » .

قال : « في سنة ١٨٢٢ هدى الله رجلاً انحرف عـــن الجادة ، فانتحل اسم

مادلين ، وباشر اعماله بجد ومثابرة ، وانشأ مصنعاً فخماً ، واضحى رجلاً فاضلاً ، خيراً ، يجود بماله على الفقراء ، ويعالج المرضى ، وينشىء المدارس ، ويتبنى الايتام .. وقد رفض الوسام ، ولكنه ارغم على قبول منصب العمدة في قرية (مونتري سورمير) التي اصبحت بفضله مدينة عظيمة تمج بالأهلين والغرباء ...

« وألم بخفيته مجرم قضى السنين في السجن ، فوشى به ، واستغل الفرصة فجاء الى باريس ، وسحب اموال مادلين بعد ان زور التوقيع .. وهذا المجرم الذي اوقع بالمحسن وسرق امواله ، هو جان فالجان .. ثم انه منذ حين ، قتل المفتش جافير ، قتله برصاصة اطلقها عليه من غدارته .. وكنت حاضراً ، فرأيت ما جرى بأم عيني ! » .

فألقى عليه تيناردي نظرة رجل انتشل النصر من فم الانتحار .

وقال : « ايها البارون ، انت مخطىء في حدسك » .

« ماذا ! أوَ تنكر ذلك ؟ انها حقائق ساطعة » .

« كلا ، بل انها تخيلات خاطئة .. فجان فالجان لم يسرق مادلين ، وجان فالجان لم يصرع جافير ! » .

« انت تتكلم واثقاً من نفسك ، فهلاّ أوضحت ؟ » .

« ان جان فالجان لم يسرق مادلين ، لأن جان فالجان هو مادلين » .

« ماذا تقول ، أتهرف بما لا تعرف ؟ » .

« وجافير انتحر .. قتل نفسه من تلقاء نفسه » .

« وأين الدليل ؟ أين الدليل ؟ هاته ويحك ! » .

فأخرج تيناردي قصاصتين مطبوعتين من جيبه ناولهما لماريوس .

ونشرهما ماريوس وقرأ مـــا خط فيهما . فاذا في الاولى اعتراف صريح مؤرخ في ٢٥ تموز سنة ١٨٢٣ بأن جان فالجان هو مادلين كما جاء في « الصفحة الخامسة والستين من الجزء الأول » ، والثانية إثبات لانتحار جافير نشرتـــه جريدة في ١٥ حزيران سنة ١٨٣٢ . وجـــاء في القصاصة الأخيرة أن جافير اعترف لرئيسه أن المتمردين ألقوا عليه القبض في المتراس ، وأنه يدين بحياته لواحد من الثائرين عمد الى اطلاق رصاصته في الهواء ، وفي الوقت نفسه أطلق سراحه !

وقرأ ماريوس الكلمات – إنها أدلة لا تدحض .. إنها بلاغات رسمية ، انه مخطىء في حق جان فالجان ، ان جان فالجان فوق الشبهات ، انه انسان ملاك ..

ولم يستطع ماريوس كبت صرخة فرح مدوية أفلتت من بين شفتيه ، بله من قلبه ، وقال : « انه وايم الحق قديس .. ان هذا الرجل مظلوم مغبون ! » .

فقال تيناردي : « انه ليس كذلك ، فقد توخيت الصدق خدمة للحقيقة ، ولن أحيد قلامة عن هذه الحقيقة ، فجان فالجان لص وقاتل .. فهو لم يقتـــل جافير ولكنه قتل انساناً آخر .. فاسمع كلامي ثم احكم .. » .

وتنحنح الرجـــل ، واعتدل في جلسته ، ومضى يقول : « كان ذلك في السادس من حزيران سنة ١٨٣٢ يوم ثار الشعب ، وعصى البعض وتمرد .. وكان هناك في المجاري رجل يهيم على وجه .. » .

واقبل ماريوس على محدثه بكل جوارحه وأحاسيسه .

واستتلى تيناردي : « كان هذا الرجل يتخبط على غير هدى في المجاري

المظلمة ، ولم يكن يتهرب لجريمة سياسية ، او لمساهمة في القتال .. وكان رجل آخر يختفي أيضاً في المجاري ، ويحوز مفتاحاً يستطيع أن ينفذ به الى الخارج، وكنت أنا هو الرجل الآخر.

ورأيت ذلك الشخص يحمل شيئاً على كتفه .. فلما دنا مني وتبينت الشيء ، ايقنت أنه رجل قتيل .. وأن حامله هو قاتله وسارقه .. والذي أثار دهشتي يومذاك اصرار القاتل على الخروج بحمله .. وقد كاد هذا يكلفه غالياً ، كاد يكلفه حياته .. فقد غمرته المياه حتى أنفه ، وكان من السهل عليه ان ينقذ نفسه بيسرلو اطاح بالقتيل في تلك المياه الآسنة ، بيد انه لم يفعل ، ولحاجة في نفس يعقوب لم يفعل ..

ولما داناني رماني بنظرة نارية ، وقال - وهـو مارد جبار - انا اريـد الخروج من هذا النفق الملعون ، فهات المفتاح قبـل ان افتح في قلبك منفذاً لآخرتك ! » .

فلم اجسر على رفض مطلبه ، إلا اني تمكنت من الحصول على قطعة من ثياب القتيل . ها هي ذي ، انها معي .. فمن هـو القاتل يا ترى ؟ انه جان فالجان بالذات - لقد قتل الرجل وسرق ماله » .

ونهض ماريوس من مكانه وقـد اربدّت سحنته ، وتقلصت عضلاته ، واهتزت يداه .. ثم مشى بتؤدة شديدة الى الدولاب ، فاخرج منه سترة رجع بها الى مكانه وهو يقول بفتور من شرد عقله وطاشت سهامه: « ان القتيل الذي زعمت هو انا .. انا .. انا » .

واختطف القطعة من يد تينادردي ، واستتلى صاخباً : « انظر .. ألا ترى؟ ويحاً لك ! ألا ترى ؟ انها قطعة مزقتها يا هذا من سترتي .. » .

وتناول من جيبه اوراق النقد ، وجعل يقذف بها وجه تينادردي ويقول :

« خذ .. خذ .. انها لك ايها المنافق ، هاك خمسمئة .. خذ ، هذه ورقة ثانية، وثالثة ورابعة .. ايها الآفك المخاتل .. لقد اتيك تحمل الاتهام ، فانصفته من حيث لا تشعر .. اردت النيل منه ، فمدحته .. رغبت في تحطيمه فمجدته .. اما انت .. فانت القاتل .. وانت اللص .. انت يا جوندري ... فاذهب ، اغرب عن وجهي اسرع » .

ولنتم قصة هذا الآفك .. فقد اعانه ماريوس على السفر مع ابلته ازيلما الى امريكا ، بعد ان حول لاسمه مبلغ عشرين الف فرنك .. ومع انه بلغ من العمر عتياً الا انه ما كاد يطأ ارض الدنيا الجديدة بقدمه حتى نهج مسلكه الشائن فعاث فساداً . ولم يطل به الأمر ، فقد تخلصوا منه هناك بالسجن حيث مات فاراح واستراح .

●

ما كاد تيناردي يبارح الدار حتى هرع ماريوس الى كوزيت واهاب بها قائلا : « كوزيت ! كوزيت ! تعالي، اسرعي » .

فروعت كوزيت وحسبته فقد حجاه ، ولكنهـا امتثلت لأمره فنزلت ، واستقلت معه أول عربة مرت بهما .

وطفق يردد : « أواه ، انني شقي .. اننا ذاهبان الى منزل السيد جان .. إلى منزل ابيك ! » .

فصرخت كوزيت صرخة فرح ، وضمت زوجها الى صدرها .

واستتلى ماريوس بصوت متهدج : « أبوك يا كوزيت ! أبوك اكثر من أي وقت مضى ! انت لم تستلمي الرسالة التي خططتها من المتراس وبعثت بها مع غافروش ، انما الذي استلمها وقرأها هو أبوك .. فقـد هرع عقب ذلك الى

المتراس لينقذني ، وقد أنقذني ، بعد ان أنقذ سواي ! وقد حملني على كاهله ، ومشى بي في انفاق الأرض ومجاريها ، متعرضاً للاهوال ، مواجهاً الردي والوبال .. اواه ، يجب ان نكفر عن جحودنا .. يجب ان نأتي به الى دارنا .. اواه ، اسرع ايها الحوذي ، اكاد افقد عقلي ! » .

ووصلت العربة ، وترجل ماريوس وترجلت كوزيت .

١٥

سمع جان فالجان قرع الباب فاستفرغ ما عنده من الجهد وقال بصوت واهٍ : « أدخل » .

وفتح الباب ، وظهر على عتبته ماريوس وكوزيت .

واندفعت كوزيت الى الامام ، نحوه ولم يتحرك ماريوس .

« كوزيت .. » هتف جان فالجان ، « كوزيت .. » .

وغصت كوزيت بعبراتها ، فارتمت على صدره .

وهتفت وهي تشرق : « أبتاه .. » .

وزاغت عينا الرجل ، وطاشت سهامه ، وراح يقول بصوت مفعم بالتأثير :

« كوزيت ! هي ؟ انت ، يا سيدتي ؟ انت ، يا كوزيت ؟ اواه ، رباه ! » .

وضغط على يديها اللتين احتوتاه ، واستتلى :

« انت ، كوزيت ؟ انت هنا ؟ وهل صفحت لي ؟ » .

وأسبل ماريوس عينيه حتى لا يفضح دمعه . وتقدم من الاثنين ، وقال بشفتين مطبقتين تكاد الزفرات تفلت منهما « ابي » .

« وانت ايضاً تغفر لي ؟ » قال جان فالجان . ورنا اليه بطرف مخضلّ ،

فصمت ماريوس صمت الواله . وأضاف جان فالجان : « شكراً لك » .

ونزعت كوزيت وشاحها ، وخلعت عـــن رأسها قبعتها ، ورمت بهما الى السرير . ثم جلست على ركبتي الشيخ ، ومسحت على جبينـــه المتندي بعرق الضعف والانحلال ، ومررت اناملها خلال شعره الناصع البياض ، وصوبت الى وجهه نظرة حب وولاء .

وتكلم الرجل المكسور الذي برّح به الوجد فقال :

« ما اشد حمقنا ! خلت اني لن أراها .. أي سيدي البارون ، كنت قبيل ولوجكم غرفتي ، اتألم لعزلتي واقول : انها لن تأتي ، لقـــد انتهى كل شيء ! كنت أقول هذا ، وانظر الى ثوبها الصغير . ودخلتما.. ألست سخيفاً فيا ظننت؟ ألم أجحد نعمة ربي حينما خلت انه تخلى عني ونبذني ؟ لا .. لا .. لقد أتيتما .. فالشيخ المسكين في حاجة الى ملاكه ، وها هو ملاكه ، هـــا هي كوزيت .. أراها ثانية ، وانعم بقربها ثانية .. » .

والتفت جان فالجان ناحية ماريوس وقال : « فأنت قد صفحت لي يا سيدي ، وعلامة صفحك قدومك ! » .

عند ذلك شعر ماريوس بأنه شرب الكأس حتى الثمالة فنظر الى كوزيت نظرة تفيض بالحب والأسى وقال :

« كوزيت ، أتسمعين كلامه ؟ انها طريقتـــه في الحياة : يستجدي الرحمة والغفران مني ، وأنا أولى منه بطلب الصفح .. يطلب الرضا وهو الذي أنقذني من انياب الفناء ! » .

فقال جان فالجان هامساً : « صَه .. صَه .. » .

وتابع ماريوس غير حافل باعتراضه ، تابع بصوت يمتزج فيه الحب بالتقديس: « وأعجب وايم الحق لصمتك وركونك الى هذه التضحية الهائلة .. انت تنقذ ارواح الناس وتختفي وراء اعمالك ! وثالثة الاثافي انك طعنت نفسك بنصل المذلة والهوان تحت ستار من التستر والتقنع وعدم الظهور للعيان ! » .

قال : « اني بالصدق نطقت » .

فقال ماريوس : « كلا ، فالصدق هو الصدق كله ، لا جزء منه ، وانت اغفلت الجانب المشرق من الحقيقة وامطت اللثام عن الناحية المظلمة .. كنت السيد مادلين ، فلماذا لم تقل ؟ انقذت جافير ، فلماذا لم تقل ؟ وهبتني الحياة ، بعد ان شارفت الموت ، فلماذا لم تقل ؟ » .

وقالت كوزيت : « غرفتك تنتظرك ، ولو علمت ما اضفى الربيع على الحديقة اليانعة من رونق ورواء ، لما ترددت لحظة في الاياب .. اني ارعى الأزاهير بيدي ، واسقيها ، واتعهدها ، وكأني امها .. ولا تقل سيدتي ، ولن اقول السيد جان ، نحن جمهورية ، أليس كذلك يا ماريوس ! اننا جميعاً سواء في السعادة ، كلنا يضحك ، وكلنا يبتهل الى الله ان يديم الصفاء ، ويبعد الكدر ، وما قربك الا تتمة وتكملة لما حبا الله به من نعمة ! .. »

وتمتم جان فالجان : « يا ليتني استطيع ! » .

وامسكت كوزيت بقبضته وعجلت تقول : « يا الهي ! ان برودة يدك تخيفني ، فهل تتألم ؟ هل تشكو ؟ » .

« سأموت ، حياتي لا تحصى بالايام والساعات بل بالدقائق »

واقشعر بدن الزوجين ، وصاح ماريوس : « تموت ! ما هذا الهراء ؟ ! » .

قال : « اجل ولا شك في ذلك ، وما فيه الا الخير ! » .

وتنفس الصعداء ، وابتسم ، واستتلى :

« كوزيت ، كنت تتكلمين معي ، فاستمري ، واصلي كلامك ، استرسلي فيه ، افيضي » .

وصرخت كوزيت صرخة ألم ويأس : « ابي ! ابي ! يجب ان تحيا ، سأجعلك تحيا ! » .

ورفع المحتضر اليها رأسه بحب واجاب : « امنعي الموت عني او امنعيني عن الموت ، فمن يعلم ؟ قد اطيع » .

وحدد جان فالجان عينيه في وجه كوزيت ، وكأنه يبغي من وراء ذلك ان يطبع اساريرها في مخيلته .. واضاء وجهه وهو في حضرة الموت بنور الفرح والرضا ، وقال بعد قليل : « لقد انتهيت ايها الطبيب ! » .

واشاح وجهه وغمغم : « لا شيء ان يموت الانسان ، ولكنه من المخيف ان لا يعيش ! » .

ونهض بغتة – ورجوع القوة احياناً ظاهرة لصراع الموت – ومشى بخطى ثابتة ، فجاء بالشمعدانين وجلس على فراشه .

وتشنجت يداه ، واختلجت عضلات وجهه ، ونظر الى المصلوب ، وقال : « انظروا الى الشهيد » .

وتقطع نفسه ، وغاص صدره ، وتمايل رأسه ، وكأن دوار القبر حاق به .

وانتحبت كوزيت ، وامسكته من كتفيه وحاولت ان تتكلم ، ولكن لسانها ألجم ، فلم تقل إلا كلمات متقطعة مخنوقة ، كان منها : « ابي ! لا تذهب .. هل وجدناك لنفقدك ؟ ابي ! ابي » .

وسكرة الموت لها ذبذبة كأنها البعث .. فهي تروح وتجيء ، فتصل القبر وترجع منه . فقد فتح المحتضر عينيه ، وضم الى فمه قبضة من رداء كوزيت ، ثم قال : « أي ماريوس ؟ لشد ما آلمني امتناعك عن قبول المال . ان المال هذا مصدره الكفاح والعمل المضني .. انه لكوزيت .. وكل درهم منه كسبته بعرق الجبين » .

ودخلت صاحبة المنزل في تلك الاثناء وخاطبته قائلة : « هل ترغب في الاعتراف ؟ هل اجلب لك قساً ؟ » .

قال : « انه موجود هنا ! » واشار بيده الى الحائط ، حيث تراءى للجميع انه يرى شبحاً ! » .

ولعل اسقف (ديني) الورع كان يشهد هذا الصراع الناشب بين الحياة والموت .

ووقف ماريوس ، ووقفت كوزيت . واشتبكت ايديهما المرتعدة . ورمقا الميت بقلبين يقطران دماً .

وتداعى جان فالجان .. واخذت مقاومته تضمحل وتتلاشى .. كان يذوب رويداً رويداً .. كان يوسع الخطا الى الأفق القاتم .. وانبهر نفسه ، ورافقته حشرجة .. وجمدت يداه .. وشلت ساقاه ..

ومن عينيه انبثق النور – نور المجهول – كأقوى ما يكون !

وزاد اصفرار محياه ، ولكنه ظل يبتسم .. وانساب نفسه ، كأنه يتعجل النهاية ، ولكن نظرته صفت حتى اضحت رائعة تشعّ بالايمان والاطمئنان .

وجثا الاثنان . وامسكا بيدي جان فالجان .

ومال رأسه الى الوراء وانعكس الضوء على وجهه الساكن وعينيه المتجهتين الى السماء .

وكان الليل دامساً والسماء متلبدة بالغيوم .. ولا شك ان هناك .. في تلك الحلكة .. استوى ملاك مبسوط الجناحين ، ينتظر الروح !

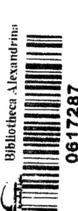
تمت

البؤساء

مَا أكثر الروايات التي لم تكتب لغرض سام. ومَا أكثر مَا تهافت عليها الناس، ولكن اقبالهم كان لوقتٍ قصير، لم يعتموا بعده ان انصرفوا غير آبهين

ومَا اقل الكتب الخالدة التي الفها العظماء لتكون نبراسًا للآلاف من بني البشر، ولتكون عبرة لهم وعظة

وفيكتور هيجو تبوأ قمة المجد. وكتابه البؤساء هو الحياة كما عرفها الانسان منذ فجر الحياة - بمرها وحلوها، ببؤسها وسعادتها، بتفاهتها وعظمتها!!



الثمن : ٦٠٠ ق. ل.